

الورقة الحمراء



أليف الكاتب الأسباني: ميغيل دي ليبيس
ترجمة وتقديم: علي عبد الرؤوف البهبي



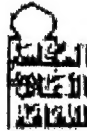
المشروع القومي للترجمة

الورقة الحمراء

القصة الفائزة بجائزة مؤسسة خوان مارش

تأليف الكاتب الأسباني
ميجيل دي ليس

ترجمة وتقديم
د. علي عبد الرؤوف البمبي



٢٠٠٠

الورقة الحمراء _____

هذه هي الترجمة الكاملة لرواية: "الورقة
الحمراء" [الطبعة الثامنة - ١٩٨٨].
للكاتب الأسباني "ميغيل دي ليبس"

Miguel Delibes: La hoja roja, Destino libro,
Barcelona, 1988 [octava edición]

النزعة الإنسانية في رواية «الورقة الحمراء»

للكاتب الأسباني: ميغيل دي ليبيس

بقلم د. علي عبدالرؤف علي البمبي

١- الروائي الإنسان:

يتفق عامة النقاد على أن القرن العشرين هو بمثابة عصر ذهبي جديد بالنسبة للأدب الأسباني. ولم يأت هذه الاتفاق من فراغ لأن الحقائق تشير إلى أن هذا الأدب قد اتسم فعلا بالنمو والثراء منذ السنوات الأولى للقرن الحالي. فقد ظهر فيه أساطين في العلم والأدب وتعددت المدارس والمذاهب الفنية والأدبية ذات الملامح المحددة والتأثيرات العميقة. وإذا كان فن الشعر هو الذي سيطر على الساحة الأدبية في أسبانيا خلال العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين، فإن فن الرواية قد طغى على بقية الأجناس الأدبية الأخرى مع بداية النصف الثاني للقرن الحالي بتناميه المتلاحق والسريع، واستيعابه لكل الاتجاهات الحديثة التي ظهرت في أوروبا والأمريكيتين (وبخاصة اللاتينية).

ويعتبر ميغيل دي ليبيس (Miguel Delibes) -الذي نقدم له هذه الرواية- من أفضل الروائيين الأسبان الذين ظهروا بعد الحرب الأهلية [١٩٣٦-١٩٣٩] حتى يومنا هذا، بل إنه أقرب من غيره إلى ثقافة وعادات وتقاليد الإنسان العربي لأنه كاتب يلتزم بالأخلاق ويهتم بكل ما هو أصيل

وعفويّ، بالإضافة إلى تدينه الواعي والعميق.. وكثير من النقاد يصنفه ضمن أفضل ستة روائيين ظهوروا بعد الحرب الأهلية الأسبانية، وهناك من يعتبره - بالإضافة إلى كامبلو خوسيه ثيلا (Camilo Jose Cela)، كارمن لافوريت [Carmen Laforet] - أكثر الروائيين خصوصية وثراءً من بعد الحرب الأهلية وحتى يومنا هذا^(١).

ولأهمية «دى ليبس» الروائية فقد ترجمت أعماله إلى كل لغات العالم الحية، وتناولتها بالتحليل والنقد والدراسة أبحاث ورسائل جامعية لا تعد ولا تحصى، كما تم اختياره عضواً بالأكاديمية اللغوية الملكية الأسبانية (مجمع الخالدين) منذ عام ١٩٧٣.

وُلد «دى ليبس» عام ١٩٢٠ في مدينة بلد الوليد (Valladolid)، وحصل على الدكتوراه في القانون التجارى عام ١٩٤٥، وعمل استاذاً لهذه المادة في جامعة بلد الوليد، ولا يزال يعيش في تلك المدينة الإقليمية (مع أولاده وأحفاده) حتى يومنا هذا بعد أن رفض كل المغريات للانتقال إلى العاصمة مدريد.

وإلى جانب العمل الأكاديمي فقد مارس العمل الصحفي لفترة طويلة من الزمن، كما رأس تحرير مجلة شعرية، واشتغل أيضاً بالنقد السينمائي، وهو يهوى الرسم وقد أقام معرضاً لرسوماته ولوحاته.. ومن أبرز أعماله الصحفية رئاسته - وهو في ريعان الشباب - لتحرير مجلة «شمال قشتالة» (Norte de Castilla) والتي دافع من خلالها عن حقوق الفلاحين وعن قضاياهم. وقد أدى موقفه الإنساني الصريح والشجاع من قضايا مثل التخلف والظلم الاجتماعى إلى الصدام المبكر مع الإدارة السياسية واضطراره للاستقالة من منصبه.

ويرى الناقد الأسباني المعروف ألكوس بوراش (Alarcos Lorach) في تعليق له على مقالات «دى ليبس» الزراعية في المجلة المذكورة بأنها كانت بمثابة «البذرة لمواهبه الروائية التي ستظهر بعد»^(٢)

لكن مقالاته فى تلك المجلة قد كشفت عن اتجاهاته وميوله المبكرة،
والتي لم تكن أبداً سياسية أو حزبية بل إنسانية فى مجملها.

ولقد سافر دى ليبس إلى معظم دول أوروبا والأمريكتين، وكان أحد
الكتاب الاسبان القلائل الذين دعوا لزيارة دول أوروبا الشرقية قبل انهيار
الاتحاد السوفيتى .. ومع كثرة أسفاره فى مشارق الأرض ومغاربها إلا
أنه يهوى قرية صغيرة تسمى «سيدانو» Sedano وتقع فى محافظة
برغش (Burgos). وحبه الجم لهذه القرية يرجع لجمال طبيعتها
ولبساطة سكانها ولذكريات الصيد بها وهو صبى بصحة والده. فقد
كان شغوفاً بالصيد طوال السنوات الأولى من حياته مما دفع أحد
النقاد لأن يقول بأنه «ليس كاتباً يصيد، بل صياد يكتب»^(٢) ولكن يبرهن
«دى ليبس» على صدق هذه المقولة اتجه إلى كتابه العديد من الروايات
والكتب التى تتناول موضوع الصيد.

وأول رواية صدرت له كانت «ظل شجرة السرو الممتد» والتى نشرت
عام ١٩٤٩ وحصلت على جائزة «نادال» (Nadal) الشهيرة فور صدورها.

وبعد هذه الرواية توالى عطاء الكاتب، فكتب عشرات الروايات وبعض
كتب الرحلات والعديد من المؤلفات المتصلة بموضوع الصيد، ومجموعات
من القصص القصيرة، بالإضافة إلى عدد غير قليل من المقالات
والدراسات الأدبية والنقدية.. ومن هذه المؤلفات، نذكر: «ظل شجرة السرو
الممتد» (١٩٤٩)، «لازال الوقت نهارا» (١٩٤٩)، الطريق (١٩٥٠)،
«يوميّات صياد» (١٩٥٥)، «يوميّات مهاجر» (١٩٥٨)، «الورقة الحمراء»
(١٩٥٩)، «أنا والولايات المتحدة الأمريكية» (كتاب رحلات - ١٩٦٠)،
«الفئران» (١٩٦٢)، «خمس ساعات مع ماريو» (١٩٦٦)، «أوريا: محطة
وخان» (١٩٧٠)، «حكايات قديمة لقشتالة العجوز» (١٩٧٠)، «الكفن»
(١٩٧٠)، «البندقية على الكتف» (١٩٧٠)، «الصيد فى أسبانيا» (١٩٧٢)،

«الأمير المخلوع» (١٩٧٣)، «عام من حياتي» (مقالات وسيرة ذاتية - ١٩٧٥)، «حرب الأجداد» (١٩٧٩)، «صوت السيد كايو المشكوك فيه» (١٩٧٩)، «الملائكة الأبرياء» (١٩٨١) .. إلخ.

وقد حصل «دى ليبس» على كثير من الجوائز الأدبية - خاصة في مجال القصة والرواية-، فعلاوة على جائزة «نادال» التي فازت بها روايته الأولى، فازت رواية «الورقة الحمراء» بجائزة مؤسسة «خوان مارش»، ورواية «يوميات صياد» بجائزة الدولة في الأدب، ورواية «القيولة وريح الجنوب» بجائزة الأكاديمية اللغوية، ورواية «الفئران» بجائزة النقد.. إلخ.. وكان بإمكانه الفوز بجوائز أخرى عديدة لو لم يحجم عن الاشتراك في المسابقات الأدبية المختلفة، وذلك بسبب إحساسه العميق بمدى قيمته ككاتب، وإفساح المجال أمام المؤلفين الشبان وعدم مزاحمتهم في أشياء قد تكون حافزا لهم على الاستمرار والإجادة في عالم الخلق والإبداع الفني. وتتضح هذه الحقائق بجلاء في هذه الإجابة القصيرة لكاتبنا على سؤال طرحه عليه الناقد «ألونسو دى لوس ريوس» (Alonso de los Rios). فعندما سأل الناقد عن سر إجماعه عن الاشتراك في المسابقات الأدبية ردَّ عليه «دى ليبس» قائلا: «أعتقد أنه من المناسب لى في مثل هذه السن وفي وضعي الحالي مزاحمة شاب يقدم لنا قصته الأولى»^(٤)

وتجدر الإشارة إلى أن بعض أعمال «دى ليبس» الروائية قد تحولت إلى مسرحيات (ومنها الرواية التي نتحدث عنها) وتحول البعض الآخر إلى أفلام سينمائية، وفي كل الأحوال كانت أعماله تلاقى إقبالا منقطع النظير سواء من قبل القراء أو من رواد السينما والمسرح.

ولقد كرمته أسبانيا في مناسبات عديدة: حيث حصل على جائزة أمير «أستورياس» (ولي عهد أسبانيا) ذات الأهمية الكبيرة، كما منحته الدولة جوائزها التقديرية عام ١٩٩٠.

وتتسم شخصية «ديس ليبس» - سواء على الصعيد الأدبي أو الإنساني - بالتوازن، والذي أسهمت فيه عدة عوامل تعود إلى نشأته الأولى، ومن بينها نذكر: شعوره الديني العميق، الاستقرار النفسي والروحي، زواجه المبكر ورعايته لأسرة كبيرة، حبه للطبيعة بكل ما تشتمل عليه من حيوان ونبات وطيور وسماء وأرض، افتتانه بكل ما هو أصيل وعفوي، ونفوره - في المقابل - من كل ما هو زائف ومصطنع (بل ومخترع أيضا)، واستقامته وتحليه بمكارم الأخلاق.. إلخ.

ولقد أدت هذه السمات المبكرة إلى تحديد نوعية اهتماماته فيما بعد (مثل الوقوف إلى جانب المظلومين والفقراء والطبقات الدنيا في المجتمع)، وإلى تفضيله للموضوعات الخالدة في رواياته (الله، الطبيعة، الحب، الموت، الحرية، الدفء الإنساني، العدالة الاجتماعية، الإحساس بالآخر، التواد والتراحم... إلخ)، وإلى نفوره كذلك من كل ما يمت بصلة للمشاعر الرخيصة والغرائز الشاذة والموضوعات المتهتكة الفاضحة.

وأسلوب حياة «دي ليبس» المستقيم ومشاعره الإنسانية العميقة وتعففه عن الشهرة والمال، وإحساسه الأخوي بأنّات المظلومين قد جعلت منه أنموذجا يحتذى لكل من يبغي توظيف ملكاته الفنية في تحرير جوهر الإنسان من طغيان المظاهر المادية ومن استعباد الآلة والمخترعات الحديثة.

٢ - قسّمات من عالم «دي ليبس» الروائي:

ينصبّ جلّ اهتمام كاتبنا - سواء في أعماله النقدية أو الإبداعية - على الإنسان كفرد تربطه بمجتمعه علاقات متنوعة وشائكة.

ومن القضايا التي يعرضها في رواياته قضية الفقر، واهتمامه بها يرجع إلى صلتة الحميمة والوطيدة بالطبقات الدنيا وخاصة بفلاحى المناطق الأشد قحولة من إقليم «قشتالة».

فالكاتب يرصد مظاهر البؤس والشقاء الناجمة عن التفاوت الطبقي والتوزيع غير العادل للثروات بهدف إبرازها والعمل على حلها.. ويقترح المؤلف نظاما للإصلاح الزراعى يعود بالنفع على القرى القشتالية التى تعاني من الفقر والتخلف نتيجة لتاريخها الحربى الطويل.

ومن هذا المنطلق فهو يدافع عن حتمية تكافؤ الفرص وإزالة الفوارق بين الطبقات وضرورة تمتع الأفراد بالحرية والكرامة.

وهو لا يفعل هذا من منطلق سياسى أو أيديولوجى بل من منطلق إنسانى بحت.

ومن القضايا الهامة الأخرى التى يطرحها في رواياته مشكلة «الإحساس بالوحدة» لدى إنسان العصر الحديث. وأسباب هذا الإحساس تعود إلى التفكك الأسرى وانحسار الود بين أفراد الأسرة الواحدة وتراجع - وربما انعدام - التواصل والتفاهم بين أفراد العصر الحديث، وقلة الاهتمام بالقطاعات الشعبية وتقهر التضامن بين بنى البشر، علاوة على الشيخوخة والرغبة من الموت.

ولأن شخصيات «دى ليبس» تنتمى إلى الطبقات الكادحة المهمشة فإنها دائما تكابد الأهوال وتحمل المشاق من أجل أن تشق لنفسها طريقا فى الحياة يوفر لها ولو جزءا من السعادة، لكن محاولاتها تضيع سدى وينتهى بها الحال إلى التعاسة لأن العقبات التى تصطدم بها تفوق قدراتها المحدودة. ولذا يقترح «دى ليبس» إعادة النظر فى النظام الاجتماعى والاقتصادى، وضرورة أن يتحمل كل فردا جزءا من المسئولية

تجاه الآخرين، وتعميق الرغبة النابعة من الحس الإنساني فى معاونة من أقعدتهم ظروفهم عن اللحاق بمستوى حياة كريم.

وبالإضافة إلى اهتمام الكاتب بالفلاحين وأصحاب المهن المتواضعة والعجائز نجده يهتم أيضا بمشكلة التربية، وخاصة تربية الأطفال والشباب فى الأسرة والمدرسة. ويوحى إلينا بخطة منظمة للتربية تشمل جميع أفراد المجتمع وتراعى أهلية وكفاءة واهتمامات كل فرد.

وبالطبع فإن مشاكل المجتمع معقدة وليس من السهل حلها، لكن المؤلف يعتقد بأنه من الممكن التوصل إلى العدل الاجتماعى دون الإضرار بذاتية الفرد أو بحريته إذا خلصت النية فى ذلك.

أما من جهة الشخصيات، فمن المعروف أن لكل روائى الحق فى اللجوء إلى المعيار الذى يراه مناسباً، ومن ثم يقع على عاتقه تحديد سمات الشخصيات التى يختارها لسكنى جنبات رواياته، وكذلك محيطها الاجتماعى وأعمارها ومقوماتها الذاتية..إلخ.

وهو يختار شخصيات من الحياة الواقعية أو من الواقع الملاحظ ويقوم بإعادة تشكيلها وخلقها مع إضفاء السمات والملامح المناسبة لها. كما يعتبرها بمثابة لحمه الرواية ونخاعها، فهو يعترف قائلاً: «يمكن أن تكون الشخصيات واقعية، ولجعلها كذلك فإننى أبذل قصارى جهدى. الرواية - بالنسبة لى - عبارة عن شخصيات تمرح فوق صفحاتها قبل أن تكون حبكة وتكنيكاً»^(٥).

ويطلق الناقد «لوهيكي» (Leo Hickey) على معظم شخصيات «دى لىبس» صفة «الدونية فى جميع أبعادها»^(٦).

وبالفعل فإن كاتبنا يولى اهتماماً خاصاً بالنوعيات المتواضعة التى تعيش على هامش المجتمع، وهى نوعيات بسيطة وفقيرة تعيش فى عزلة عن محيطها

الاجتماعى، وعزالتها هى السبب فى الحفاظ على سلوكياتها او تصرفاتها الطبيعية (الفطرية) التى لا تعرف النفاق أو التظاهر، ومن هنا فإن العنصر الإنسانى يظهر فيها كما هو دون تحريف. ولذلك لا يتردد كاتبنا فى الاعتراف بأن معظم مؤلفاته لا تحتوى على «بطل» بل على «البطل المضاد»^(٧).

ومن المعروف أن مفهوم «البطل» كان يطلق على الشخصية الرئيسية ذات المواهب الرفيعة التى تتصرف بحكمة وتندفع إلى غايتها مسلحة بالعزيمة والرغبة فى الانتصار. إنها تشبه فى عصرنا شخصية «السوبرمان» الجديرة بالاحترام والاحتذاء.

لكن هذا المفهوم القديم للبطل قد أخذ فى التآكل خلال القرن التاسع عشر ووصل إلى ذروة التحات فى القرن العشرين ليفسح المجال أمام مفهوم «البطل المضاد». وهذا الأخير مخالف تماما لسابقة، بمعنى أنه - أى البطل المضاد - ذو شخصية ضعيفة، يخلو من المواهب التى تؤهله لأن يرتقى فى الحياة، عديم الثقة بالنفس، يائس... إلخ.

وفى أعمال «دى ليس» لا يوجد مكان للبطل أو للشخصية الخارقة بل لتلك النماذج التى لا تمتلك زمام حاضرها ولا تستطيع أن تعد وتخطط لمستقبلها. وبما أنه كاتب لا يهتم فيما يعالجه بالحنلفة الفكرية فإنه لا يلقى بالا للانتصارات الكبيرة أو البطولات الفذة ولا حتى للمواهب الرفيعة مثل الذكاء وقوة الإرادة. ما يهمه - ككاتب وإنسان - هو إبراز كل ما يمت للإنسانية الحقبة بصلة مثل الصفات العادية التى تلازم الإنسان أو الفضائل التى تعتبر فى درجة أدنى (البساطة، العفوية، حب الطبيعة، التمتع بالمباح من مباحج الحياة).

وهو يقدر فى الرجال صفتين: البساطة والتراحم، وفى النساء: البساطة ولين الجانب^(٨). وفى إيجاز يمكن القول بأن كاتبنا يهتم - سواء فى أسبانيا أو فى خارجها - بالفقراء والبسطاء الذين لم ينالوا حظهم من الحياة، بقصد تحسين أوضاعهم الحياتية. وفى تقديمه لشخصياته يعطى

أولوية الطبقة الشعبية لأنها تستحق العناية والشفقة والمساعدة، ويقابل بينها - أحيانا - وبين الطبقة المتوسطة بقصد إبراز الفوارق بين الطبقات الاجتماعية ولكي يلفت الانتباه إلى الحاجة الملحة لتصحيح أوضاع الطبقات الدنيا وحل مشكلاتها.

ومن خلال التعرف على مزاج الكاتب في انتقاء شخصياته يمكن الاهتداء إلى البيئة أو المكان الذي تدور فيه أحداث معظم رواياته، وهي في المقام الأول بيئة ريفية، وتتلوها في الأهمية البيئة الحضرية للأوساط الشعبية ثم البيئة أو المحيط الأسرى.

ولقد أدى اهتمام الكاتب المبكر بقضايا قشتالة وعمله الصحفي في مستقبل حياته إلى توطيد الصلة بينه وبين عامة الناس، وخاصة بفلاحى إقليمه الذى عاش فيه طوال حياته ولم يتركه إلى غيره. ومن ثم نجد أن البيئة الريفية هى الأكثر وضوحا فى جل أعماله حتى أن أبطال قصصه التى تدور أحداثها فى الحواضر كثيرا ما يهرعون إلى الريف طلبا للتغيير أو للاستمتاع بالطبيعة أو لصيد الحيوانات والطيور التى تفرح بين جنباته. ولقد دفع اهتمام "دى ليبس" بريف قشتالة أحد النقاد لأن يقول بأن كاتبنا يرى الريف موطنًا للفضائل على حين تغص المدينة بالزائل: «العالم الذى يفضل «دى ليبس» سبر أغواره وإعادة خلقه فنيا يتمثل فى القرية والريف. ليس فقط لأنه يعرفه بل لأنه يحبه، وهذا يدعونا لأن نجتزأ ونقول بأنه يعتقد أن الشرور والآثام موطنها المدينة والحياة الحديثة»^(٩).

لكن «دى ليبس» يفسر لنا سر اهتمامه بالريف والقرية من خلال هذا التعليق على ملاحظة تورينتى بايستير» (Torrente Ballester) السابقة: «ربما يكون ميلى لكل ماهو ريفى والحنان الغريزى الذى أعتاد أن أغلف به هذه البيئات بما عليها من سكان هو السبب الذى دفع «بايستير» لأن يعتقد هذا. لكن هذا الميل وما يصحبه من حنان يمكن أن

يعنى فى المقام الأول الإحساس بالشفقة لإهمال تلك البهائم قبل أن يكون مجرد اعتراف بفضائلها. ما أريد أن أقوله هو أن الريف يغص كذلك بالرزائل لكن الفلاح ليس هو المسئول الأوحدها؛ وعلى خلاف هذا فإن رزائل الحضر- فيما عدا بعض الحالات - متعمدة ومقصودة ولايتسبب فيها الجهل وبدائية الطباع بل الضجر والرقى المعيشى المصاحب للتقدم. ومن ثم فإن رزائل الفلاحين ليست فقط متأصلة فى طبائعهم بل أيضا يشوبها العذر»^(١٠).

ومن جهتنا، فيمكن إرجاع اهتمامه بالريف وسكان وتخصيصه لروايات وكتب عدة تتناول موضوع الصيد فقط إلى طبيعة تكوينه ونشأته وإلى خبرته الشخصية. فمن المعروف أن الكاتب ولد فى مدينة إقليمية وكان يرافق - وهو صبي - والده فى رحلة الصيد الأسبوعية ، وكان يقوم بتجهيز المؤن وأدوات الصيد، وبهذا الشكل أخذت روحه تتألف مع هذه الحياة البدائية ذات الأفاق اللانهائية التى لايحدها سياج ولاعائق من صنع البشر.

أما بالنسبة للبيئة الحضرية، فنجد أن «دى ليبس» يختار الأماكن الشعبية والأحياء الفقيرة، ويبرز فيها الجوانب السلبية. كما أنه لا يصفها لنا بالتفصيل على خلاف عادته فى البيئة الريفية، بل يقدم تنفا وصفية قصيرة تلقى الضوء على سلوكيات الشخصيات وردود أفعالها تجاه الظروف المحيطة بها.

وعلى صعيد المحيط الأسرى يعتقد «دى ليبس» أن الأسرة عنصر مؤثر فى نمو وتطور شخصية الفرد. فالأسرة هى الكيان الجوهري الذى يجب أن يتوافر فيه الحنان والشعور بالمسئولية المشتركة. والخطر الإحد الذى يمكن أن تفرزه الأسرة المتماسكة يتمثل فى إمكانية تأصيل نوع من الأنانية لدى فرد فيها، ومع هذا فإن العلاقات الحميمة والتعاون المشترك بين أفرادها يلقيان بظلالهما على الآخرين ويؤثران إيجابا على المجتمع^(١١).

ومما تقدم يتضح أن معظم شخصيات «دى ليبس» تنتسب إلى الطبقات الدنيا: فهي شخصيات فقيرة، محملة بالمأسى، تحيط بها المشاكل من كل نوع، ولذلك فهي فى صراع دائم مع محيطها الاجتماعي. و الكاتب ينطلق فى معالجته لهذا الصراع من وجهه نظر أخلاقية اجتماعية.

ولطبيعة الصراع الدائم الذى تعيشه مثل هذه الشخصيات الفقيرة المطحونة فإن القسمات الدرامية السلبية المشبعة بالألوان القاتمة هى المسيطرة على محيطها الروائى. وبالرغم من هذا فإن روح الدعابة والتكهم والسخرية والنزعة الشاعرة عند الكاتب تعتبر الثقل المضاد الذى يخفف من قتامة الألوان (النفسية والمعنوية بالطبع) ويحول المناظر الكريهة إلى بسمات لاذعة.

وبفضل هذه الخواص (روح الدعابة والتكهم والسخرية والنزعة الشاعرة) فإن أعمال الكاتب لم تسقط فى بحر الفظاظلة والتشاؤم السوداويين اللذين يعتبران السمة المميزة لكتاب جيله أمثال : كاميلو خوسيه ثيلا، كارمن لافوريت، خوسيه ماريّا خيرونيا^(١٢).

ويمكن أن نلخص اهتمامات «دى ليبس» المذكورة آنفا - سواء بالنسبة للموضوعات أو الشخصيات أو البيئات - فى كلمة واحدة : وهى الأصالة. وبما أن هذه الخاصية هى صفة شخصية يتحلى بها الكاتب فإنه - بالتأكيد - ينطلق منها عند معالجته لفنه الروائى . ويؤكد هذا الفهم ما ذكره الكاتب عن نفسه فى إحدى المناسبات حينما قال : «اهتمامى بالشخصيات الأصيلة التى تعتمد على الفطرة ليس مجرد نزوة أو صدفة . بالنسبة لى، الرواية هى الإنسان، بعلاقاته الأصيلة العفوية دون بتر أو تشويه. وهذا النوع من البشر لا يمكن أن نعثر عليه الآن تحت مظلة التقدم المادى إلا فى القرية أو بين الطبقات الدنيا من المجتمع»^(١٣).

والإلحاح على الأصالة بهذا المفهوم يقودنا إلى التعرف - ولو بإيجاز - عن وجهة نظر الكاتب في التقدم المادى الحديث بما يشتمل عليه من الآلات ومخترعات . ومن خلال قراءة أعماله المختلفة يتضح أن مفهوم «التقدم» عنده يرتبط بالتقنيات الحديثة والآلات ووسائل الإعلام وبالمدينة كوعاء له . وهو ضد كل هذه الأشياء لا لأنه يكره التقدم أو الآلة فى حد ذاتهما بل لأنهما استخدمتا بطريقة تسببت فى فقدان الإنسان لحيته وجوهره، وجففت ينابيع مواهبه ومشاعره، كما قضت على التوازن الأزلى فى الطبيعة.

فالآلة حولت الإنسان إلى عبد لها، تحكمت فيه وسرقت منه مبادرته الفطرية وحيته واهتمامه بالآخرين.. أما وسائل الإعلام فقد قضت هى الأخرى على التميز والاختلاف بين الشعوب والأمم فى العادات والتقاليد والسلوكيات والمظهر العام واللغة المستخدمة، وحولتهم إلى مسوخ متشابهة يسهل التحكم فيها سياسيا وإداريا: أى أنها ضد حكمة التعارف التى خلق الله الناس من أجلها شعوبيا وقبائلا.

كما أخل التقدم الحديث بالتوازن فى الطبيعة بكل ما تشتمل عليه من مكونات .. وقد أدى تركيز المظاهر المادية فى المدينة إلى هجرة غالبية سكان القرى إليها تاركين أراضيهم مما أضعف المدينة والقرية سواء بسواء.

وبالطبع فإن «دى ليبس» قد أو عز فى رواياته بالحلول المناسبة لكل هذه المشاكل لكى يعيد للإنسان حيته وفطرته.

ووجهة نظر الكاتب فى التقدم المادى الحديث قد أفصحت عنها تصريحات كثيرة له، لكننا سنكتفى بهذه الكلمات الموجزة المعبرة التى جاءت على لسان عالم الأنثروبولوجيا الفرنسى «كلاود ليفى شتراوس» وتبناها دى ليبس : «لا يروقنى كثيرا القرن الذى نعيش فيه . من وجهة نظري، فإن الاتجاه الحالى ينحو - من جهة - إلى السيطرة الكاملة للإنسان على الطبيعة، ومن جهة أخرى إلى سيطرة بعض الأشكال الحياتية على البعض

الآخر. ومزاجي ونوقي يقوداني إلى الماضي الغابر، إلى عصور أكثر تواضعا وبساطة كانت تحترم التوازن بين الإنسان والطبيعة، وبين الأشكال المتعددة والمختلفة للحياة - سواء بالنسبة للحيوان أو النبات - وبين أنواع الثقافات والمعتقدات والعادات أو الكيانات المتعددة...»^(١٤).

ومما تقدم يتضح لنا أن «دى لייس» يوجه كل اهتمامه للدفاع عن حرية الإنسان وكرامته وحقوقه الطبيعية ومشاعره وأحاسيسه الخالصة، ويحذر في نفس الوقت من مغبة الاستسلام للآلة ومن عواقب الإخلال بالتوازن الكامن في الأرض التي نعيش عليها، وهو لذلك يعالج الموضوعات الخالدة في رواياته ويدافع عن القضايا الإنسانية ويختار الشخصيات البسيطة العفوية التي تتصرف بوحى من غرائزها ولم تلوث بوهن المدنية الحديثة ولا بأساليبها المصطنعة.

٣- رواية «الورقة الحمراء» :

صدرت هذه الراوية عام ١٩٥٩ وطبعت مرات عديدة بعدها وفي دور نشر مختلفة (طبعت حتى عام ١٩٩٧ أربع عشرة طبعة في دار نشر واحدة)، وفيها يعرض علينا الكاتب شخصيات بسيطة تنتمي إلى الطبقة الفقيرة المطحونة مثلما يفعل في معظم رواياته .. فلقد درج الكاتب - كما أسلفنا القول - على الوقوف بجانب الضعفاء والمظلومين، يحس باناتهم وأوجاعهم، يتحدث بلسانهم ويعبر عن مكنونات صدورهم، منبها إلى فداحة الظلم الذي يأخذ بتلابيبهم وداعيا إلى حل مشكلاتهم وتخفيف آلامهم التي يتسبب فيها عادة نظام غير مسئول وحفنة من الأدعياء والانتهازيين . وهو يفعل كل هذا دون ضجيج أو خطابة فجأة أو من خلال الترويج لنظرية معينة، بل بالاعتماد على فن رفيع هادئ، ساخر ومعبر، بسيط وإنساني.

(أ) المضمون (التيتمات الأساسية) :

تبدأ أحداث الرواية فى نفس تلك الليلة التى أحيل فيها البطل «إلوى» (Eloy) إلى المعاش. فقد ظل يعمل طوال ثلاث وخمسين سنة فى قسم النظافة بمجلس المدينة الإقليمية التى كان يعيش فيها. وبالرغم من أنه كان موظفا بسيطا إلا أن السلطات قررت إقامة حفل وداع له نظرا لسنوات خدمته الطويلة.. وفى الحفل الذى حضره عمدة المدينة استبد السأم بالحاضرين، واستغل البعض المناسبة لإبداء سخريته واستهزائه. لكن العجوز «إلوى» - دون أن ينتبه لأحاسيس السلطات والزملاء - يلقي بخطبة عصماء طويلة يؤكد فيها على أهمية العمل وضرورة التفانى فيه..

وفى اليوم التالى للحفل يشعر بوحدة قاسية تتسلل برودتها فى أطرافه وكان حياته تتسرب حثيثا من بين يديه. وقد أكد هذا الشعور القاتم لديه عثوره فى نفس اليوم على «الورقة الحمراء» فى دفتر البفرة الذى يستخدم وريقاته فى لف السجائر (ومن المعروف أنه فى أسبانيا كما فى بلدان عديدة أخرى - كانت توضع ورقة حمراء قبل نهاية كل دفتر بفرة لكى تنبه المستهلك إلى أن الباقي من الوريقات قليل ولا يتعدى الخمس).

ولقد اعتبر العجوز هذا بمثابة نذير، خاصة وأن مصادفة العثور على «الورقة الحمراء» قد تزامنت مع إحالته إلى التقاعد. كما أن هذه المصادفة قد جعلت العجوز يتذكر بحزن شديد عبارة كان يرددها صديق له توفى منذ سنوات كانت تقول أن «المعاش هو ردة انتظار الموت». لكن العجوز «إلوى» لم يكن وحيدا تماما بل كانت تعيش معه خادمة شابة من الريف ترعى شئونه بعد موت زوجته وابنه الأصغر ونزوح الابن الأكبر للإقامة بعيداً عنه فى مدريد. وفى «ديس Desi» (الخادمة) وجد العجوز ضالته وملأه: فكان يتحدث طويلا إليها ويحكى لها ذكرياته أثناء استمتاعه بقرقرة النار فى المطبخ وشيوع الدفء فى

المكان. وشيئاً فشيئاً تشكل لون من التفاهم والانسجام بينهما بالرغم من بساطة الخدمة التي تصل لحد السذاجة وعدم فهمها لكل ما يتقوه به.

لقد كان يبحث عن الدفء الإنسانى الذى يقيه قشعريرة الخوف من المجهول وبرودة الوحدة القاسية ورحيل الزوجة والابن والأصدقاء. فلم يكن قد تبقى للعجوز سوى صديق واحد (عيسى) على قيد الحياة، لكنه سرعان ما لحق بمن سبقوه. وبعد موت الصديق المتبقى أظلمت الدنيا فى وجه العجوز وقرر السفر إلى ابنه الأكبر الذى يعيش عيشة هائلة فى العاصمة مدريد.. وليته ما فعل: فابنه -الذى ذاق الأمرين فى تربيته وتعليمه- لم يمد له العون بل تنكر له وخجل من فقره وبساطته، وزاد الطين بلة جفاء زوجة الابن وغلظتها وتندرهما على تصرفاته.

وقبل أن يسافر العجوز (والكاتب يطلق هذا اللقب على بطة "إلوى" دائماً) إلى مدريد كان قد قدم من القرية البيكاتا (El Picaza) خطيب الخادمة "لاديس" لأداء الخدمة العسكرية فى المدينة الإقليمية، والتقى بخطيبته ووصل ما قطعتة سنوات غربتها. وبدا وكأن الأيام قد هادنت "ديس" أخيراً بقرب الخطيب الحبيب وزوج المستقبل. لكنها كانت واهمة: فقد أجهض طبع "البيكاتا" العدوانى الحلم الحاضر والأمل فى المستقبل عندما قتل -فى نوبة من نوبات الغضب التى تعتريه- امرأة رمته بكلام جارح أثناء مشادة كلامية. ومن ثم كان على "لاديسى" الانتظار لسنوات طويلة حتى يخرج خطيبها من السجن بعد أدائه لعقوبة القتل.

ولما عاد العجوز خاوى الوفاض وحيداً وحزيناً بعد زيارته لابنه وجد "لاديس" وحيدة أيضاً تجتر أحزانها. وعندما عرض عليها الزواج لكى ينتظرا سوياً: ينتظر هو النهاية المحتومة الوشيكة، وتنتظر هى خروج "البيكاتا" من السجن ليلتنم شملهما من جديد.

ولم تنكر الخادمة الشابّة لمحّة الودّ ولم ترد اليد الممدودة إليها، بل أجابت بصوت رفيع لا يكاد يُسمع: «اللى تشوفه يا سيدى».. وهكذا فقد فتحت هذه الإجابة القصيرة الباب أمام العجوز لكى يقضى بقية أيامه إلى جوار خادمته التى قاسمته همومه وذكرياته وأعادت الدفء إلى صقيع حياته التى تناثرت أشلاؤها بين رحيل الأحبة وجحود الزملاء ونكران فلذات الأكباد.

فالكاتب يركّز -كما نلاحظ- على حاجة الفرد الملحة والمشروعة للعواطف الإنسانية الدافئة الأصيلة كالودّ والحب والتفاهم والإحساس بالآخر لأن الحياة بدونها خواء لا معنى له، فالله -سبحانه- جعل الناس شعوباً وقبائل ليتعارفوا وخلق لهم من أنفسهم أزواجاً ليسكنوا إليها فى كنف المودة والرحمة.

وفى مقابل هذا، تؤدّى الوحدة والعزلة والأنانية وفقدان الودّ والتفاهم إلى تسلس البرودة والخوف إلى حياة الإنسان لكى تتحول إلى حطام وأشلء. لكن الفرد يستطيع أن يفرّ من براثن هذا الحطام لو اهتدى إلى من يقاسمه أفراحه وأتراحه كما فعل العجوز.

وبالرغم من إنسانية كل التيمات التى تشتمل عليها الرواية إلا أن أهمها على الإطلاق موضوع الدفء البشرى بكل ما يشتمل عليه من معان. ومع أن هذا الموضوع قد تناولته روايات سابقة للمؤلف إلا أنه لم يبلغ ذروته إلا فى «الورقة الحمراء» لدرجة أن «دى ليبس» لم يعد إلى طريقه مرة أخرى بعدها. فبطل القصة (إلوى، ديس) قد عاشا طوال حياتهما يبحثان عن الدفء الإنسانى.

لقد عانى العجوز كثيراً فى حياته؛ مات والده فى نفس الليلة التى وُلد فيها، ثم ماتت أمه وهو صبى، ولم يبق له بعدهما سوى أخته (إيلينا) لكنها كانت باردة الإحساس ومع هذا لم ينكر عليها العجوز طبعها لأن

هناك -حسيما يعتقد- صنفان من الناس: صنف وُلد ليُشبع حنانا ودُفئاً، وصنف خُلِق ليُتلقاهما، وأخته من الصنف الثانى. فى ذلك الوقت لم يجد الصبى أُمَامَه سوى خادمة أسرته (لأنطونيا) ليُتلقى نصيبه من الدفء الإنسانى الذى حرّمته الأيام منه.

وبعد أن ماتت زوجته -وهو رجل- بَقى له دَفء ذكريات الشباب والعمل وتلك الذكريات التى يُتقاسمها مع صديقه الوحيد الباقى على قيد الحياة (عيسى). لكن فى يوم تقاعده عاد البرد -الحسى والمعنوى- ليهبط عليه من جديد: «برد غريب ينبعث من داخل الجسد ليتفرغ بعد ذلك فى العروق والعضلات والأعصاب لكى يتسرب فى المساء من خلال مسام الجلد»^(١٥).

لكن الصديق المتبقى سرعان ما يرحل إلى العالم الآخر وتموت معه ذكريات التجارب التى خاضها معا وعندما لم تفهم الخادمة "لاديسى" سر تأثر العجوز الشديد لفراق صاحبه هَمَّ بأن يخبرها بأنه «لم يكن مجرد صديق، بل مصدر للدفء»، وأنه لم يكن مجرد رجل هذا الذى يرقد فى التابوت بل مدام "كاتروكس" الفرنسية ومدرستها الابتدائية، و"تولدو پومبو"، والعم "آليخو" بذراعيه القصيرين، و"لاروسينا"، والعم "إرمنس" والبنك التعاونى، و"بيبين پاثكيث" و"لاباكيثا أورونيث" ودار الحمامات العامة؛ و"لوثيتا" و"جويتو" وحياة بأكملها» [الورقة الحمراء، ص ١٨٣، ١٨٤].

وبتعداد هذه الذكريات مع شخصياتها يريد "دى ليبس" أن يقول أن الحياة لا معنى لها بدون الأحداث التى مرت بنا فى حياتنا لأن ذكرياتها هى التى يتدفق منها الدفء، والدفء هو الحياة.

لكن هذا الدفء الذى يحتاجه الكائن البشرى لكى يستمر ويواصل حياته كإنسان مهدد ببرودة الآلات التى تتحكم فيها. يقول "إلوى" (أو دى ليبس) مواصلاً حديثه مع نفسه عن ذكرياته مع صديقه المتوفى: «كان فى منتهى التعقيد محاولة التوضيح للفتاة بأن الإنسان يحتاج

لدفء داخلي وآخر خارجي وأن الأمور كانت على ما يرام عندما اهتدى الإنسان لاكتشاف النار فقد كان الناس يتحلقون حولها فتشيع بينهم المودة الصادرة من ألسنة اللهب ذاتها، لكن بعد أن أتى التقدم وجمع الدفء في مواسير تتأثر عقد المودة، لأنه من العبث محاولة الاستفادة من نار تخلو من الدخان. كان كل شيء في منتهى التعقيد لدرجة أنه نفسه لم يكن يعلم متى سينتهي لو شرع في الكلام. لذلك فضل الصمت..» (الورقة الحمراء، ص ١٨٤).

وهذا يعني أن تعبئة التقدم للدفء في مواسير قد حرم الناس من التحلق: أي من التواصل والتواد والتراحم، وعمق -في المقابل- الشعور بالوحدة والعزلة.

وبعد أن يموت الصديق الأخير ويقرر العجوز السفر إلى حيث ابنه الكبير بحثاً عن الدفء يخيب ظنه لأن التقدم كان قد حول ابنه إلى رجل عصرى بارد لا يشع دفئاً ولا حناناً. وتتوازي حياة "لاديس" الخادمة مع حياة سيدها وإن كانت أقل منها عمقاً واتساعاً. فهي الأخرى نزحت من الريف بعد موت أمها وزواج والدها بامرأة كانت تقسو عليها، ووجدت في معاملة العجوز الحسنة بعض السلوى، وزداد أملها عندها جاء خطيبها إلى المدينة التي تخدم فيها، لكن برد اليأس والقنوط هبط عليها بعد سجن «البيكاثا». وبعد هبوط شبوح الجفاء واليأس على "إلوى" وخادمته يقرران الزواج، فقط من أجل الحصول على الحنان المتبادل والمشاعر الحميمة: الدفء الإنساني.

وكما نرى فإن موضوع الدفء الإنساني هو أهم موضوعات الرواية، وفيه يُحمّل "دى لبيس" -كعادته- التقدم المادي جزءاً كبيراً من مسئولية انقراض عقد المودة والحنان بين بنى البشر^(١٦).

(ب) الشخصيات:

ذكرنا فيما تقدم أن معظم شخصيات المؤلف تنتسب إلى الطبقات الفقيرة الكادحة التى تعيش فى عزلة عن التقدم المادى، ولذا فإنها تتصرف بعقوية كاملة دون تظاهر أو رياء.

فهى شخصيات أصيلة تحتفظ بكل ما يميزها من سمات وخواص. ومن هنا فإن مفهوم «البطل» التقليدى لا يناسبها بأى حال، ومن المناسب لها صفة «البطل المضاد».

والمؤلف يهتم بإبراز الجوانب الإنسانية الخالصة فى شخصياته، وكذلك السمات المتواضعة مثل البساطة والوضوح وعدم التعقيد والمودة والعطف والشفقة وحب الطبيعة وتلبية نداء الغرائز بالمتع المباحة، ولا يلقى بالا -فى المقابل- للبطولات والمآثر الفردية ولا حتى للمواهب الخفية العظيمة مثل الذكاء وقوة الإرادة والشجاعة.

ونلمح هذا بجلاء فى شخصيات «الورقة الحمراء»: فالعجوز "إلوى" موظف بسيط أُحيل إلى التقاعد بعد بلوغه السن المقررة للتوقف عن العمل الرسمى، ولا تكفى المكافأة الشهرية لتغطية نفقاته أو لشراء معطف جديد للخدمة التى تعيش معه فى نفس المسكن، كما أنه لا يتلقى أى عون مادى من ابنه الميسور الحال الذى يقيم فى العاصمة بعيداً عنه. ومع هذه الأزمة الطاحنة يبدأ التدهور النفسى والجسمانى للعجوز، فقد أصبح يعانى من الإغماءات المتكررة ومن نزلات البرد المتواصلة.

ومن مظاهر الفقر المدقع للعجوز قيامه بنزع مصابيح دورة المياه وعندما ضبطته الخادة تعلثم قائلاً: «ما نفعله هنا فى النور نستطيع فعله فى الظلام، أليس كذلك يا بنتى؟». كما كان العجوز يتسلى بألة التصوير الفارغة كالأطفال ولا يجد مالا لشراء فيلم لها وإشباع هوايته القديمة

فى التقاط الصور الحقيقية. ولت الأمر ظل على هذا الحال بل إنه اضطر لبيعها، ومن ثم فقد حرم حتى من تسليته الطفولية. ومن مظاهر فقره أيضاً أنه كان يعطى تعليماته للخدمة بعدم تشغيل التدفئة قبل اليوم الحادى عشر من شهر نوفمبر بالرغم من حساسيته الشديدة للبرد.

أما الخدمة "لاديس" فهى فتاة قروية أمية، بطيئة الفهم وتفتقر لأدنى مقومات الجمال. ومع هذا فهى كريمة، ودودة، صريحة، تنسى الإساءة وتعطف على الآخرين. وهى أشد فقراً من سيدها، ومن مظاهر فقرها: قلّة ملابسها، بل إن المعطف الوحيد الذى تملكه استخدمته من قبل أخواتها الأكبر منها سناً، وبعد أن وصلت للرابعة عشرة أخذته منهم، وهى الآن تبلغ العشرين ربيعاً وقد ضاق عليها المعطف واستحال لونه ومع ذلك لا تستطيع شراء بديل له.

ومن الخصائص التى تتميز بها شخصيات "دى ليبس" ونجدها بوضوح فى "الورقة الحمراء" إضفاء بعض السمات أو الصفات المميزة التى تجعل الشخصية أكثر تحديداً وتفرداً. ومن هذه السمات إطلاق لقب للشخصية أو وصف يلقى الضوء على طبيعتها وميولها، وأحياناً على تكوينها النفسى والجسمانى؛ وكذلك إبراز بعض التصرفات الغريبة والممارسات التى تصل إلى حد الهوس عند هذه الشخصيات.

ففى الرواية يطلق المؤلف لقب «العجوز» على "إلوى" حتى أننا نكاد ننسى الاسم الحقيقى ونتذكر اللقب فقط. وفكرة الشيخوخة وانصرام العمر والاقتراب من النهاية هى التى تحكم تصرفات هذا البطل فى كل أن من خلال تكراره المستمر لعبارات معينة، مثل: «المعاش هو ردهة انتظار الموت» أو «لقد طلعت لى الورقة الحمراء فى دفتر البفرة».

وللعجوز أيضاً العديد من التصرفات الغريبة التى يتمسك بها لحد الهوس مثل: الارتكاز على ركبتيه بعد الأكل لمدة نصف ساعة اعتقاداً

منه بأن جاذبية الأرض تسهل عملية الهضم أو النوم بكامل ملابسه خوفاً من البرد أو التبريد بالذهاب إلى الحدائق العامة لقضاء حاجته بين الخضرة الكثيفة... الخ.

والخادمة (لاديس) لها كذلك تصرفاتها الغريبة، مثل: ضرب الأذن الموجوعة براحة اليد لكي توقف صغيرها أو الحرص على وضع العديد من "البنس" في شعرها يومى السبت والأربعاء من كل أسبوع أو الاعتقاد بأن استعمال الحقائب والقفاصات والقبعات يقتصر على الهوانم والسيدات المتحركات... الخ.

وعيسى (صديق العجوز) به بعض الصفات المميزة، مثل: صوته العذب، ارتدائه لأربطة العنق اللافتة للنظر، عزوفه خلال فترة الشباب عن الاهتمام بالنساء ثم تعلقه وولعه -في مرحلة الشيخوخة- بالفتيات الجميلات، والعصا التي يحملها في يده ولا تفارقه، والعبارة التي يستخدمها في الرد على العجوز وكأنها تعويذه (إمش رويدا رويدا)، وهو يعبر بهذه الجملة عن ثقته الزائدة في بلوغه المائة سنة، وعن حبه للحياة وتفتحه المتأخر عليها، كما أنه يسخر بها من مخاوف العجوز بشأن اقتراب المنيّة، وأخيراً للإعراب عن إعراضه الضمنى لكل ما يسرده العجوز من ذكريات مشتركة.

أما "الجالو" (El Galo) -والد الخادمة- فمن صفاته المميزة ثخانة دمه وعدم اهتمامه بما يدور حوله.. والعم "أليخو" كان عملاقاً ويده قصيرتان مثل يديّ قزم.. والعم "إرمنس" كان يتميز بحبه للمزاح وبساقه الموجوعة وعبقريته وبصوته العميق الجميل. ومن الألقاب التي خلعتها المؤلف على بعض شخصياته في الرواية لقب "البيكاثا" الذي أُلصقه به "مانويل" (Manuel) خطيب "لاديس". وسبب إطلاق هذا اللقب عليه يرجع لاصطياد مانويل وهو صبي لعقّعَق (Picaza) من على شاطئ النهر

والقيام بعد ذلك باستئناسه، لكن حمية مانويل وطبعه العدوانى جعلاه يقتل الطائر شر قتلة ويمثل بجثته. ومن يومها التصق به هذا اللقب ولا يكاد يُعرف إلا به، وهو يشير إلى طبع صاحبه النزق المتهور.

وبالإضافة إلى هذا اللقب فإن "البيكاثا" يتمتع بملامح نفسية وجسمانية تزيد من تحديده: فهو قروى فظاً، عيناه متحدثان كعيني صقر، ساقاه مقوستان، يمشى وكأنه يجرجر قدميه، تنتابه موجات غضب عارمة ومفاجئة ويتلعثم عندما يشرع فى الكلام.

ومن الألقاب الأخرى نشير إلى إطلاق «الثعلب» على "البراكسيديس" (الذى قتل الأخ النصف شقيق للخدمة أثناء فيضان عام ١٩٥٢)، ولقب «العبيط» على "ماركوس" (الأخ النصف شقيق للفتاة).

وهذه الألقاب أو الصفات المميزة للشخصية تصاحبها دائماً كلما أطلت بوجهها فى حدث من أحداث الرواية. ويعترف المؤلف بأنه يولى أهمية كبيرة لمثل هذه الألقاب والصفات والتصرفات الغريبة لأنها تحدد طبيعة الشخصية وتميزها عن غيرها وتجعلها أكثر تفرداً بحيث تنطبع فى ذهن القارئ ويستطيع تذكرها بسهولة دون عنت أو مشقة^(١٧).

(ج) عادات ومعتقدات شعبية:

تعتبر الأعياد وحفلات الزفاف من المناسبات الهامة فى حياة الشعب الأسبانى، وخاصة بالنسبة للطبقات الشعبية. وفى المناسبات الدينية (مثل الأسبوع المقدس أو عيد الميلاد) يمتزج العنصر الدينى بعناصر دنيوية أخرى، بحيث تبدأ الأعياد بالقداس -مثلاً- وتنتهى بالرقص ومصارعة الثيران.. وتغطى مظاهر الاحتفالات بتلك الأعياد كل الشوارع والميادين علاوة على الضواحي القريبة من العمران.

وفى «الورقة الحمراء» نشاهد جانباً من مظاهر الاحتفال بعيد الميلاد فى الفصل الحادى عشر. فى المدينة الإقليمية -حيث يعيش "إلوى" وخادمتها- نجد أن: «أضواء الواجهات الزجاجية، ومكبّر صوت "رويث جانداريَّاس" (صاحب محل الديسكو) الذى يذيع الأناشيد الدينية، وزجاج القهاوى المُلَفَّع بالبُخار، والرجفة المتقطعة للأجراس، والحواشى الضئيلة اللامعة لأشجار الموز، والبهجة الطاغية للأطفال، تؤكد جميعها على أهمية هذا التاريخ» (الورقة الحمراء، ص ١١٥). وقد حرصت "لاديس" على الذهاب إلى الكنيسة لحضور القدّاس الخاص بهذه المناسبة، وسهرت مع العجوز فى المطبخ حتى الخيوط الأولى من الصباح وهما يشربان ويتبادلان حديث الذكريات.

ومن مظاهر الاحتفال بتلك الليلة إجراء السحب على ورق اليانصيب. وكعادة معظم الأسبان اشترت "لاديس" ورقة وعندما أُجرى السَّحْب ظنّت أن رقمها فاز ببطانية لكنها عندما ذهبت للمطالبة بها تبين لها أن الجائزة لرقم آخر فعادت تجر أذيال الخيبة.

ومن العادات الهامة أيضاً إقامة حفلات الزفاف. وتكتسب هذه العادة أهمية كبيرة فى الريف والأحياء الشعبية. وتقصّ علينا "لاديس" من خلالها حديثها مع العجوز عدداً من حفلات الزفاف التى شاهدها فى قريتها. وتقول أنها مسئّية للغاية، والعروسان يبتسمان طوال الوقت ويقدمان التحية للجميع لأنهما لو لم يفعلا وصفاً بثقل الدم وربما ارتكبت ضدهما بعض الحماقات.. ومراسم الاحتفال تبدأ فى العاشرة مساءً ولا تنتهى إلا بدخول نهار اليوم التالى. وخلال هذا الوقت الطويل يرقص المدعوون ويشربون ويأكلون ويغنون.

والذى يعرضه علينا "دى ليبس" يخص الأعياد الدينية وحفلات الزفاف (أى المناسبات العريقة المتصلة بطبيعة حياة الشعب الأسبانى

والتي لا تمت بصلة لمناسبة حزبية أو سياسية أو قومية) سواء على صعيد القرية أو المدينة. فلم يحدث وأن عرض لمناسبة مدنية إلا في هذه الرواية حينما ساق لنا (فى الفصل الثالث عشر) مظاهر الاحتفال بعيد الشجرة الذى ينظمه البنك التعاونى.

أما بالنسبة للمعتقدات الشعبية، فبما أن معظم شخصيات المؤلف من النوع الفقير القليل الحظ من الثقافة فإن النظرة المتشائمة تجاه الحياة هى المسيطرة عليها. فهذه الشخصيات لا تنتظر إلا الأسوأ وذلك يمتلكها خوف عميق من المستقبل وتحاول الاستعانة عليه باللجوء إلى بعض المعتقدات البالية التى تبتعد عن النهج القويم، مثل الاستعانة بالرقى والتماائم والتعاويذ لطلب الحماية أو لجلب الحظ السعيد أو للتخلص من الأرواح الشريرة أو للتحصن ضد الحسد... الخ.

ولذلك نجد "لاديس" تحرص قبل النوم على ترديد كلمات معينة لطرد الأرواح الشريرة وجلب الأحلام الهانئة السعيدة. كما تحرص على تعليق صورة عذراء «لاجيا» أعلى سريرها للتبرك بها ولتكون فى حمايتها.

ويندرج تحت هذا أيضاً الاعتقاد بأن رقص الشبان والفتيات فى جراج «دون أولبيانو» ولقاءاتهم المستمرة فيه بالرغم من تحذيرات القسيس وشجبه الدائم له قد أدى فى النهاية إلى بكاء القسيس دماً بدلاً من الدموع (وهو شئ قد ثبت بطلانه فيما بعد)، أو الربط بين ما كان يحدث فى الجراج -الذى تحول إلى مرقص- وبين الكارثة التى حلت بالقرية عام ١٩٥٢ عندما فاض النهر وأغرقها بالكامل، وكأن الكارثة كانت عقاباً سماوياً لهم لتمردهم على القسيس وعدم سماعهم لتحذيراته [الفصل الرابع].

(د) البيئة والمحيط الاجتماعي:

سبق وأن أشرنا إلى أن البيئات التي تدور فيها أحداث معظم روايات "دى ليدس" تنحصر في ثلاث: البيئة الريفية، الحضرية (الخاصة بالأماكن الشعبية) والمحيط الأسرى العائلي.

لكن اهتمام المؤلف بالتصوير أو العرض البيئى ليس هدفاً فى حد ذاته وإنما يستخدمه كأداة لعرض مشاكل وعادات الطبقات الفقيرة سواء على مستوى القرية أو المدينة. وفى «الورقة الحمراء» نجد بيئتين: الريفية والحضرية. فالبيئة الريفية هى التى تسيطر على ذكريات "لاديس" وخطيبها "البيكانا". فمن خلال تلك الذكريات نتعرف على مشاكل القرية ومظاهر التخلف والجهل والفقر فيها: الفياضانات التى تهدد البيوت والمزروعات، الافتقار لأبسط الوسائل الحضارية، اختفاء المؤسسات التعليمية أو التربوية، تفشى الجهل والخرافات، عدم اهتمام المسؤولين بمشاكل الريف، النزوح إلى المدينة لممارسة أهون الأعمال وأقلها شأنًا... الخ (ونلاحظ كل هذا فى الفصل الرابع والسادس والثامن والتاسع والثانى عشر). كما يلاحظ أن البيئة الريفية (والطبيعة أحد مكوناتها) ليست دائماً مسالمة وودودة بل أنها تحمل أيضاً فى طياتها الأخطار التى تهدد حياة سكانها، فهي بيئة مكفهرة صعبة المراس كما أنها الأم الرعوم ومصدر الخير والنماء.

وفى عام ١٩٥٢ شرد الفيضان أهل القرية وخرّب دورهم وكان سبباً فى ترك "لاديس" مسقط رأسها إلى غير رجعة. ومن أحداث الفيضان نقتطع هذا المشهد الحزين: «بدأت المجموعة القاتمة المكوّمة فوق القمة بصحبة الأمتعة القليلة التى نجت من الفيضان تفقد أعصابها شيئاً فشيئاً وكلما وقف غلام وصاح بتلقائية: "أنظروا، هذه عنزة السيد پولى"،

وهو يشير إلى كتلة منتفخة مثل فقاعة تسبح دون هدف فوق سطح الماء اللامع، ينبثق من أى مكان ذراع قوى ليجلسه بلكمة قاسية. بدا "الماركوس" وكأنه الوحيد الذى يستمتع بما يجرى هناك، لكن "براكسيديس" -الثعلب- كانت تعتريه لحظات يكاد أن ينفطر فيها قلبه وعندما انتزعت المياه الهادرة بقرته الدّاجنة من الحظيرة وتقدمت - منتفخة كمنطاد- يورججها التيار حتى توقفت محصورة بين الأفرع العالية لشجر الجوز، على بعد عشرين مترا من القمة، شرع البراكسيديس فى ضرب رأسه بحجر والسبّ واللعن من بين أسنانه وكلما نظر إلى البقرة انتفض وكأن به مسأ من الجنون....» [الورقة الحمراء، ص ٤٧].

وبعد هذه الواقعة بثلاثة أشهر عُثر على "الجالو" (والد "ديسى") غريقا فى قناة الساقية: «فى البداية تحدث سكان القرية عن حادث انتحار، لكن "دون فيديريكو" (الطبيب) نفى هذا لأن الأمر ببساطة يتلخص فى أن "الجالو" أغمى عليه أثناء شُرْبِه من قناة الساقية ولأن دمه كان ثخيناً جداً فلم يستطع الجرى فى العروق؛ كما يحدث بالضبط للساقية التى يمتلأ باطنها بالطين فلا يتدفق منها الماء» [ص ٤٩].

أما البيئة الحضرية فتمثلها المدينة الإقليمية التى تدور على أرضها معظم أحداث الرواية، لكن الوصف الذى يقدمه المؤلف لتلك المدينة قصير وأقل تفصيلاً مما عرضه البيئة الريفية، كما أنه يركز على الجوانب السلبية فيها ويصرّ على دوران عجلة الأحداث فى أحياتها الفقيرة. فالعجوز "إلوى" يسكن بيتاً متواضعاً، وتنحصر تنقلاته بين أماكن متواضعة مثل الشارع المؤدى إلى المقابر أو الحديقة العامة أو محل نظارات صديقه القديم "باتشيكو".

و"البيكانا" هو الآخر عندما قدم إلى المدينة لتأدية الخدمة العسكرية كانت تنقلاته تكاد تكون محصورة بين معسكر التدريب والميدان العام والحوانيت المتواضعة أو التنزه فى الحديقة العامة بصحبة خطيبته التى

لم تكن تعرف من المدينة سوى الكنيسة القريبة. فالكاتب لا يعتمد في البيئة الحضرية إلى التفصيلات بل يقدم نتفا قصيرة تلقى الضوء على طبيعة الشخصيات وسلوكياتها وردود أفعالها تجاه الظروف المحيطة بها. أما في البيئة الريفية فإنه يهتم بالجزئيات الصغيرة والتفصيلات الدقيقة -سواء كان الأمر يتعلق بتصوير البعد النفسى للشخصيات أو تصوير المحيط الخارجى للأحداث-، وهذا يعطى الانطباع بالبطء فى عملية السرد والانتقال من حدث لآخر (١٨).

(هـ) الدعابة والسخرية:

من المعروف أن "دى ليبس" أستاذ قدير فى استخدام الدعابة والسخرية بدرجاتهما المختلفة. وتكمن السخرية فى قصد معنى آخر غير المتلفظ به وغالباً ما يكون المعنى المضاد، ويراد بها التعريض بشئ ما أو بإنسان معين..

وتأخذ الدعابة نفس تكتيك السخرية إلا أن لها بعداً إضافياً يتمثل فى التلميح بأن المعنى المراد (الغير متلفظ به) هو الأصوب والأدق، كما أنها لا تهدف إلى مهاجمة شخص أو شئ معين بل انتزاع البسمة على حسابهما دون تعريض.

وفى روايات "دى ليبس" يزداد عمق هاتين المهارتين كلما تقدم العمر بالكاتب واتسعت خبرته، بمعنى أن رصيده منهما ينمو عملاً بعد آخر.

وفى الرواية التى نتحدث عنها تطلّ الدعابة والسخرية وإن كانت الأولى هى الأوضح والأغلب وتعتمد أحياناً على اللغة والكلمات المستخدمة وأحياناً أخرى على المواقف أو جملة الحدث.

ويُلاحظ أن المؤلف يخص بالدعابة الودودة البطل "إلوي" بينما يوجه سخريته وتهكمه إلى نفاق وخبث بعض الشخصيات المحيطة به. ففي حفل العشاء الذي أقامته المصلحة لوداع العجوز بعد إحالته إلى المعاش وحضره عمدة المدينة وسيطر عليه الملل من جانب الحاضرين يطالعنا هذا المشهد الساخر: «نهض العمدة متثاقلاً فأوقف التصفيق الفاتر للحاضرين بمجرد أن بدأ، ودون أن يعطى للعجوز وقتاً لكي يطوى المنديل الذي انتهى من تمريره على طرف أنفه، أخرج من العبلة التي نزع غلافها للتو ميدالية فضية وقلّدها للعجوز في نفس الوقت الذي كان يردد فيه: اعتبر الوزير أن تفانيك في الخدمة لمدة ثلاث وخمسين سنة بلا انقطاع يجعلك أهلاً لهذه القلادة التي أضعها على صدرك نيابة عنه. ثم ربّت على كتفه، ابتسم بفضفاضة، صفق ثلاث مرات في غير حرارة، نظر إلى ساعته من جديد ثم أسرّ في أذن العجوز: ببساطة كان حفلاً مثيراً للمشاعر» (ص ١٨).

فالتهم في الفقرة السابقة مبعثه التناقض الواضح بين تصرفات العمدة (وكلها توحى بالملل والضيق) وبين جملته الأخيرة (ببساطة كان حفلاً مثيراً للمشاعر) والتي تتناقض كذلك مع جو الحفل العام. فنفاق العمدة هو المقصود بالتهكم وإن لم يتلفظ به.

ويظهر التهكم والسخرية بشكل أكثر حدّة خلال الدروس التي كان يعطيها العجوز "إلوي" لخادمتها كي يعلمها القراءة والكتابة. فلكي يدرّبها على القراءة كان يحضر لها الصفحات الأولى من الجرائد اليومية والتي تشتمل على عناوين ضخمة بارزة مكتوبة بحروف كبيرة. والمانشيتات، الرئيسية للصحف اليومية كانت تتناول أخبار الزعيم فرانكو (الدكتاتور العسكري الذي حكم إسبانيا من ١٩٣٩ إلى ١٩٧٥) وكلها مثل:

«فرانكو يزور شلال ليريدا» وأحفاد الزعيم يمرون من تحت عباءة
عزراء الپيلار» «الزعيم يستقبل الملك سيمون» تقليد فرانكونيشان
الاستحقاق الإكوادورى».. الخ.

فالتهمك والسخرية هنا نابعان من التناقض المرير بين ما تبرزه
الصحف بالفعل على صفحاتها الأولى وبين ما يجب أن يكون وهو
الاهتمام بما يجرى على الساحة العالمية أوبما يقلق المجتمع الأسباني
ويؤرقه من مشاكل وقضايا فالكاتب يخرج لسانه تحت هذا «التوازن
التعبيرى البارد» من كل ما كانت تعتبره أسبانيا الرسمية فى ذلك الحين
من الأمور العظيمة المستحقة للتنويه والتجسيد، وهى.. فى الحقيقة -
مجرد توافه لاتصدر إلا عن منافقين وضعاء.

وقد تعتمد الدعاية أحيانا على محاولة إثارة البسمة الخفية أو
المضحكة العالية من خلال مشهد جاد أو حزين فعندما قام «دون
أولبيانو» - أحد أغنياء القرية- بتحويل جراج السيارات الذى يملكه الى
مرقص، هاج قيس القرية (دون خيرونيمو) وماج وكان لايدع مناسبة
تمر دون مهاجمة هذا العمل اللا أخلاقى: «وفى القداس وفى الجنائز
كان يضحك بالصياح من على المنبر بينما يحرك ذراعيه مثل ريشتى
مروحة - قائلأ بأن أفضل مصير للجراج هو الحرق وعند الحديث عن تلك
الأشياء كان ينفعل بشدة ويظهر على شذقيه زبد أبيض وعلى درجات
السلم يتساقط رذاذ دقيق متواصل..» (ص ٤٤).

وفى وسط كارثة الفيضان، والهم والغم يسيطران على الجميع بسبب
تخريب الممتلكات، يرسم الكاتب هذه الصورة المضحكة للقسيس:

«أما دون خيرونيمو الذى يشبه بشحوبه وقامته الفارعة الصلدة
والطين على عباءته ميتا خرج توا من قبره فقد كان يستحثهم على
السجود والدعاء لله بأن يقلع المطر كما كان يؤكد لهم أن الفيضان

عقاب من السماء على الذنوب والآثام التي يقتترفونها أيام الأحاد والعطلات في الجراج وبما أن الفيضان كان قد فاجأ دون أو لبيانو، في المدينة. حيث ذهب لتغيير أحد إطارات الجرار الزراعي، فلم يتمكن «دون خير ونيمو» من الاحتداد ضد شخص بعينه وكان يتحدث بوادعه واستسلام دون أن يتولد الزيد على شذقيه» (ص ٤٦، ٤٧).

وهكذا فإن روح الدعاية والتهمك عند كاتبنا كان لها الفضل في تخفيف القسماات الدرامية. المشبعة بالألوان القائمة ونأت بها عن السقوط في بحر التشاؤم والفضاظة.

(و) فكرة الموت :

يعترف الكاتب بأهمية هذا الموضوع في أعماله قائلاً: «موضوع الموت يلزم أعمالي» وأكثر من هذا أقول: أنه يملكني ويسيطر على.. وأنا صبي، على سبيل المثال، كان يخطر ببالي عند وصولي إلى درجات سلم بيتنا أنه سيأتي يوم ويهبط فيه من على نفس الدرجات نعش أبي. وهذه التخيلات التي كنت أحتفظ بها لنفسي ولا أصارح بها أحدا، ظلت تراودني باستمرار حتى تحولت إلى فكرة ملحة» (١٩).

ومن هنا لانستغرب أن يكون الموت موضوعا شديدا الإلحاح في روايات «دي ليبس» ومفتاحاً للتعرف على رؤيته للعالم. فالموت عنده هو الذي يعطى أهمية لتواجد الفرد على ظهر الأرض. ومن خلال المشاهد والأحداث التي تخص بها رواياته يظهر الموت كخاتمة أليمة لوجودنا في هذا العالم. وإن كان هذا لايعنى نهاية المطاف أو انقطاع الأمل بالنسبة للإنسان لأن الله موجود. وفي عبارة أخرى نقول أن الخوف من الموت عند الكاتب يتلاشى شيئاً في ظل الإيمان بالله إلى أن يتحول إلى ظاهرة

طبيعية مألوفة، ولذا تتعاضد رغبة «دى ليبس» فى الصراع من أجل الإنسان فى اتجاه إخاء عالمى وفى نفس الوقت فإن إيمانه بتفرد روح الإنسان يمنعه من قبول أى نظرية تدعو إلى ذوبان هوية الفرد فى قوميته أو صهره ضميره ودمجه فى ضمير عام مشترك .. فالموت لا يمثل مشكلة وجودية للكاتب وإنما يعتبر الهم الأكبر الذى يشكل جزءاً أساسياً فى الشخصيات.

وفى الرواية نجد أن البطل «إلوى» تسيطر على كيانه فكرة الموت، حيث أنه يكرر بمناسبة وبغير مناسبة هذه العبارة التى ساقها على مسامعه صديق له توفى منذ سنوات : «المعاش هو ردة انتظار الموت كما أنه يربط بينها وبين الورقة الحمراء التى صادفها فى دفتر البفرة واعتبرها نذيراً بقرب النهاية التى لن تتأخر لأكثر من بضعة سنوات تماثل فى عددها عدد الوريقات المتبقية فى الدفتر بعد الورقة الحمراء.

ومن مظاهر إلحاح فكرة الموت عليه قيامه بعد موت الصديق الذى كان قد تبقى له (عيسى) بتحويل متوسط عمر الإنسان من خلال العمليات الحسابية إلى سنوات وأشهر وأيام وساعات ودقائق وثوانى وقيامه بعد ذلك بحساب ما تبقى له من العمر بنفس الطريقة، لكن خوف العجوز من الموت وشبهه الملح لم يخرجها من إطار تدينه إلى نظريات علمانية بل إن الثقل الدينى المتمثل فى الإيمان بالله قد حول شبح الموت إلى شئ مألوف وطبيعى ومن هنا تنطلق نظريته إلى الحياة على أنها مجرد «صالة انتظار» وأن الموت فيها ضرورى حتى تتجدد وتسير إلى الامام. فائثناء عيادة العجوز لصديقه المحتضر جاءت على لسان العجوز هذه الكلمات التى أراد بها التسرية عن أخت المريض: «قال العجوز "إلوى" بوجه يكسوه الأسى أن الحياة مثل صالة انتظار والكل قابع فيها وبين الحين والحين ينادى مناد: التالى، وبهذه الطريقة يتجدد

العالم شيئاً فشيئاً لأن البعض يخرج بينما يدخل آخرون لكن طال الزمن أم قصر فإن الدور سيأتى على الجميع (ص ١٨٨) وبعد أن توفى الصديق حزن عليه العجوز حزناً شديداً واستأجر له عربة جنازية لكي تحمله إلى مثواه الأخير «كانت العربة الكارو السوداء وعلى جانبيها الملائكة المذهبة تتقدمها مصدرة دويًا، وأفرغ أحد الجوادين عند المرور بمبنى المحكمة ما فى جوفه بحرية تامة تاركا فوق الأسفلت عقداً من الروث»

وتلقى لا معقولة هذا المشهد (إفراغ الجواد لما فى بطنه) داخل إطار الحزن العميق الذى يعتصر العجوز بظلالها الرمزية على لا معقولة الحياة ذاتها والتي لا تزيد لحسن الحظ عن كونها مجرد صالة للانتظار.

وتكلمة لنفس المشهد السابق فإن التابوت عندما يصل الى المقابر يحمله أربعة رجال وينزلوه «قاع الحفرة بنفس البرود الذى يودع به فلاح بذرة فى قاع شق».

وبالطبع فإن البذرة التى ألقى بها الفلاح فى الأرض سترتفع فى الغد ساقا وثمره وكذلك الأموات عند إلوئى. ومن خلال هذا المفهوم فإن الموت والحياة جزء لا يتجزأ من تواجد الإنسان على الأرض كما أن الحزن ذاته جزء من كياننا المؤقت فى هذا العالم الدنيوى ومع هذا لا يجب أن نستسلم له أو نسمح له بأن يقضى علينا لأن الله موجود ولا ييأس من روح الله ورحمته إلا من ينكر وجوده .

وفى المقابل فلسفة ظاهرتى الموت والحياة المرتبطة بالتدين الواعى العميق يلاحظ فى الرواية نظرة أخرى للموت ترتبط بالفهم السطحي للدين من (وجهة نظر الكاتب بالطبع) فالخادمة لاديس قد فقدت والديها وأخاها لكنها تتحدث عن موتهما فى لامبالاة دون أدنى تدبر أو إعمال للفكر أو ما يشير إلى تأثرها حسياً أو شعورياً .

وتلاشى رد الفعل العميق من جانب الطبقة الشعبية الجاهلة يرجع إلى فهمها الضيق والسطحي للدين فهذه الطبقة تعتقد تبعا لرؤية الكاتب أن الدين عبارة عن جنة ونار وعدد من الأوراد والصلوات لطرد الأرواح الشريرة وجلب الحظوظ السعيدة ولا يدرك بخلدها أن الدين منهاج يرمى إلى نشر العدالة وتحرير جوهر الإنسان من العبودية لغير الله وتعميق مظاهر الود والإخاء بين بني البشر ويرى «دى ليبس» أن ترويج السلطات الرسمية للفهم السطحي والضيق للدين بين الطبقات الشعبية إنما يهدف في الأساس لصرف هذه الطبقات عن النظر في مشاكلها الاجتماعية والمطالبة بحقوقها المسلوبة.^(٢٠)

(ى) اللغة العامية أو الدارجة :

أشرنا فيما سبق إلى أن دى ليبس يهتم بالطبقات الشعبية وبأنماط حياتها ومن الطبيعي أن يهتم بنفس القدر باللغة التي تعبر به هذه الطبقات عن أفكارها وأحاسيسها ومشاعرها. وهو في هذا المجال يبذل قصارى جهده ليجعل لغة التعبير مناسبة لطبيعة الشخصية التي تتحدث بها : فالمثقف له مفرداته وأدواته التعبيرية الخاصة وكذلك الفلاح أو العامل أو الطفل أو من يقومون بالأعمال الدنيا مثل الخادمت... الخ أو كما يقول الناقد " مانويل ألبار " فإن شخصيات " دى ليبس " تتحدث كما تعرف (طبقا لموروثها اللغوي وعلى سجيته) لا كما ينبغي لها أن تقول والكاتب لا يفرض عليها لغة معينة لأنه يريد لها مخلوقات حية (من لحم ودم) تطابق الواقع الذي تعيش فيه.^(٢١)

ولما كان السواد الأعظم من شخصياته أميا وفقيرا ومتخلفا (بمقياس التقدم المادى البحث) فإن اللغة العامية أو الدارجة أهمية كبيرة في رواياته

ومن خصائص هذه اللغة وسماتها نذكر: كثرة المصطلحات الشعبية بها؛ الإكثار فيها من التشبيهات بأشياء محسوسة؛ تواجد الأمثال والحكم الشعبية؛ استخدام التعبيرات الجاهزة الموروثة؛ شيوع استخدام الألقاب (الذميمة في معظم الأحيان)؛ لجوء المتكلم لاستخدام الإيماءات والحركات الجسمانية لتوضيح ما يقول؛ استخدام «التكئآت» اللغوية: أى الألفاظ الزائدة الغير ذات معنى بالنسبة توطئة للدخول فيما يراد التعبير عنه؛ إلحاق أدوات التعريف بالأسماء الأعلام؛ عقد المقارنات والإكثار من التشبيه بالأشياء المحسوسة؛ استخدام عبارات الغزل المكشوف المصحوبة أحيانا ببعض الحركات الجريئة؛ اللجوء إلى تعداد الأشخاص أو الأشياء فى المواقف المشتركة بينها؛ التهتهة أو التلعثم عند الشروع فى الكلام .. الخ. وبالمطلع فإن القارئ بإمكانه التعرف على هذه الخواص من خلال القراءة الواعية للرواية ، ولذا سنكتفى لعدم الإطالة بذكر بعض الأمثلة :

يلحق الكاتب أداة التعريف (أل) (EL) بالإسم العلم المفرد المذكر وكذلك أداة التعريف (لا - La) بالعلم المفرد المؤنث

وفى الرواية يلاحظ أن هذه الخاصية تنسحب فقط على أسماء شخصيات الأحياء الشعبية أو البيئة الريفية التى لم تتل حضا من التعليم أو الثقافة ولذا نجد أن جل أسماء من ينتسبون إلى القرية بها أداة التعريف المناسبة : مثل "البيكاثا" (ElPicaza)، "الجالو" (ElGalo) "الدلفين"، "الأوتروبيو"، "الأرخيمرو"، "لاديس" (LaDesi)، "لامارثى" (LaMarce) "لاكايا"، "لاسليينا" ... الخ.

أما المتعلمون أو المثقفون (ومعظمهم يتركز فى المدينة) فلا تلحق أسماءهم أداة التعريف. وعلى صعيد البيئة الحضرية نذكر: "إلوى" (Eloy)، "باتشيكو" (Pacheco)، "جويتو"، "ليونثيتو"، "بولدو پومبو"، "سوثيسو" (زوجة ابن العجوز) الخ.

وعلى صعيد القرية نذكر إسم القسيس "خيرونيمو"، "أولبيانو" [أحد أغنياء القرية].

واستعمال عبارات الغزل المكشوف المصحوبة بحركات جريئة نلاحظه فى أماكن متفرقة من الرواية، وكمثال نشير إلى معاكسة" الپيكاثا لخطيبته أو معاكسات المجندين للخدمات فى الشوارع والحدائق العامة . وفى الفصل الرابع عشر نجد أن «لاديس» تفضل اصطحاب الپيكاثا إلى الأماكن العامة وتجتهد فى عدم استقباله فى البيت هرباً من مضايقته لها، وبالرغم من هذا فإن الپيكاثا -بجراته المعهودة- لم يكن يتورع عن إرسال لمسة أو قرصة متعمدتين. كانت تضحك وتقول له: إلزم الهدوء. فيغمز لها بعينه: يا... يا حلوة! وعندها ترد عليه بدلال وهى تدفعه بيديها: يا قذراً!.

ونلاحظ فى هذه الفقرة أن الپيكاثا يتلعثم ويتهته عندما يشرع فى الكلام: (يا... يا حلوة!) ويمكن أن نتعرف على المزيد من خصائص اللغة العامية أو الدارجة من خلال الحوار التالى بين العجوز وخادمتها، كما يمكن ملاحظة الفرق بين حوارهما وبين لغة الكاتب (الرأوى) المنتقاة: «الآن، ترمق لاديس» ملثثة الخط المنمق للعجوز من فوق كتفه. قالت فجأة وقد عقدت ما بين حاجبيها:

مستعدة للتضحية بإصبعين من يدى علشان أقدر أكتب زيك، شفت.

أه، أنت يا بنتى؟ بسط يده فوق الأوراق وأعطاهما القصاصة.

نظرت الفتاة بإمعان لتشابك الحروف، لكن لم يجذب انتباهها سوى الصورة الفوتوغرافية.

هياً! قالت أخيراً طلعوك حلو فى الصورة. مش كده؟» (ص٣٣)

فى هذا الحوار لجأت الفتاة إلى استخدام جملة جاهزة: (مستعدة للتضحية بإصبعين من يدى) وهى تستخدم عادة للدلالة على الاستعداد لبذل الغالى والنفيس من أجل الحصول على شئ معين. كما أنها ذكرت

كلمتين (تكئات) يمكن الاستغناء عنهما (شُفّت، هَيّا). هذا بالإضافة إلى كثرة استخدام الكلمات العامية: (علشان- زيّك- مش كده- طلّعوك)، وإلى الحركات والإيماءات التي تفصح عما يعتمل بصدورها: ولذا فإن شدة اهتمامها بما يكتبه العجوز وشدة استغرابها لما يخطّه بقلمه جعلها تعتقد ما بين حاجبيها لنقول...

فالنص يحتوى على ثلاثة مستويات لغوية: المستوى الدارج وينطبق علي كلام الخادمة، ثم اللغة الفصحى العادية ويمثلها العجوز بثقافته المتواضعة، ثم المستوى الأرقى ويمثله تدخل الراوى (الكاتب).

ومن خصائص اللغة العامية-فى الأسبانية- الميل إلى عقد المقارنات والتشبيه بالمحسوسات لتجسيد المعنى أو بغرض التشخيص، ومنه نذكر تشبيه "لاديس" حساسية العجوز للبرد وشدة تأثره به بالقط الذي ينتفض من البرد خلال شهر أغسطس الحار: «أنت أشد حساسية للبرودة من قط يتأثر بها فى أغسطس».

كما تظهر خاصية تعداد الأشخاص والأشياء فى المواقف المتشابهة بشكل ملحوظ فى ذكريات الخادمة الخاصة بقريتها كما فى ذكريات العجوز.

وهكذا يتبين أن المستوى اللغوى العامى وإن كان هو الأكثر وضوحاً فى الرواية إلا أنها تحتوى على مستويين آخرين: أحدهما يتعلق بالشخصيات الحضرية المتعلمة، والثانى الأرقى لغوياً الذى يخص الكاتب (الراوى) عندما يدلى بدلوه فى التعليق أو التمهيد للأحداث.

ولعدم الإطالة نكتفى بما ذكرناه عن رواية «الورقة الحمراء» التى استطاع فيها "دى ليبس" -بلغته البسيطة العفوية التى تتخللها الدعابة الظرفية والسخرية المرّة- تجسيد شخصيات تنضح إنسانية وتعتبر نموذجاً للنضج والإتقان الروائيين.

هوامش البحث

- 1- Eugenio de Nora: "La novela española contemporánea (1939-1967) gredos, Madrid, 1973 (2ªed.), pp. 112-113
- 2- Edgar Qauk: "Miguel Delibes: Desarrollo de un escritor (1947-1974)." gredos, Madrid, 1975, p.18.
- 3- Ibidem, p.18.
- 4- Ibidem, p.19.
- 5- Maximiliano Álvarez: "Vida y obra de Miguel Delibes" (Tesis doctoral). Universidad de Salamanca, 1964, p. 106.
- 6- Leo Hickey: "Cinco horas con Miguel Delibes: el hombre y el novelista". prensa Española, Madrid, 1968, p.215.
- 7- César Alonsa de los Ríos: "Conversaciones con Miguel Delibes". Magisterio Español", Madrid, 1971, p.108
- 8- Véase: Ramona F. del Valle Spinka: "La conciencia social de Miguel Delibes". Eliseo Torres and Sons, New York, 1975, p.75.
- 9- Gonzálo Torrente Ballester: "Qanorama de la literatura española contemporánea". guadarrama, Madrid, 1961, I Vol., p.426.
- 10- Miguel Delibes: "Obras completas". Destino, Barcelona, 1966, I tomo , pp.8,9.
- 11- Véase: Ramona F. del Valle Spinka: "La conciencia social de Miguel Delibes", citado, p.124.

- 12- José garcia lópez: "Historia de la literatura espanola", Ed. Vicens - Vives, Barcelona, 1970 (15aed.) , p.678.
- 13- Miguel Delibes: "Obras completas", citado, 1^Q tomo, p.9.
- 14- Alonso de la Ríos: "Conversaciones.....", citado , p.199.
- 15- Miguel Delibes: "La hoja roja". Ediciones Destino, Barcelona, 1988 (8aed.) , p.19
- 16- Véase: Alfonso Rey: "La originalidad novelística de Miguel Delibes". Universidad de Santiago de Compostela, 1975, p. 182.
- 17- Véase: Ramón Buckley: "Problemas formales en la novela española contemporánea". Península, Barcelona, 1968, p.86.
- 18- Véase: José g. lópez: "Historia de la literatura espanola", cit., p.678.
- 19- Alonso de las Ríos: "Conversaciones....", citado ,p. 37.
- 20- Véase: Edgar Pauk: "Miguel Delibes: Desarrollo...", cit., p.137.
- 21- Véase: Manuel Alvar: "El mundo novelesco de Miguel Delibes". gredos, Madrid, 1987, pp. 27-30.
- 22- التعرف بالتفصيل على خصائص اللغة الأسبانية العامية أنظر -
المرجعين التاليين:
- Ramona F. del Calle Spinka: "La conciencia social de Miguel Delibes", citado, p. 150-164.
 - Manuel Alvar: "El mundo novelesco de Miguel Delibes", citado, pp. 27-56.

للمرة الثالثة فى حياته يقوم العجور "إلوى" هذه الليلة بدور البطولة لحدث ما. كانت المرة الأولى عندما تزوج؛ والثانية حينما انضم لجمعية التصوير الفوتوغرافى عام ١٩٣٣. قبل ثلاثة أعوام من هذا التاريخ قال له ذات يوم صديقه "بيسين بانكيث" أن المعاش هو ردهة انتظار الموت. لكن "بيسين بانكيث" انتقل إلى العالم الآخر، عام ١٩٣٣، دون حاجة للانتظار فى تلك الردهة.

ليس سرأ، أن أفضل أوقات حياته قد قضاها العجور "إلوى" مع أصدقائه فى جمعية التصوير الفوتوغرافى. كان يقول لـ "باتشيكو" -صاحب محل النظارات ورئيسه فى الجمعية-: «باتشيكو، لو سمعت لكسب المزيد من المال فليكن هذا من أجل الصور الفوتوغرافية التى تعتبر اليوم نوعاً من الترف». لكن العجور "إلوى" لم يتعد أبداً صفته كهاو. ذات مرة، هناك فى عام ١٩٣٢، عندما اجتاز "ليونثيتو" اختبارات الوظيفة، ابتاع على أقساط كاميرا "كونتاكس" ذات عدسة قطرها ٣٥ و عندئذ اكتشف حساسيته الشديدة، استعداداته الجيد لفن التشكيل. التقط بعض صور ذات قيمة ثم أخلى طرفه من الجمعية. كانت تستهويه المشاكل الفنية ويواظب على حضور المحاضرات وعروض الصور المتحركة والثابتة.

ذات يوم، أخبره "باتشيكو" -صاحب محل النظارات- دون سابق إنذار: «دون* إلوى، ستولى المهمة الأحده القادم». أحس بالخجل. قال: «ليس عندى ما يستحق يا بنى». لكن "باتشيكو" ابتسم: «ما أخبرتك به».

* دون (Don): لقب فى الأسبانية معناه "سيد"، وهو أشد خصوصية من "سيور" (Señor) التى تحمل نفس المعنى المترجم.

أصر العجوز، بصوت خافت: «لا أجيد التعبير وصوتى ضعيف». ومع ذلك فقد وقع الأمر موقعا حسنا من نفس "لوثيتا". "لوثيتا"، امرأته، ما كان لها أن تتزوجه أبدا، بل من رجل أكثر وجاهة وثراء. لقد جعلها "إلوى" تعيش فى مستوى متواضع للغاية صحيح أنه عاش إلى جوارها ٣٦ عاما، لكنه لم يصل أبدا لفهمها بالكامل. عند العودة ذلك الأحد، من عرض الصور والتعليق عليها قالت له "لوثيتا": من أجل هذا الدور، البقاء فى البيت كان أفضل». أوما فى خجل: «لقد حذرت "باتشيكو" فى حينه؛ أخبرته أننى لست عبقرىا وصوتى ضعيف، لكنه أصر». ردت غاضبة: «لا يكفى مجرد القول».

تخيل العجوز أن التصوير يمكن أن يسدّ فراغ التقاعد عن العمل. فحصى نفسه بعناية فى المرأة الضخمة وشعر بارتياح. كان يرتدى البدلة المخططة التى حاكها له "تيت" ، الخياط الملكى عام ١٩٤١، ورباط العنق البيكىه* الرمادى الذى أهدته له زوجته عام ١٩٤٣. كان "موروخيل"، زميله فى القسم، قد أخبره اليوم السابق: «سيحضر العمدة؛ لقد كنت دائما محل تقديره». لاحظ نفسه الآن بعينين ناقدتين، بعينى العمدة المتفحصتين. بدا مسرورا بعد الفحص. فقط فردتا الحذاء الأسود المائلتان من الجانب الأيمن أربكتاه قليلا. قبل خمسة عشر عاما، عندما لم يكن البرد قد تمكّن بعد من جسده، كانت قدما العجوز تعرقان وتشوهان الحذاء. الآن الفردة اليسرى تؤلم ظاهرا القدم بعض الشيء: «عندما تسخن سيزول الألم -قال لنفسه-. ثم إن أحدا ليس له الاطلاع على المستور». استدار نصف استداره وبحركة بطيئة أخرج المنديل من جيبه. كانت حافتا فتحتى أنفه تلمعان قليلا. تنظف العجوز دون رنين، طوى المنديل وحفظه من جديد. بعد ذلك أطلّ بوجهه على الطرقة وناى:

* البيكىه: نوع من القماش - المترجم.

- ديس

- سيدى!

وصله صوت الفتاة المتأجج قبل أن يتجاوز وجهها الكليل، ذو البشرة الداكنة والجبهة الخشنة، باب المطبخ:

- يا للعداء! أو ماتت الفتاة إيماءة مبهمه، كما لو كانت ترسم على نفسها الصليب.

- هل حدث شئ، يا ديس؟

ابتسمت الفتاة فأضاء الابتسام عبارتها العفوية:

- (ايه داكله، دا حضرتك ولا صيِّع مدريد*). أذهب إلى حفل؟

- شى كهذا -أجاب العجور-. ذاهب للتقاعد.

- التقاعد؟

- الإحالة إلى المعاش، يا بنتى.

- المعاش؟

- إنه القانون.

- ما القانون، يا سيدى؟

تنحنح العجور متحيرا:

- حسنا، أظن أن القانون هو ذلك الشئ الذى اخترعه الإنسان لكى لا

نفعل نحن الرجال كل ما يحلو لنا. أوضّحتُ أو لم أوضح، يا بنتى؟

* تشبه الفتاة العجور، فى الهيئة التى رآته عليها، بعوام مدريد الذين يرتدون ملابس معينة تنسم بعدم التجانس والحذقة، ويتصفون بالتجاسر وقلة الحياء. وهذا ما قصده بكلمة (chulo) التى نمت بها العجور- المترجم.

هزّت كتفيها وابتسمت. كان مظهرها وعليها الدثار البائس الذى لا يكاد يغطى ظاهر الركبة، والينس فى شعرها ويداها الضاربتان إلى الحمرة، المتفتختان كضفدعتين، والخائرتان على بطنها يوحى بالخشونة والقببح:

- هل القانون سيئ، يا سيدى؟

لبس العجوز الباطو ولفّ الملفعة حول رقبته دون أن يجيب، فى أوقات معينة، كان حب الاستطلاع لدى الفتاة يثير أعصابه. قال وهو يقترب من الباب:

- عندما تتعلمين القراءة ستعرفين كل هذا الأشياء. ثم أضاف: لا تنتظرينى، يا بنتى، سأعود متأخراً.

بعد أن ضمه مساء المدينة، فكر فى "لوثيتا" من جديد وفى جولاتها المسائية معه، عندما كان يتناول بالتحليل النقدى فوّهات بالوعات المطر وسلال المهملات العامة والأركان التى بها قاذورات فتنهره قائلة: «إلوى، أنت لا تعمل الآن؛ هذه الأشياء تخصهم». وتعنى «هم» العمدة ونواب مجلس البلدية. لكن العجوز لم يكن يتنصل أبداً، تحت أية ظرف، من صفته كموظف فى البلدية، بالرغم من أن "كرأسكو" -زميله فى القسم- كان ينكل به بعد ذلك عندما كان يرفع إصبعه السبابة ويشهره فى وجهه مخبراً إياه أنه دخل مجلس البلدية بالصدفة البحتة، بينما كان على أمثاله من الشباب خصوص غمار الاختبارات. كانت "لوثيتا"، زوجته، تقول له: «إلوى، دع القمامة فى حالها وإلا لن أخرج من البيت ثانية معك». لكن مبوله كانت أشد منه قوة. ذات مساء، توقف العجوز "إلوى" فى الميدان الكبير، وابتسامه راضية تتدلى من بين شفثيه. «ماذا؟»، سألت "لوثيتا" المتحفزة دائماً.

أشار إلى عربات النظافة الجديدة وإلى مكانس الخَلْنَج*. قال مزهواً:
«يا امرأة، لقد استخدمنا هذه الخامات لأول مرة».

"لوثيتا"، امرأته، لم تفهمه أيضاً وقتها. صاحت غاضبة: «بالله عليك، يا "إلوى"، دع التفكير فى القامة وإلا سيصيبني الجنون».

كان يقول له العم "إرمنس"، الذى عاش معه العجوز، عندما لم يكن عجوزاً وقتها، بأنه ورث الاهتمام بشئون البلدية عن أسلافه، حيث أن والده، الذى لم يكن قد صار بعد والده، كان دائم التوجه إلى الصحيفة المحلية مطالباً بالحفاظ على أصول اللياقة. أحياناً كان العم "إرمنس"، الذى كان بديناً قليل العافية وملازماً للجلوس، يعرض على العجوز، عندما لم يكن كذلك وقتها، إحدى الصحف الصفراء التى يرجع تاريخها إلى السنوات الأخيرة للقرن الماضى. كانت توجد قصاصة يقرأها العم إرمنس بهذه خاصة، وعند الانتهاء من قراءتها يقول: «يمكن أن يكون "ثريانتس" هو الذى كتب هذا». لكن الذى كتبه لم يكن "ثريانتس" بل "إلوى نونيث" والعبارة الأخيرة فيه تقول: «ألا يوجد نظام يحدد للعمال التوقيت المناسب لإجراء عملية إفراغ سلال القمامة التقليدية تفادياً لإيذاء إحدى الحواس الخمس للمارة فى الساعات الأولى من الليل؟». والد العجوز، على حد تعبير العم "إرمنس"، كان يتمتع بموهبة أدبية، لكن آل "نونيث" يبدون دائماً ما لديهم من مواهب.

كان "موروخيل" -زميله فى القسم- ينتظره بجانب صيدلية "دييجيث". فى المواجهة ولدت لافتة جديدة مضيئة: «جاسپار، خردوات- عطارة»، تصبغ الرصيف ببريق مرتجف ضارب للحمرة. "موروخيل"، الفتى الدقيق المنضبط، ذو الملامح الصارمة كان قد أسرَّ

* الخَلْنَج: اسم نبات - المترجم.

فى أذنه اليوم السابق بما يلى: «سيحضر العمدة، دون إلوى؛ فقد كنت دائماً محل تقديره». "موروخيل" من هؤلاء الشبان النموذجيين الذين يرون فى زوجاتهم أمهاتاً لأولادهم فقط، ومن هؤلاء الذين يُفضّلون طموحاتهم على مقاس السلم الوظيفى. وإذا صاغ "كراسكو" فى المكتب إحدى أفكاره الثورية، مثل قوله بأن صندوق التكافل ما هو إلا نوع من السرقة، فإن "موروخيل" لى يخفف من وقع العبارة يسرع بالتأكيد على أن صندوق التكافل ليس نوعاً من السرقة بل صندوق للتوفير. كان جلد "موروخيل" ضارباً إلى الشبهة كما لو كان لحمه آخذ فى التلاشى، وكان يرتدى الملابس الداكنة لأن الفاتحة -على حد قوله- غير حضارية بالمرّة مثل التسكع بالشوارع والصراخ فيها أو الغناء بصوت عالٍ.

كانت تنتظر مجموعة صغيرة أمام قهوة "لوريانو" فأسرع العجور وقال له "خيل": -هاهم رجال لجنة التحكيم. أمل ألا يكون العمدة قد وصل قبلنا.

لكن العمدة كان فى الصالة، جالساً إلى المائدة المعدّة للمأدبة، وعند رؤيته للعجور نهض واتجه إليه فتردد العجور لأنه، بالرغم من خبرته، لم يكن يدرك الطريقة الملائمة للتصرف أمام رئيس له خارج نطاق ممارسته لاختصاصاته، ومدّ يدا متواضعة وباردة، تخترقها عروق صفراء منتفخة، لكن العمدة تجاهلها وضمّه بكامله إلى صدره فى مودة:

- ظننتك ستعملها فينا ولا تأتى - قال له وهو يغمره بابتسامة عريضة وبشوشة.

حيا العجور الحضور بإشارة ودودة من يده بينما كان يجلس بين العمدة وبين "دون كاستور"، رئيس القسم، ثم أخذ جرعتين من النبيذ الفاتح ليسترد شجاعته. كان وجود كراسكو أمامه يؤرقه. لكنهم عندما ورّعوا

الأطعمة وأخذ جرعة أخرى من النبيذ الفاتح، بدأ يفور بداخله حماس يقترب من العدوانية. ولكي يمارس الكلام قال للعمدة: «أتمنى أن يكون كل ما قيل عن تثبيت العاملين بقسم النظافة مجرد إشاعة، فلنا مع الأسف- تجربة قريبة ومحزنة في هذا المجال». لم يعترض العمدة بينما كان شذقاه يعضغان الطعام، أما "دون كاستور" رئيس القسم فقد أقر بأن «ما حدث عام ١٩٤٨ كان تجربة مريرة، وأن ضم جميع العاملين إلى التشريع الوظيفي مازق خطير».

أمام العجوز كان "كراسكو" يعد كرات صغيرة من لباب الخبز ويجعلها تتدحرج دون توقف على مفرش المائدة. كان العجوز يعرف أن "كراسكو" يريد أن يقول له «يا ممتلئ»، لكنه لم يعره اهتماما وغير من نوعية النبيذ، أخذ جرعة من النبيذ الأحمر الطبيعي لأنه، علاوة على ذلك، أراد أن ينسى عبارة «بيبي باثكيث» التي تقول «أن المعاش هو ردة انتظار الموت» والتي عادت لتؤلمه. وكان الأصوات تتسلل عبر الضباب، تناهى إلى سمعه حديث من جهة اليمين عن الأطباق الطائرة وآخر من جهة اليسار عن زيادة الرواتب والأجور وعندئذ فكّر في "جويتو"، ابنه الصغير، الذي رحل وهو في الثانية والعشرين، مثل "باثكيث"، دون انتظار في الردهة، وصاح ليجتلي: «خلال خمسة أعوام سنسافر إلى القمر دون صعوبة تذكر». أشار إليه "بيرث بايستير"، مساعد لجنة التحكيم، بإصبعه الإبهام وقال: (شوفوا العجوز)، لكن العمدة اعترف بأن العصر الذرى يمكن أن يحدث ثورة في أشياء كثيرة، ومن بينها نظافة الحواضر.

انفجرت أسابير "مارتينيتو"، سائق عربة الرّش وقال: «الأطباق الطائرة ستغسل الشوارع». عضّ "دون كاستور" شفته السفلى لأن "مارتينيتو" تعود انتهاز فرصة رى الحديقة لكي يحمل الأطفال للفسحة في عربة الرّش

مقابل ريالين على كل رأس* وقد قامت الهيئة بتحذيره مرارا لهذا السبب . بعد قليل من الوقت، مدّ العمدة يده بخفة من خلف ظهر العجوز ونقر بها على كتف "دون كاستور" فنهض وقال بصوته الغير منسجم النبرات، نتيجة لتلف أحباله الصوتية عام التيفود، «أنهم يودعون "دون إلوى" هذا المساء، لكنهم لا يقولون له مع السلامة بل إلى اللقاء، وأن "دون إلوى" بعد ثلاث وخمسين سنة من الخدمة المتواصلة سيجد في الهيئة دائما داره لأن القانون مهما عظمت سطوته لن يستطيع التغلب على المشاعر والأحاسيس».

انتعش "دون إلوى" بإسراف العواطف الذى بدر من "دون كاستور" والتصفيق الحماسى لزملائه، وعندما دعاه العمدة لإلقاء بعض الكلمات، وقف على رجله متكورا بعض الشئ، تمنحج بافتعال، مسح مقدمة أنفه بطرف المنديل وقال بصوت حاد أنه عندما همّ بحضور هذا الحفل جال بخاطره اليوم الذى استخدمت فيه الهيئة عربات النظافة الجديدة ومكانس الخَلْنَج لأول مرة، وكيف أنه توقف يومها وقال لزوجته: «أنظرى، يا "لوثيتا"، لأن "لوثيتا" هو إسم زوجته، وعندها ثارت نائرتها وطلبت منه عدم ذكر القمامة بتاتا والاستصواب بالجنون. لكنه كان يفكر فى القمامة لأن الموظف الحق يجب أن يفكر فى شئون وظيفته كل ساعة. ولا يقتصر فقط على ساعات الخدمة وكيف أنه عندما قال لزوجته: انظرى، يا لوثيتا، ليطلعها على مكينة الخَلْنَج فإنه كان يفعل ذلك بنفس الحماس الذى يقدم لها به فرشاة أسنان اقتنيت حديثا».

دحرج "كراسكو" كرة جديدة من لباب الخبز على مفرش المائدة، فأغلق العجوز عينيه وتوارى خجلاً خلف كتف "دون كاستور". انتهز العمدة فرصة إمساك العجوز عن الكلام لكى يعدل من جلسته، لكن

* الريال (Real) عملة أسبانية قديمة، وكان يساوى ربع بيزيتة- المترجم.

ابتسامته الودودة أخذت في التحول إلى تعويجة مبهمة كلما طال حديث العجوز. وعندما كرر "دون إلوى" للمرة الثالثة -قوله بأن الموظف الحق يجب أن يبرهن على صفته الوظيفية في كل آن لأن المكتب يجب أن يكون امتداد للبيت والبيت امتدادا للمكتب تحولت التعويجة المبهمة لفم العمدة إلى ايماءة بنفاد الصبر.

كان صوت العجوز مثل وقع عكاز يرتطم بالأرض في رتابة. بدا وكأنه في غيبوبة. لم يحظ أبداً، ولا في ليلة رواجه، باهتمام أحد لسماع كلماته، وفي غمرة هياجه، لم يلاحظ نحنحة "مارتينيتو" المفتعلة؛ ولا ابتسامة "كراسكو" الساخرة؛ ولا النفخة الكاذبة التي يسوى بها "بيرث بايستير" -مساعداً لجنة التحكيم- عقدة رباط العنق؛ ولا التثاؤب المكتوم لرئيس القسم، دون كاستور؛ ولا "فلاش" المصور الذي يمطره بوابل من الومضات عن كُتُب؛ ولا -حتى- الضربات الوقحة التي يسدها العمدة لحافة المائدة بلفافة صغيرة كان قد أخرجها من جيب سترته. وعاد العجوز إلى التأكيد بأن شباب هذه الأيام يعتبرون العمل لعنة وأن الموظف الحق هو الذي يهتم بشئون وظيفته في أوقات الراحة أكثر من أوقات الخدمة وأنه في اليوم الذي أطلع فيه زوجته على مكانس الخُلنج الجديدة فإنه كان يفعل ذلك بنفس الحماس الذي يقدم لهابه. . . .

نزع العمدة غلاف اللفافة الصغيرة، وعندما انتهى، ضغط على ورقة الغلاف بشدة فأحدثت صخباً. بدا العجوز وكأنه استيقظ فجأة واستقرت حدقاته المتعبتان على يدي العمدة العصبيتين، نظر العمدة إلى ساعته، وعندئذ، تنحج العجوز بافتعال، مرر المنديل على طرف أنفه وقال إنه، لكي ينهي حديثه، يريد فقط أن يقول إنه دائماً اعتبر المكتب امتداداً للمنزل، والمنزل امتداداً للمكتب وإنه أحس، عند تركه للهيئة، وكأنهم أخرجوه من بيته وإنه، فيما بعد، كلما شاهد عربة الرّش أو عربة الكلاب

أو العربة - القلاب سيذهب قلبه فى إشرهم، لأن عربة الرّش أو عربة الكلاب أو العربة - القلاب كانوا مثل قطعة منه وأنه لا يريد أن يثقل عليهم أكثر من ذلك. نهض العمدة متثاقلاً فأوقف التصفيق الفاتر للحاضرين بمجرد أن بدأ، ودون أن يعطى للعجوز وقتاً لكى يطوى المنديل الذى انتهى من تمريره على طرف أنفه، أخرج من العلبة التى نزع غلافها حديثاً ميدالية فضية وقلّدها للعجوز، فى نفس الوقت الذى كان يردد فيه:

- اعتبر السيد الوزير أن تفانيك فى الخدمة لمدة ثلاث وخمسين سنة بلا انقطاع يجعلك أهلاً لهذه القلادة التى أضعها على صدرك نيابة عنه.

ثم ربّت على كتفه، ابتسم بفظاظة، صفق ثلاث مرات فى غير حرارة، نظر إلى ساعته من جديد ثم أسرّ فى أذن العجوز: «ببساطة كان حفلاً مشيراً للمشاعر».

نهض الجمع واكتفى العجوز، الذى كان يتهيأ للتعبير عن امتنانه للمكافأة، بالابتسام وبهزّ رأسه مرتين علامة على الرضا. عند الباب ربّت "مارتينيتو"، سائق عربة الرّش، على كتف العجوز إلولى وغمز له بعينيه ثم قال: «خذ بالك من الميدالية وغطّيها كويس». وضحك الجميع. وعندئذ، اقترب "بيريت بايستير" - مساعد لجنة التحكيم - وقال: «تصبح على خير، أظنك فى غاية الرضى». كان العجوز يؤمّن على كلامهم ويدع فى استسلام يده الضاربة إلى الصفرة والمرتجفة تعتصرها الأيدي، وهكذا مرّ عليه الجميع فى صفّ، وأخيراً، عانقه "كراسكو" بحرارة مفتعلة وقال له "باختصار، لقد بقيت أيها العجوز دون وظيفة كما بقيت أنا دون أب». وانفجر فى الضحك، لكن المجموعة كانت قد أخذت فى التفرق وعاد البرد ليهبّ فوق العجوز، برد غريب ينبعث من داخل الجسد ليتفرع بعد ذلك فى العروق والعضلات والأعصاب لكى يتسرب فى المساء من خلال مسام الجلد. أحكم الملفعة حول رقبتة وتنحنح وانتزع مصباح

الشارع من طرف أنفه بعض الومضات الحيّة. كان يتصاعد من مسجري النهر ضباب كثيف دقيق فظهر عمق الشارع وكأنه حاجز ضبابي. سمع خطوات رملاته تتلاشى على البعد وعندما أمسك "موروخيل" بذراعه من الخلف أرجع رأسه فزعا :

- آه إنه أنت ! - قال مبتسما .

- لقد كان حفلاً جميلاً . أهنتك على كلمتك - قال «خيل» .

- هيا - قال العجوز ثم أضاف بعد ابتسامة خجولة - : تعتقد
تعتقد، حقاً، أنها كانت كلمة مناسبة ؟

كانت الرطوبة تخفف من وقع أقدامه على الأسفلت :

- كانت جميلة، هذا ما أعتقد - تابع «موروخيل» - فى مثل تلك الحالات، من المناسب إفساح المجال لحديث القلب . وأنت تركت القلب يتحدث فمضى كل شيء على أحسن وجه . بمعنى أن كل شيء سار على ما يرام فيما عدا الأخطاء التى وقعت من «مارتينيتو» . كان عليهم منع أمثال هؤلاء الناس من الحضور .

رفع العجوز رقبة البالطور لكى يخفى سروره . تملكه إحساس عميق بالغبطة ، كأنه طفل كان هدفاً للتكريم منذ قليل . قال، فجأة، وهو يمسك عن السير، لامساً بخفة ذراع «موروخيل» :

- يحتمل أن أكون قد شربت أكثر من اللازم، لكننى حاولت التحدث من القلب . شيء آخر لا ، ولذا أعتقد أن ماقلته صحيح لأن كلامى كان نابعا من القلب .

كان ينظر بإصرار نحو «خيل» الذى استأنف السير محاولا جر العجوز خلفه، لكن العجوز بمجرد أن تقدم بضع خطوات عاد إلى الوقوف والنظر إلى «خيل» ثم سألته فجأة :

- أتعرف ما كان يقوله صديقي "بائيكيث" عام ١٩٣٠؟

- ماذا ؟ - استفسر «خيل» .

- كان «بائيكيث» يقول أن المعاش هو ردهة الإنتظار للعالم الآخر، ما رأيك ؟

تململ «موروخيل» . حاول من جديد استئناف المسير، لكن الضغطة الخفيفة ليد العجوز على ساعده أجبرته على التوقف. تأمل عيني المنهكين ثم قال :

- ترهات ! وبما أن التردد قد ظهر على وجه العجوز فقد أضاف بحرارة:- أكاذيب !

بدأ العجوز وكأنما دبث فيه الحياة :

- هذا ما أظنه . لقد رحل «بائيكيث» نفسه دون انتظار في الردهة. وابني «جويتو»، في الثانية والعشرين من العمر.

كانا مثل شبحين بين الضباب، يتصببان وسط الميدان الخاوي. أحس العجوز بنخسة في حلقة، وأخيراً اعترف:

-يجوز أن «بائيكيث» كان مبالغاً، لكن الورقة الحمراء قد طالعتني في دفتر البفرة* قبل الحفل بساعات.

على حدقته المرتجتين تعلقت بقايا من طمأنينة. أضاف بصوت حاد:

- (لسه) باقي خمس ووقات.

ترك نفسه لـ «خيل» يسحبه بعد أن أخذه من ذراع. كان العجوز «إلوى» يتحرك متعثراً، مظهراً مقاومة غريزية، لكن عندما هم بالإصرار على وجهة نظره، أمطره «خيل» بوابل من الكلمات:

* دفاتر البفرة التي كانت تستخدم في لفّ التبغ (وخاصة بعد الحرب الأهلية الأسبانية، ومن أحداث الرواية) كان يحتوى معظمها على ورقة حمراء قبيل انتهائه بخمس ووقات. وكانت هذه الورقة الحمراء بمثابة تحذير للمستهلك بقرب انتهاء الدفتر. وأظن أن نفس النظام كان متبعاً في أوراق البفرة في مصر حتى وقت قريب- المترجم.

- ترهات. اليوم رجل فى السبعين ليس عجوزاً، وضع هذا نصب عينيّك، يا «دون إلوى». قال القانون سبعين مثلاً كان يمكنه القول تسعين. المعاش مكافأة.

اليوم رجل فى السبعين ليس بعجوز. يمكنك الآن تخصيص وقتك فيما يحلو لك؛ لهواة التصوير مثلاً.

بينما كان يثب فوق البلاط، رمق العجوز بطرف عينه صديقه الذى يشبه جلده الأصفر الضارب للخضرة - بفعل الصيام وضوء المصابيح الفاتر- جلد ميت. كان ضغط يد «خيل» على ساعده يزداد بمضى الوقت. وأمام بوابة بيته تركه فانتهز العجوز الفرصة لكى يمرر المنديل على أنفه بنعومة. أرقته فكرة البقاء وحيداً فى غرفته. قال بعناد فى محاولة لكسب بعض الوقت:

- لارالت هناك خمس وركات يا «خيل».

كانت المفاتيح تصلصل فى يده المرتجفة. أخذ «خيل» من منكيه، لكى يعيد إليه حماسه، وقال:

--- مجرد رغبة فى الكلام. بعد أن تنام ستفكر بطريقة أخرى. إنه العشاء والنبذ والميدالية وما إلى ذلك. تصبح على خير، يا «دون إلوى». لكنه لم يكن قد وصل إلى الناصية عندما أحس بوقع خطوات وراءه. كان العجوز «إلوى» يخب فى غير رشاقة فى ظلمة الشارع وعندما وصل إلى محاذاته كان يلهث بصعوبة وابتسم له وكأنه يطلب العفو. وضع المفاتيح فى جيبه وقال متلهفاً:

- إذا لم يكن لديك موانع يا «خيل» سأرافقك إلى بيتك. لقد أكلت كثيراً فى العشاء، ومن المناسب القيام بجولة.

فى بيت من القرن الماضى يفتح رأسيا مسقط موحش للضوء تضيفى عليه الأصوات والضحكات التلقائية للخادومات حيوية وبهجة . وبالنسبة للفتاة «ديسى» فإن ذلك المسقط يعتبر أحد الأسباب الرئيسية التى تربطها بالحياة. كانت تمضى يوميا عدة ساعات وهى مستندة بكوعها على حديد الشرفة، تثرثر مع زميلاتهن. وعادة مايحدث هذا عند المساء، فى الوقت الذى يخرج فيه العجوز للفسحة مع صديقه عيسى. كانت تصيح فيها، أحيانا صديقتها «لامارثى»، التى تخدم فى الدور الثالث: «هيا، يا حلوة، لو قلت لواحدة أنك؛ لارلت ترتبطين بالعجوز مقابل ماتى بيزيتة فلن تصدقك».

اعتادت «لامارثى»، صديقتها التى تعمل فى الدور الثالث، على أن تدس أنفها فيما لايعنيها. وعلى سبيل المثال، فقد كانت «لامارثى» تؤكد بأن العجوز مليء بالغرائب ولكنها كانت تقول ذلك بلهجة ساخرة ومجعدة فمها كما لو كان العجوز ممثلا بالهوام بدلا من الغرائب.

لكن «لاديس» كانت تعرف أن لكل إنسان عيوبه و«لامارثى» نفسها، بعد السير عدة مرات فى الممشى الرئيسى للحديقة أمسيات الأحاد كانت تضطر للجلوس على حافة الرصيف، حتى فى شهر ديسمبر، لأن قدميها مفلطحان ويؤلمهما الحذاء.

وعلى أية حال فإن العجوز لم يكن أكثر امتلاء بالغرائب من أى كائن آخر، والدليل على ذلك، أن غرائب العجوز لم تكن تتجاوز الحد ولم تكن تطير النوم من عينى «لاديس».

وهكذا، فإن حساسية العجوز الشديدة للبرد ووضعه السروال والصديري والسترة على الغطاء؛ أو نومه دون خلع المنطقة والجورب؛ أو بقاءه راکعاً خلال نصف ساعة بعد الأكل لكي يسهل عملية الهضم؛ أو تمضيته الآحاد المشمسة فى الشرفة لالتقاط صور والكاميرا فارغة؛ أو صحوه المبكر عند الفجر - فى الربيع والصيف - للتغوط بين الأشجار الكثيفة للحديقة، كانت أشياء لا تسيئ إلى أحد ولا تعكر صفو الغير.

قد يكون الأمر أسوأ من ذلك لو صعد إلى رأس العجوز المشى لمدة ساعة يومياً حافى القدمين على أرضية الحمام الرطبة لعلاج صداع الرأس، كما يفعل مخدوم «لاتاسيا»، أو مجرد الذهاب إلى القهوة بعد العشاء كما يفعل مخدوم «لامارثى».

صحيح أن مخدوم «لامارثى» لم يكن أرملاً ولهذا فهى لاتظل وحيدة فى البيت بالرغم من خروجه كل مساء. ولم يكن فى مقدور «لاديسى» تحمل وضع مشابه فهى - بالرغم من انتفاء صفة الجبن عنها - تخاف الوحدة منذ طفولتها وخاصة أثناء الليل.

ومن هنا فقد طلبت اليوم السابق من «لامارثى» مصاحبته لأن سيدها ذاهب لحفل تقاعده وسيعود متأخراً. واستجابت «لامارثى» - كالعادة - دون مزيد من الرجاء، ولكن بعد أن تأخر العجوز تركتها وحدها مع صرير الأثاث الموحش والد تك - تك السريع والمتواصل للساعة المعلقة فى الصالة.

لم تمر «لاديسى» بمثل هذه الساعات. وبما أنها كانت قصيرة النفس، حسب ادعاء زوجة أبيها، وقد غطت نفسها بالملابس حتى منبت شعرها فإنها كانت على وشك الاختناق عدة مرات. ورغماً عنها، وجدت نفسها تفكر فى «لا أدريانا»، جامعة الصمغ وفى موسى، الفتى الذى

احترق وجهه فى فرن الهندباء* والذى كان يطوف بشوارع القرية وهو ملفوف بملاءة لتخويف الناس خلال الليالى التى كانت تدق فيها الأجراس للتذكير بأرواح الموتى. مر وقت لم تكن «لاديسى» تميز فيه بين الـ تك... تك السريع لقلبها وبين الـ تك-تك المتلاحق لساعة الصلاة وعندئذ همت بالصياح لكنها لم تفعل وبدلاً من ذلك تكورت فى سريرها وأخذت تصلى. رددت ٢٣٦ مرة «مع الله أنام، مع الله أستيقظ، مع عذراء لاجيا والروح القدس»، لكن صورة «لا أدريانا»، جامعة الصمغ، كانت تتراءى لها من جديد بعد كل مرة تنتهى فيها من ترديد تلك الصلوات. تكرر هذا حتى سمعت مفتاح العجور فى القفل فاستسلمت للنوم راضية.

لم يدر بخلدها الآن لوم «لامارثى» لأنها تركتها وحدها. فقد كانت «لامارثى» تعمل مثل حمار وبين عملها وقدميها المفلطحين كانت تختتم اليوم وهى فى حالة يرثى لها. وعلى كل، فقد عاملتها «لامارثى» دائماً كأخت لها وعندما وجد «أوتيكيو»، الحارس- المٌحلف*، أباهما ميتاً فى قناة الساقية وكتبت لها أربعة أحرف، من القرية، أجابت «لامارثى» بمجرد وصول الخطاب حتى أنها ذهبت لاستقبالها، بعد أسبوعين، على محطة أتوبيس القرية عندما علمت بموعد وصولها. كانت «لامارثى» ابنة عم «فيفين»، صاحب الطاحونه، و«لامارثى» نفسها هى التى بحثت لها عن عمل فى بيت العجور.

وبغض النظر عن تصرفاتها فقد كانت «لامارثى» تعاملها كفرد من العائلة. فكانت تقرأ لها خطابات أختها «لاسلبينا» - امرأة «الأوتريبو»- وتكتب أيضاً الردود التى كانت تملئها عليها «لاديس» وتتأخر فى إعدادها، أحياناً أكثر من أسبوع. كانت «لامارثى» مستعدة دائماً لتقديم

* الهندباء: نبات يستخدم بعد تجفيفه كوقود للأفران البلدية (مثل عش الأرز)- المترجم.
* المٌحلف: عضو فى هيئة المحلفين التى يرجع إليها قبل النطق بالحكم فى القضايا، كما هى العادة فى المحاكم الغربية- المترجم.

الخدمات، وهذه حقيقة. حتى عندما وصلت «لاديسي» من القرية منذ عامين وهي تحمل صرة في يدها، فإن «لامارثي»، التي ذهبت لانتظارها على محطة الأتوبيس، أقرضتها ٦٠ بيزيتة لكي تعجل بشراء حقيبة حتى لاتمثل بين يدي العجوز وكأنها امرأة من الشارع.

ومن جهة أخرى، فقد كانت «لامارثي» تعرف عن «مانويل» الكثير مثلها. وفي مسقط النور ظلتا تقولان «مانويل» بالرغم من أنه لا يوجد أحد بالقرية يعرفه الآن بهذا الاسم. فلم يعد «البيكاثا»* يسمى «مانويل» منذ أن قام، وهو في السادسة من العمر، باستئناس عقق كان قد اصطاده من على شاطئ النهر. وقد أخبرتها «لاسليينا»، أختها وزوجة «الأوترويو»، قى خطابها الأخير أن «البيكاثا» سيلتحق بالجيش في فبراير وعندما تحدثت «لاديس» في هذا مع «لامارثي»، تدخلت الحقيبة «لاتاسيا»، التي تخدم في الطابق الأول، قائلة بأنه من الأفضل الجلوس لانتظاره لأنها ستعيب من الإنتظار واقفة. عندئذ فقدت «لاديس» أعصابها، تشبثت بقضبان الشرفه وصاحت بصوت ملتهب: «اقفلى بؤك، يا مؤذية».

في مرات أخرى كانت تقول لها «لاتاسيا» من مسقط النور أن ما تسعى وراءه هو إرث العجوز. حقيقة، كانت «لاتاسيا» امرأة وضيعة وسمعتها سيئة بين الجيران، والأكثر شفقة منهم كانوا يجزمون بأنها أجهضت مرتين، لكن «لامارثي»، التي لم تكن على خلاف معها، كانت تؤكد بأن «لاتاسيا» تحيض دما متخثرا وهذه مصيبة مثل الولادة بعاهة مستديمة. ولم تكن «لاتاسيا» ترد بنعم أو بلا. أما إذا زاد الأمر عن ذلك فضحك أو تقول: «لأني أستطيع؛ أما عليكى كلام!».

عرفت «لاديس» كثيرا من الفتيات ولم تجد واحدة منهن، مهما أوتيت من مواهب، مثل «لامارثي». مما لا شك فيه أن «لامارثي» لها

* بيكاثا (picaza) معناها: تَقَعَق، وهو طائر يتسبب للطيور الجارحة - المترجم.

نقاط ضعفها مثل العجوز ومثل "لاكايا"، زوجة أبيها، ومثل كل بنى البشر، لكن "لاديس" كانت تستميت لها العذر. كان يؤلمها فقط قول "لامارثي" لها -عندما تختلف معها- أنها أكثر فظاظة من حوض يثر. وكان هذا يوجعها في الصميم، ما أوجعها في الصميم الليلة السابقة، قول "لامارثي" لها بأن نوعية المفروش الجديد الذي اشتريته أقل مما رأياه معا الخميس السابق حيث أن "لامارثي" كانت تقول ذلك بدافع الحق، لأن راتبها أكبر من راتب "لاديس" ولم يسعفها أبداً في شراء أشياء ذات فائدة.

كثيرا ما كانت "لامارثي" تقول لها:

- تكسين القليل، يا حلوة، لكنك تستغلينه جيداً.

حقاً، لقد كانت "لاديس" تجمع أشياء للغد. في أقل من عامين اشترت بالإضافة إلى المفروش، بياضتين للسريير، منشفتين، ثلاث ملاءات والحقيبة. وعندما بسطت المفروش الليلة الماضية ولمسته "لامارثي" وقالت لها أن نوعيته أقل مما شاهداه معا الخميس السابق، كانت على وشك الانفجار. لكن "لامارثي" كانت تتمتع بهيمنة عليها بحكم معرفتها للقراءة والكتابة، وتحكمها في مراسلاتها، ولقضاؤها عشرة أعوام في المدينة. ولأجل كل هذا كتمت "لاديس" غيظها، وإن كانت لم تفلح في إخفاء نشوتها أمام اللون الأزرق الناعم للمفروش واعترفت بخجل:

... إنه لتلك الليلة.

... مع "البيكاثا"؟

رفعت رأسها متحدية:

... وهل هناك غيره؟

... و"ماتيلدي"، يا حلوة؟

- هذه للكلاب. (بس ييجى) "البيكاثا" الجيش وسأسيه إسمها،
سترين استلقت "لامارثى" على السرير السّفرى وهى تمسك بأصابعها
المتشابكة ركبتيها البيضاء المكتنزة. أطبقت عينيها المائعتين، اللتين كانتا
مثل قطعتين غير متلائمتين من الزجاج المحذب، ثم قالت:

- لتلك الليلة سأشتري قميص نوم شفاف مثل قميص سيدتى.

أشارت "لاديس" على نفسها بعلامة الصليب:

- تقدرين على ذلك!

- هيا، يا حلوة، إنت جايية منين؟

- هذا لا يليق بك.

أطلقت "لامارثى" ضحكة:

- فى تلك الليلة لا مجال لما هو لائق أو غير لائق.

تحدثنا بعد ذلك عن "أرخيمىرو" العَرِيف الذى يطلب ودّ
"لامارثى"؛ عن "لاتاسيا" وعن "البيكاثا". وإذا كانت "لامارثى" قد
صعدت قبل أن يعود العجوز فقد كان هذا، ببساطة، ومن بين أسباب
أخرى، لعدم تحمل المرأة لآلام كعبها. أيام الأحاد، أثناء التمشية كان
يحدث لها نفس الشئ؛ إذا لم تجلس، انفجرت. لكن "لاديس" كانت
تغض الطرف عن كل هذا وعما هو أكثر منه إذا تناولت "لامارثى" على
العجوز، وشرعت تقول أنه ملئ بالغرائب وأنه بخيل وأنه كذا وكذا.

لم تكن "لاديس" تجهل أنهم يدفعون أكثر فى بيوت أخرى، لكنها
كانت على قناعة تامة بأن حرية التصرف التى تتمتع بها لها ثمن.
وبالإضافة إلى ذلك، فقد كان يمكن وصم العجوز بأى شئ فيما عدا
البخل. الأمر، ببساطة، أن فاقد الشئ لا يعطيه. وهذا ما كانت تعيده

على أسمع "لامارنى" فى مسقط النور لكنهما كانتا تضطبران لتغيير مجرى الحديث لأن "لاتاسيا" كانت تدس أنفها وتصيح: «ما تريدينه هو إرث العجور، لكن يبدو لى أن أملك سيخيب». كان بإمكان "لاديس"، الفتاة، أن تقول بصوت عال جداً أنه لا يوجد فى المدينة من هو أطفه كلاماً من سيدها. أنه لا يتحفظ عند الأكل ولا تهجم النظافة، ولا يتناول فطوراً فى الصباح لأنه كان يقول أن المعدة هى الجزء الذى يتأخر فى الاستيقاظ ومن السوء مفاجأته بطعام.

من أجل هذا كانت "لاديس" تستمتع إذا قالت لها "لامارنى": «أنا دمي متعكر، يا حلوة، لقد عَنفاني اليوم». فلم تكن تُعنف أبداً، وبالإضافة إلى ذلك، فقد كان يمكنها الغناء بصوت عال أثناء عملها دون أن يضايقها أحد. كانت تقبض مائتي بيزيطة، لكنها تتمتع بمميزات تفتقدها الأخريات. وبغض النظر عن ذلك، فلم تكن "لاديس" أكولة، وفى كثير من الليالى كانت تدلف إلى الفراش دون عشاء حتى تُعفى نفسها من العمل الذى يستوجبه تقشير بيضة.

غير أن العجور قد تحول مؤخراً؛ فلم يعد يغنى أثناء الحلاقة، ولم يعد يلتقط صوراً دون فيلم من الشرفة. وعلاوة على ذلك، فقد مضى عليه أسبوع لم يشرب فيه اللبن قبل النوم حتى لا يسهن. كان يقول لها: «العجائز يعيشون على الهواء، يا بنتى، لا تقلقى». لكنها كانت تنهره:

- هل أنت مريض؟

- لا، يا "ديس".

- نعم أنت مريض، اعترف.

- لا، يا "ديس".

- لا نبدأ بلا ثم يظهر العكس بعد ذلك .
- قلت لا ، يا "ديس" .
- لماذا لا تشرب اللبن ، حينئذ؟
- ليست لدى رغبة ، يا بتتى ، هذا كل شئ .
- اعبث كما يحلو لك ، وسترى إلى أى مدى سيصل إليه هزالك .
- لم تكن تقص على "لامارثى" شيئاً من هذا . لن تتصور "لامارثى" أبداً أنها تشعر بالوفاء تجاه العجوز ، ولن تفهم "لامارثى" أبداً أن الود بين امرأة ورجل يولد فى ثالث مرة تغسل له فيها الجوارب .
- كانت "لاديس" تدرك بدهاءة أن الودّ يتخذ أشكالاً متعددة لكى يعلن عن نفسه . فبين الذى تشعر به تجاه "البيكانا" والذى يربطها بأختها "لاسليينا" ، امرأة "الأوتروبيو" ، والدّفعة المشوبة بالحرص تجاه العجوز يوجد بونّ شاسع . ومع هذا ، فكل ما تقدم ودّ .

بينما كان العجوز، إلوى، يكتب خطابا إلى "ليونثيتو"، الفتى، على مائدة الصلاة، كانت "لاديس"، الفتاة، وبيدها المكنسة والممسحة تتأمل من فوق كتفه كيف تخربش الريشة سطح الورقة. كان العجبر يعجى فى سلاسة على القرطاس فغضنت الفتاة جفניה، وكأنها فى مواجهة ضوء الشمس، فى محاولة منها لفك رموز تلك الخطوط. لقد استهوته الحروف منذ أن كانت طفلة. كان يدهشها قدرة الرجل العجيبة على اصطلياد الكلمات وتثبيتها على ورقة بنفس السهولة التى كان ينتزع بها "دون فيديل"، مدرس القرية، زهرة ويعتصرها بين صفحات كتاب.

بعد قليل من مجيئها من قريتها قالت للعجوز: «أقدم إصبعين من يدي نظير تعلم القراءة». ضحك سيدها وقتها وقال: «هذا لا يكلف مالا، يا بتى». ومن يومها انكبت الفتاة على التعليم، لكنها لم تكن حادة الذكاء ولا سريعة الفهم فاحتاجت لسنة وخمسة أشهر وسبعة أيام لاستيعاب حروف الهجاء دون لجلجة. ذات مساء، اتسع عالم الحروف المتشيطين، الذى كانت تعتقد بأنها استوعبته بالكامل، حتى وصل إلى ما لا يمكن تصديقه. سألت مرتابة: «أصحیح أن هذا حرف M أيضا، يا سيدى؟». «فعلا، ياديس» أجابها العجوز متحليا بالصبر. «إنها M mayúscula*». «ماذا قلت؟»، سألت الفتاة مستقصية. «Ma-yús-cu-la، يا بتى»، كرر العجوز قوله.

* حسب قواعد اللغة الأسبانية فإنه إذا جاء حرف من الحروف الأبجدية فى بداية الجملة أو بعد نقطة أو فى بداية أسماء الأعلام أو البحار والأنهار والمحيطات أو المدن والدول... الخ، فإنه يكتب كبيرا، أى: mayuscula - المترجم.

ثارت ثائرة الفتاة وكان أحداً قد داس لها على طَرف: «وماذا تكون، أيمن معرفة هذا؟». وأوضح لها العجوز بأن (las mayúsculas) تكون شيئاً هكذا مثل ملابس العيد بالنسبة للحروف، لكن "لاديس" سألت: بحق الشياطين لماذا تحتاج الحروف إلى ملابس الأعياد، وأجاب هو: لكتابة كلمات هامة مثل Desi، وأمام هذا، ضربت الفتاة فخذهما براحتها محدثة صوتاً عالياً، مثل كل مرة تضحك فيها بشدة، وقالت: «لا تبدأ في سخرياتك». لكنها كانت مصممة على القراءة أو الموت دون ذلك وفي الشهرين الأخيرين استطاع العجوز أن يجعلها تتهجى العناوين الكبيرة الملونة في الصحيفة اليومية.

كان يسألها كل مساء: «ماذا تقول هذه الكلمات، يا بنتي؟». فتمدَّ وجهها الخشن الضارب إلى الحمرة، تعص طرف لسانها، وأخيراً تتمم شفاتها المشققتان: «فراذ-كو-ي-زو-ر-ش-لال-ري-دا». كانت تنظر إليه في تباه وفخر كأنها انتهت من القيام بعمل بطولي، لكن العجوز لم يكن يمهلهما حتى لا يفتر حماسها: «وهنا، يا بنتي؟ ماذا تقول الكلمات هنا؟». فتنزل الفتاة بصرها. تعلوها الحمرة ثم تبدأ بعد قليل من التردد: «أحد-فاد-الز-عيم-يم-رون-تحت-عبا-ة-عذ-راء-ال-بي-لار». عندما تنتهي كانت ترفع رأسها السمرء فجأة وتطلق ضحكة: «آه، يا أنا، لو ترانى "لاسلبينا"!». عندما تأكد العجوز خلال الأيام الأخيرة من تقدّم الفتاة بدأ يعلمها الكتابة بالقلم. كانت الفتاة تقبض بأصابعها الخشنة على القلم وتكتب بخط ضعيف ومرتعج. وعندئذ ينصحه العجوز: «أمسكى القلم من جانب، يا بنتي». فتهز رأسها في غضب: «أيمن معرفة ما يأكله هذا؟» «ما هو، يا بنتي؟»، سأل. اشتاطت غضباً: «ماذا!... هذا الذى ذكرت». شرح لها العجوز فى تؤدة فأقبلت الفتاة من جديد على الورقة، وهى تعص لسانها، ومركزة حواسها الخمس فى عملها.

بعد مرور أسبوعين ظهر فى مفصل إصبع "لاديس" الإبهام دُمْل صغير فلم تستطع استعماله إلا لماسا. من وقتها اكتشف العجوز أنه من غير المناسب أن تستخدم فتاة فى الخدمة القفازين، فالفقار، مثل حقيبة اليد والحذاء العالى الكعب، حكّر على الهوانم وسيدات الطبقات الراقية*. وبالرغم من كل هذا فقد ناشدها العجوز: لا يمكنك الاعتماد على هذه الأصابع، يا بنتى. لكنها أنهت النقاش بحدة: «لتمض الواحدة هائلة بزينتها إذا كانت تقبض من أجل هذا».

الآن، ترمق "لاديس" من فوق كنفها المخطط الجميل للعجوز. قالت، فجأة:

أقدم إصبعين من يدي نظير الكتابة مثلك.

أه، أنت، يا بنتى... مدّ يده من فوق الأوراق وأعطاهما القصاصة.

نظرت الفتاة بإعجاب إلى الصورة الفوتوغرافية التى جاذبت انتباهها ثم قالت:

يا للعجب! لقد التقطوا لك صورة جميلة، اليس كذلك؟

إنها من أجل الفتى قال فى لهجة إيضاح، وأضاف: هذا هو العمدة إلى جوارى.

هذا المتين البنيان الذى يدخلن سيجارا؟

نعم.

أطلقت "لاديس" ضحكة ثم ضربت بكفها على فخذهما:

لن تنكر مظاهر النعمة التى تبدو عليه.

* يفترض المؤلف بذلك أن هناك بعض الأشياء التى تناسب طبقات اجتماعية معينة. ومن الأشياء التى قد لا تناسب الخادמות (مثل لاديس) تعلم القراءة والكتابة، لما يتطلبه هذا من استعداد خاص. المترجم.

قرأ عليها العجوز، بعد ذلك، الكلمات الصغيرة المدونة وأطلعها على الميدالية. أحس من خلال هذا الاتصال بارتياح غريب. لقد أمضى الليلة مكروبا، لم يعرف على وجه الدقة ما إذا كان يحلم أو يفكر، فقد كانت تتحرك حوله أطياف "پیبی بائکیت"، و"جويتو"، ابنه الصغير، و"لوئيتا"، امرأته. وبعد ذلك مثلت أمامه الأوراق. المطبوعات التي كان يعبوها خلال مدة تزيد عن الخمسين عاما برزت من الظلمة، مثل طيفي "جالان" و"جارثيا إرناندث" اللذين كانا يحومان بالمكتب عام ١٩٣٤ ويتكاثران في سماء الحجرة أو على الحائط بعد أن يعد حتى عشرين دون أن يتوقف عن النظر إلى طرفي أنفيهما. المطبوعات كانت تقول: «قسم النظافة: هذا الصباح... خرج من الحديقة... وصل إلى الموقع الأول... خرجت من الموقع الأخير... حملات القمامة إلى المقلب... الخ»؛ أو «بيان العمل الخاص بيوم... كس... رى... الخ». أو: «تقرير... صاحب التوقيع، خولى منطقة... ينقل لسيادتكم... الخ، الخ».

عندما استيقظ أحس بالهم في صدغيه ووجع في رأسه. تحقق مما إذا كانت المنطقة قد خلعت، حيث أنه اعتاد أن يحلم عندما تبرد معدته، لكن المنطقة على خلاف ما توقع كانت في مكانها. مضى أكثر من عام وهو ينام دون خلع المنطقة والجورب. لقد بدأت تلك العادة حينما لم يستطع الاهتمام إلى أى من القطعتين يخلعها أولا حتى لا يبرد؛ إذا خلع الجورب سيبرد قدماه؛ وإذا خلع المنطقة سيبرد بطنه. عندئذ قرر النوم بالمنطقة والجورب، وقد قدم له صديقه عيسى المبرر حينما قال له بأن الإنسان يمكن أن يصاب بالبرد لا لبرودة الجو في حد ذاتها بل عندما يمتلكه الخوف من الإصابة به ذلك لأن الشعور بالبرد، مثل كل الأشياء، لا يتوقف على درجة الحرارة بل على الإيحاء.

عندما وجد العجوز "إلوى" نفسه تائها في الصلاة في أول صباح بعد الإحالة إلى المعاش، فكر في عيسى، كما فكر في البرد الذي ينبعث من عظامه بالرغم من محاولته تخفيفه بوضع قدميه تحت الشريط المذهب الضعيف الذي يتسلل من بين شيش النافذة أو بلفهما، بعد ذلك، عند رحيل الشمس، في الملفعة القديمة، إلا أن المحاولة باءت بالفشل. والأدهى من ذلك أن عقله كان معطلاً أيضاً. لقد حلم بالتقاعد وهو شاب والآن، وهو مستقاعد، يحلم بالشباب. كان الوقت يتوفر لديه من كل الجهات مثل ملابس فضفاضة للغاية وتصور أن جولاته المسائية مع عيسى ربما تساعده في اختصار الساعات على مقاسه.

لكن الجولات الأولى مع عيسى بعد حفل التكريم لم تفلح أيضاً في حلّ شيء. لقد أصبح عيسى أنانياً منذ فترة ولم يعد يفكر إلا في تجاوز المائة وفي معدته الكسول وفي الفتيات اللاتي تعبرن مرمى بصره. أسرّ إليه "إلوى" في الأمسية الأولى: «أتعرف، يا عيسى، أن الورقة الحمراء قد طلعت لى في دفتر البُفرة؟»، لكن عيسى لم يعره اهتماماً وأشار، بطرف العكاز دون حياء، إلى فتاة كانت تضرب الأرض إلى جواره بحذائها العالى. قال: «انظر، يا له من نموذج! على أيامنا لم يكن يوجد مثل هذا». لمعت عيننا العجوز "إلوى" قليلاً ثم قال متألماً: «لا ينطبق هذا على "لاباكيثا أوردونيث"، بالطبع». «آه، نعم»، رد عيسى، ودون أن يتوقف عن النظر إلى الفتاة رسم في الهواء بطرف عكازه معالم جسد "لاباكيثا أوردونيث". عاود العجوز الهجوم حينما ذكره بأن "بيبين باثكيث" كان متيماً بها وبأنه لا زال يتذكر مقولة "باتكيث" عن المعاش ورددها انتظار الموت، لكن عيسى ابتسم بتباه وقال أن "بيبين باثكيث" ظل طيلة حياته مريضاً بداء العصب وأنه يتذكر، بدوره، أن "باتكيث"، في حالات الاكتئاب، كان يتغوط في بركة الحديقة بقصد تسميم الأسماك الملونة.

رجع العجوز إلى بيته وهو غير راضٍ، مهدوداً بفعل برد غريب. فى الأمسيات التالية لم يجد عند عيسى المعاونة المنشودة. كان عيسى يتشم دوماً لأنه لا يعتبر نفسه عجوزاً وكان يردد وهو يجلد الهواء بعكازه: «إمش رويدا رويدا». لكنه لم يكن ينزل أبداً على رغبة العجوز "إلوى". ومن جهة أخرى فإن العجوز لم يستطع التوصل إلى حالة من الاستقرار والتوازن أثناء الأصبحة أيضاً. لقد استقر فى روعة، بعد كتابة الخطاب إلى "ليونثيتو"، أنه لم يبق له شئ ليفعله فى الحياة. أمضى ثلاثة أيام فى ترتيب صور قديمة ولصقها فى البوم عتيق. كانت عملية بطيئة لأن العجوز كان يعيد بناء ذكريات طويلة حول كل صورة. من وقت لآخر كان يتوقف ويمرر المنديل على طرف أنفه. كان الجو بارداً أو كان يختلق البرودة، لكن، والحق يقال، فإن شعاع الشمس الخافت المتسلل عبر النافذة والملفعة الملفوفة حول قدميه لم يكونا ينفعانه بشئ. من وقت لآخر كان يصل إلى المطبخ ليعطى أوامره للفتاة، "لاديس"، وفى تلك الحالات كان بخار المكان الساخن يعيد إليه قواه. كان ينعشه أيضاً صوته الممتلئ وشراحتها فى تعلم البدائيات. لم يكن يخفى على العجوز "إلوى" أن "لاديس" فتاة طيبة، وإن كانت -مثل كل بنى البشر- لا تخلو أيضاً من غرائبها الخاصة. "لاديس"، مثلاً، كانت تقدم بدون روية إصبعين من يدها اليمنى مقابل تعلم الكتابة، ولو فعلت ذلك سيكون من الصعب عليها التوصل بثلاثة أصابع إلى ما لم تستطع التوصل إليه بأصابعها كاملة. وهذه بلاهة، كما هو بلاهة أيضاً تصورها بأن لبس القفارين ليس مناسباً لفتاة فى الخدمة، لأن القفار والحذاء العالى الكعب وحقيبة اليد لا تليق إلا بالهوانم وسيدات الطبقات العليا. ومن غرائبها الأخرى ملئ رأسها بالبس يومى الأربعاء والسبت، وعلاجها للأذن الموجوعة بتوجيه لطمة قاسية إليها. لكن العجوز "إلوى" كان يلتمس لها العذر. لكن يكن يجهل وجود أخريات ينتجن أكثر وإن كان لا ينقص اللاتى ينتجن أقل

وتفتقرن، علاوة على ذلك، إلى الخشونة العفيفة وحسن الموالاة الموجودتان عند "لاديس". منذ عامين مضيا قضى العجوز إلوي ثلاثة أشهر سيئة. فالخدمة المنزلية كانت في انحدار ولم يكن بيته مما يتهافت عليه لافتقاره إلى الرخاء. أخيراً، حضرت ذات صباح "لاديس" بوجه محتقن، وخصلات شعرها ملتصقة بالعجبة، مشكلة امتدادا للحاجبين، وهى تترنج على وقع هزات حقيقية السَّفر وسألته عما إذا كان هذا هو البيت الذي يحتاج لفتاة كما أخبرته انها على ضمان "لامارثى". «لامارثى؟»، سأل العجوز. «التى تخدم فى الطابق الثالث. لقد أمضت ثلاث سنوات فى البيت وهى محل ثقة- قالت». دعاها العجوز للدخول وانحنى "لاديس" لكى تحمل الحقيبة، لكنها تذكرت فجأة تعليمات "لامارثى" فنهضت وواجهته بالسؤال عن الأجر والأجارات، ارتبك العجوز "إلوي" وبالرغم من أنه كان قد قرر إعطاءها مائة وخمسين بيزيطة إلا أنه قال لها: «ما رأيك، يا بنتى، فى مائة وخمس وسبعين بيزيطة علاوة على الإقامة والمعيشة؟. الناس هنا تعتاد الخروج للتنزه يومى الخميس والأحد، لكنك لو احتجت ليوم آخر، فلن نختلف من أجل هذا». رسمت الفتاة ابتسامة عبوسة ثم قطبت جبينها، وأخيراً عاودت الابتسام وقالت هذا يكفى لأنها - وإن كان لا ينبغي أن تقول هذا- لا تتلهف على الشارع وليست مُولعة بالرقص. وهكذا توصل العجوز والفتاة إلى اتفاق.

تبين بعد ذلك أن الفتاة سلسة القيادة وخدمية، ومن ثم فقد قرر العجوز فى شهر مايو -منذ عام- زيادة الراتب خمسا وعشرين بيزيطة مكافأة لها على طاعتها وتفانيها.

لم يثلج صدر العجوز مراجعة الصور القديمة كما ظن. ومن جهة أخرى، فقد كانت الصالة واسعة للغاية وغير مرتبة وكان البرد يعض قدميه.

كانت تمر لحظات يحس فيها العجوز "إلى" وكأنه مُخدَّر من الداخل والخارج، غير قادر على التفكير أو اتخاذ قرار. وفي تلك الحالات كان يرى هاوية تنفتح أمام عينيه فيضطر إلى إمساك بطنه بذراعيه حتى يسيطر على الدوار. بدأ يفقد الثقة في نفسه وذات صباح -سبعة أيام بعد حفل التقاعد- وبحجة إطلاع "لاديس" على صورة "جويتو" وهو في ملابس البحارة، ذهب إلى المطبخ وسألته الفتاة إن كانت الصورة للمرحوم، وردَّ بالإيجاب، فأردفت بالدعاء له أن يكون في الجنة ونعيمها، وأجابها بأن هذه هي المرة الأولى التي يسمع فيها مثل هذا الكلام وبأن "جويتو" كان محل عنايته وأنه لا توجد شقاوة لم تخطر على باله. وعند الوصول إلى هذه النقطة قَرَّب الكرسي من النار ثم جلس عليه واحتل مكانه من المطبخ.

في البداية، استغربت الفتاة. كانت تقول مكروبة: «هيا، أفسح لى المكان». أو تقول: «دائماً تعوق تحركاتى». أو، على أقل تقدير: «أيمكن معرفه ماذا فُقد منك هنا؟». لكن سيدها كان (يُطنش) وانتهت الفتاة إلى التعود، لدرجة أنها بعد ثلاثة أيام لم تكن تحسن التصرف إذا لم يكن العجوز هناك إلى جوارها يراقب كل حركة من حركاتها. عند مجيئه إلى المطبخ صباحاً كان العجوز يلقي بسؤاله الذى لا يتغير:

- ألم يمر ساعى البريد، يا بنتى؟

- مرّ منذ قليل.

- ولا شئ؟

- لا شئ.

كان يجلس بجوار الفرن ويراقب فى صمت تحركات الفتاة. سمعت "لاديس" ذات يوم وهو يهمهم من بين أسنانه: «ربما يكون مشغولاً جداً؛ هذه الفترة من العام سيئة». سألتها الفتاة حينئذ:

- عن من تتحدث إن حقَّ لى السؤال؟

- عن الفتى .

- أمشغول ابنك على الدوام؟

- احكمى أنت، يا "ديس" . إنه مسجل وموثق عقود فى مدريد .

- حدّقت فيه الفتاة بحدقتيها الكليتين المشوقتين :

- وماذا يكون هذا؟

- حاول إيضاح الأمر لها لكن الفتاة أعيها الفهم . قالت :

- اختى ، " لا الفونسينا " ، تعيش فى مدريد . إنها أيضاً مصادفة .

كانا يتجاذبان أطراف الحديث فى مودة لكن العجور لم يكن يظهر اهتمامه إلا نادراً . فى البداية ، ألّت سلبيته "لاديس" . كان على العجور اللقاء نفسه داخل النار تقريباً لكى يصبح عنده رد فعل . كانت الفتاة تقول له : «مرة أخرى ! إنك أشد حساسية للبرودة من قط ولد فى أغسطس» . فيؤمن على كلامها دون أن يفتح فمه . ذات صباح ، وفى محاولة لإرضائه ، فتحت "لاديس" شفاط الهواء لكنه قفز وكان عقرباً لدغته :

- اغلّقى الشفاط يا بنتى حتى لا تتسرب الحرارة المنبعثة عن الفحم .

- اتعنى فعلاً ما تقول ! - قالت "لاديس" - . هل منعوا عنك اليومية

بعد أن أقالوك إلى المعاش؟

- بنسبة مئوية كبيرة .

- هزّت الفتاة كتفيها ساخطة :

- وما معنى هذا؟

- معناه أنهم لو كانوا يعطوننى من قبل مائة مثلاً فإنهم الآن يصرفون لى خمسة وسبعين فقط (دى كل الحكاية).

- من "الدوروس" (El duros)؟*

- أو من البيزيتات.

- وهل الدفّع "بالدوروس" مثل الدفّع بالبيزيتات، يا سيدى؟

- إفهمينى يا "ديس"، لكى أبين لك معنى النسبة المئوية، نعم لا يوجد فرق.

- نسبة...؟ ماذا قلت؟ (أمّا لك كل نادرة وأختها!) - قالت وهى تضحك وتضرب على فخذه بحماسة.

انتهى الأمر بالعجوز -الجالس على الكرسى والملفوف بالدثار الرمادى الرث- إلى الغضب:

- ألسنت أنت، يا بنتى، التى تريدين تعلّم كل شئ دفعة واحدة!

منذ الإحالة إلى المعاش وكان العجوز غائب عما حوله. تأكد شروده للفتاة من عدم إحساسه بتجمع المخاط فى طرف أنفه، ولذا وجب عليها تحذيره باستمرار: «سيدى، المنديل». كان يتمم حينئذ بكلمة «شكراً» غير مسموعة ويتنظف بحركة آلية فى شئ من الارتباك. كانت "لاديس" تضطر أحياناً لتكرار تحذيرها ثلاث مرات حتى يأخذ حذره. وبالرغم من شروده المستمر فإن "لاديس" لم تكن تخاف على سيدها الإصابة بالجنون مثل "الأبولينار"، ابن عم "الأوتروبيو"، زوج أختها. خافت عليه هذا بعد عشرة أيام، عندما تلغثم العجوز ذات مساء بشئ، وهو زائغ البصر، عن ورقة حمراء ودفتر بقرّة. انتفضت "لاديس" كلها وصاحت فيه:

- سيدى، هل أنت بخير؟

* "دوروس" (Duros) جمع "دورو"، وهو قطعة معدنية فئة الخمس بيزيتات - المترجم.

بدا وكأنه عاد إلى نفسه :

- بخير، يا "ديس"، لماذا تصيحين هكذا؟ لست أصما.

أخذت الفتاة نفساً عميقاً. خافت للحظة أن يكون قد حدث له ما حدث "للأبولينار". فالنظرة هي نفس النظرة وإن كانت نظرة العجوز ليست ذاهلة ومُهَدَّدة. هكذا بدأ "الأبولينار" وذات مساء عندما وصل إلى البيت قال لأمه: «أماه، الفرس العنيفة كانت على وشك أن تعضني». عندما نظرت السيدة "بيسى" إلى عينيه ارتعدت فرائضها: «أى فرس، يا بنى؟».

«هل هناك غيرها، يا أمى، العنيفة؛ الموجودة بالحظيرة»، أجاب. لكن السيدة "بيسى" لم يكن عندها أية فرس ولا أية حظيرة بل جحش هزيل وستة أزواج من الأرانب. ومع ذلك، فقد سايرته: «لأبد وأن تكون قد فعلت لها شيئاً، يا بنى، فالحيوان شديد الانقياد». واصل كلامه: «أقدم لها العلف كل ليلة، يا أماه، أقسم على هذا. أيمكن أن أفعل معها شيئاً آخر؟». فى اليوم التالي عزلوا "الأبولينار" ومنعوه من لقاء أحد. كانوا يؤكدون فى القرية على أن الجنون أصابه لأن الريف يطبق على أنفاسه بعد أن ذهب إلى المدينة ولم يجد فيها ما يناسبه. لكن ما حدث لسيدة ما دون مضاعفات. فى السبعة أيام الأخيرة لم يعد إلى النظر بتلك الطريقة المقلقة أو إلى الحديث من بين أسنانه عن أشياء لا معنى لها. من جهة أخرى، لم تفتن "لاديس" إلى أن الشئ الوحيد الذى يتوق إليه العجوز هو الدفء. فمنذ أن كان طفلاً والعجوز "إلوى" ينشد الدفء بغريزته ومنذ أن كان طفلاً، مدفوعاً بقدرٍ ماكر، وجد نفسه مضطراً لتبديل مصدر الدفء مثلما يبتذل قميصاً*.

* كلمة الدفء المستخدمة هنا لها معنيان: الدفء الحسى المنبعث من الحرارة أياً كان مصدرها؛ والدفء المعنوى الناجم عن الاتصال بشخص معين أو عن العيش فى أسرة. والكاتب يقصد المعنى الثانى المترجم.

كان من الممكن -لأى سبب- ألا يحدث تغيير فى حياة "لاديس" لولا الفيضان الرهيب لعام ١٩٥٢. لكن الإنسان لا يستطيع الفكاك من قدره.

كان العجوز "إلوى" يسألها كل صباح:

- ألم يمرّ ساعى البريد، يا "ديس"؟

- مرة ثانية؟ - كانت تقول-. ماذا تريدنى أن أقول لك!

- آسف، يا بتى؛ لقد نسيت.

ثم يقترب العجوز من الفرن ويمدّ يديه الضاربتين إلى الصفرة فوق لوح الفرن:

- الجو جميل هنا.

أخذت الفتاة المحجن وقلّبت جمرات المجمرة. كانت فتحتا أنف العجوز تصدران بريقاً متقطعاً. اشتدت النار. نبّه العجوز:

- حذار، يا "ديس"، اغلقى تيار الهواء. حرارة الفحم تتسرب دون أن نشعر بها. وقفت الفتاة أمامه ويدها الممتفختان القصيرتان تستريحان فوق بطنها مثل ضفدعتين:

- أتعنى ما تقول؟

ردّ العجوز:

- لا أمزح، يا بتى.

قالت لهن "لاكايا"، زوجة أبيها، عندما عثر "أوتيكيو" (الحارس-المحلف) على جثة والدهن: «الآن، عليكن مديد العون والتعود على الصيام». ووقتها كانت أختها "لاالفونسينا" تنتظر أيضاً وفارغ الصبر خطاباً من صديقتها "لابالن" بعد قرارها بالعمل في مدريد. وكانت تسأل كل صباح: «ألم يأت خطاب؟».

فترد عليها زوجة أبيها: «مين حيكذب لك، يا بود الإخص!». لكن "لاالفونسينا" تلقت أخيراً خطاباً من "لابالن" تقول لها فيه: «تحصلين هنا على ضعف الأجر وتجدين المكان الذى تنفقينه فيه»، وعندها قررت "لاالفونسينا" السفر إلى مدريد، لكن "لاديس" -الأكثر حساسية بين أخواتها- ظلت فى القرية لأن السفر يرهقها ولأنها لا تطيق الابتعاد عن "البيكانا" بأمال كثيرة. حدث كل هذا بعد فيضان عام ١٩٥٢، وإنصافاً للحقيقة يمكن القول بأنه لولا حدوث هذا الفيضان الرهيب لكان من الجائز ألا يتغير شئ فى حياة "لاديس". لكن الإنسان لا يستطيع الفكاك من قدره.

والآن، عندما كان العجوز يدخل المطبخ كل صباح، وهو ملفوف فى الدثار الرمادى الرث ويسأل مستقصياً: «ألم يمر ساعى البريد، يا ديس؟»، كانت الفتاة تجتهد فى صرف تفكيرها فى "لايكا"، زوجة أبيها، وفى تسلطها القاتم لكى تفتن إلى وجود أشياء فى الحياة أسوأ من عناد العجوز وعندئذ تتسلح بالصبر ولا ترد عليه رداً سيئاً. كان مجرد تصور الفتاة بأنها تحت السلطة الاستبدادية لزوجته أبيها كفيلاً بزعة كيائها.

وعلى خلاف ما تقدم، فقد كان يروق لها تذكر جولاتها المسائية مع البيكانا، عندما كان يغنى لها بصوت مسموع، وهما جالسان فى منحدر

على جانب من الطريق أو مضطجعان فوق قشّ البُندر، أغنية «الريليكاريو» ولماذا تتملكنى الأحزان». كان "دون فيديل"، المُعلّم، يقول لها أن "البيكاثا" له صوت جميل لكنه يستقر إلى حاسة السمع*. كانت تضحك بشدة وتضرب على فخذهما براحتيها كل مرة تقص فيها هذا على "الآلفونسينا" وتقول لها: «احكمي أنت، ما صلة هذا بذلك؟ العم "فيديو" أصابه مَسّ من جنون». ولأن "دون خيرونيمو"، القسيس، كان مقتنعا بجمال صوت "البيكاثا" فقد اتفق معه على إحياء حفلات الزفاف والجناز والمآتم. لقد كان المآتم الرفيع المستوى من نصيب "البيكاثا"، كما كانت من نصيبه حفلات الزفاف الباذخة. وبهذا توفّر للفتى دخل إضافي لكي يرافق خطيبته إلى السينما أو للمرقص. إلا أن "لاكايا" قالت للفتاة ذات يوم: «افعلي في الميدان ما يحلو لك، لكني لو رأيتك مرة أخرى ترقصين في الجراج سأطحن عظامك».

وقد كان "دون خيرونيمو"، القسيس، من أنصار هذا الرأي وفي القدّاس وفي الجناز كان يضحّج بالصياح من على المنبر، بينما يحرك ذراعيه مثل ريشتي مروحة، قائلًا بأن أفضل مصير للجراج هو الحرق. عند الحديث عن هذه الأشياء، التي كاد ينعثها بـ«الشهوانية»، كان يفعل بشدة ويظهر على شديقه ريد أبيض وعلى درجات المنبر يتساقط رذاذ دقيق متواصل. ولم يكن "دون أولييانو"، صاحب الجراج، على نفس هذا الرأي لأنه كان يحصل من الجراج بعد تحويله إلى مرقص علي دخل يفوق بكثير ما كان يعود به عليه تخزين عربات النقل لكل من "مارثيانو"، صاحب المصنع، و"توماس"، صاحب دكان التبغ. ولذا كان يقول للقسيس: «سيدى القس»، عليك بطرح هذه الأوهام جانباً، (الفرفشة) هي

* المقصود بالافتقار لحاسة السمع هنا: عدم التمتع بأذن حساسة للموسيقى. وهذا ما لم تفهمه الفتاة كما يتضح من تعليقها بعد ذلك- المترجم.

التي تأتي بالعائد المادى هذه الأيام». ويتنحى به "دون خيرونيمو" جانبا ليوبخه ويستحثه على التفكير فى الروح، لكن "دون أوليانو" كان يضحك مظهرًا -عند الضحك- أحشائه ويقول له: «الروح لا تأكل، يا أبونا»، وعندئذ يتعكر صفو «دون خيرونيمو» ويرفع يدا هائلة كما لو كان سيضربه، لكنه سرعان ما يتركها تسقط، دون استخدام، فوق العباءة المتربة.

بعد ذلك، كانت "لاكولويكو" -المشرفة على المنزل- تذيع فى كل مكان أن القسيس يبكى دما أثناء الليل حتى أنها أطلعت فى المغسل ذات مرة صويحباتها على كيس الوسادة وكان فعلا ملطخا بالدم، لكن "البيكاثا"، الذى كان لا يفارق القسيس بحكم اشتغاله بالغناء، أوضح: «أنه دون الانتقاص من قَدْر السيد القسّ فقد لاحظ أنه ينزف من أنفه كل مرة يصاب فيها بالزكام».

فى ظل تلك الظروف اعتادت "لاديس" و"البيكاثا" الذهاب إلى الجراج. لم يكن تحذير "لاكايا" كافيا لإقناع الفتاة، التى كانت تتصور أن "لاكايا" تكرهها هى وأخواتها لأن "ماركوس"، ابنها الوحيد، ولد عبيطًا، ربما لأنها عندما تزوجت بأبيها كان عمرها قد تجاوز الأربع والأربعين سنة. كان "الماركوس"، إذًا، علاوة على العبيط، ثمرة فات أوانها، ولم تكن تغفر لها "لاكايا" ولا لأخواتها ما تتمتعن به من عافية، ولا لزوجها، "الجالو"، جَعَلَهَا فى مرتبة الاحتياطى. اعتادت أن تقول لجيرانها: «يعلم الله ما أعجب "الجالو" فى الملعونة أختى».

ومن ناحية أخرى فإن "لاديس" وأخواتها لم يتقبلن هذه الفعلة النكراء. كان أصدقاء "الجالو" يقولون له فى الحانة: «ألم يكفك ما مضى من الزواج بدهاية فتريد الآن الزواج بأختها؟». فيؤمن على كلامهم "الجالو" الذى لم يكن ينزعج لآى شئ فى هذا العالم لثخانة دمه: «إنه دواء من نفس الكأس». لكن "لاكايا" لم تتركه فى حاله منذ اليوم الأول

للزفاف: «لماذا تناديني بناتك بإسمى (لاكايا)؟ مُرهنَّ أن يقلن لى يا أمى». فيقول دون اقتناع: «أسمعتن؟ قولوا لها يا أمى». لكنهن ظللن ينادينها بإسمها وينشرن غسيلها القذر وظلت هى تضربهن لأتفه الأسباب، وأحياناً كثيرة، دون أن تكلف نفسها عناء البحث عن سبب.

كان من الممكن، على أية حال، ألا يتغير شئ فى حياة "لاديس" لولا حدوث فيضان عام ١٩٥٢ الرهيب. حقيقة لم يكن للفتاة، "لاديس" أى علاقة بالفيزان، لكن "الماركوس"، أخوها النصف شقيق، الذى كان عبيطاً، أخذ فى الصباح من أعلى القبة:

- فليسقط المطر، ليسقط المطر، بحق عذراء الشجر.

وكان الرجال ينظرون إليه متحفزين لأن المطر سبب نكبتهم. فالنهر، الذى كان مثل خطّ ضامر يغطى مجراه نبات البوط خلال أحد عشر شهراً من العام، كان ينتفخ كالحامل كل ربيع، وفى ذلك العام انتفخ كثيراً حتى غمر الوادى لدرجة أنهم لم يكونوا يرون له حدوداً، ولا أول له من آخر، وبالكاد لم تكن تظهر من الماء، بالإضافة إلى برج الكنيسة وعشّ اللقلق، سوى أربعة أسقف محدبة على وشك الإنهيار. ومع كل هذا، لم يكن لـ "ماركوس"، العبيط، من عمل سوى الصباح وهو يتطلع إلى السماء:

- فليسقط المطر، ليسقط المطر، بحق عذراء الشجر.

ومع الصباح يتنامى فى قلوب المزارعين حقد متفجر لأن المطر سبب شقائهم. أخيراً، قال "براكسيدس"، الثعلب، لأمه:

- قولى لأبنك يخرس؛ وإلا، فلست مسئولاً عن العواقب.

احتدّت "لاكايا":

- ما ذنب المسكين؟ يكفيه ما هو فيه من تعاسة. أليس كذلك؟

أما "دون خيرونيمو"، القسيس الذى يشبه بشحوبه وقامته الفارعة الصلدة والطين على عباته ميتا خرج تَوّاً من قبره فقد كان يستحثهم على السجود والدعاء لله بأن يقلع المطر، كما كان يؤكد لهم أن الفيضان عقاب من السماء على الذنوب الكثيرة التى يقتترفونها أيام الأحاد والعطلات فى الجراج. وبما أن الفيضان كان قد فاجأ "دون أولبيانو" فى المدينة حيث ذهب لتغيير أحد إطارات الجرّار الزراعى، فلم يتمكن "دون خيرونيمو" من الاحتدار ضد شخص معين وكان يتحدث فى وداعة واستسلام دون أن يتولّد الزّبد على شذقيه.

لكن "ماركوس"، العبيط، واصل فى عناد:

- فليسقط المطر، ليسقط المطر، بحق عذراء الشجر.

بدأت المجموعة القادمة، المُكوّمة فوق القمة بصحبة الأمتعة القليلة التى نجت من الفيضان، تفقد أعصابها شيئاً فشيئاً وكلما وقف غلام وصاح بتلقائية: «انظروا، هذه عنزة السيد "بولى"» مشيراً إلى كتلة متنفخة مثل فقاعة تسبح دون هدف فوق سطح الماء اللامع، ينبثق من أى مكان ذراع قوى ليُجلسه بلكمة قاسية. بدا "الماركوس" وكأنه الوحيد الذى يستمتع بما يحدث هناك، لكن "براكسيديس"، الثعلب، كانت تعتريه لحظات يكاد أن ينفطر فيها وعندما انتزعت المياه الهادرة بقرته الدّاجنة من الحظيرة وتقدّمت هذه، متنفخة كمنطاد، يؤرجحها التيار حتى توقفت، محصورة بين الأفرع العالية لشجر الجوز، على بعد عشرين متراً من القمة، شرع "براكسيديس" فى ضرب رأسه. بحجر والسبّ واللّعن من بين أسنانه وكلما نظر إلى البقرة انتفض كمن به مسّ من جنون وعندما صاح "الماركوس" مرة أخرى: «فليسقط المطر، ليسقط المطر، بحق عذراء الشجر»، التفت الثعلب إلى "لاكايا" وهو فى غير وعيه:

- أسكتيه وإلا سأسكته أنا.

وبما أن أحدا لم يحرك ساكنا، فقد نهض "براكسيديس" بكل ما لديه من رباطه جاش، قبض على المذرة التي كانت بيده وغررها في بطن الصبي ثلاث مرات بينما كان يصيح وهو يهقه: «هكذا سيتعلم».

لا يعنى ما تقدم أن "لاديس" تعطى الحق للشعب، براكسيديس، أو تنفيه عنه. لم تكن تعطيه أو تنفيه أيضاً عن أخيها النصف شقيق الذي كان، فى نهاية المطاف، عبيطاً. لكن الذنب يقع على عاتق "لاكايّا" لولادته بعد فوان الأوان وعلى أبيها لزواجه من امرأة مثل تلك.

أما ما حدث بعد ذلك من دخول "البراكسيديس" السجن وإقلاع المطر أخيراً، وعودة الحياة لتدبّ فى القرية، فإنه لم يقد فى حل المشكلة.

أتلفت المأساة أعصاب "لاكايّا" فكانت تمضى الوقت فى مداعبة فردة من الحذاء الذى كان يلبسه "الماركوس" يوم الفيضان. وإذا حدث والتقت بزوجها، الذى يبدو أن المصيبة لم تؤثر فيه لشخانة دمه، تقول له وهى تتحبب نحياً أقرب إلى الشقاء:

أى، يا له من ولد جميل هذا الذى فقدت!

وإذا كانت إحدى الفتيات هى التى التقت بها بدلاً من "الجالو" كانت "لاكايّا" تقول لها أيضاً:

أى، يا له من أخ جميل هذا الذى فقدت!

حدث هذا مع "لاديس" ذات يوم كانت فيه عكرة المزاج فالتفتت نحوها وردت:

بل نصف أخ وفوق هذا عبيط.

عندئذٍ سددت لها "لاكايّا" صفعة أفقدتها الوعى لمدة خمس دقائق. منذ ذلك الوقت ومع قدوم الشتاء تبدأ الأذن اليمنى فى الطنين والرّشح ولا

تسمع بها الفتاة حتى مجيئ الربيع. وبالرغم من هذا فقد تحملت "لاديس" هذيان "لاكايّا" حتى جاء مساء، بعد هذه الواقعة بثلاثة أشهر، عثر فيه "أوتيكو"، الحارس -المحلف، على "الجالو" غريقاً في قناة الساقية.

في البداية، تحدث سكان القرية عن حادث انتحار، لكن "دون فيديريكو"، الطبيب، نفى هذا لأن الأمر ببساطة يتلخص في أن "الجالو" أغمى عليه أثناء شربه من قناة الساقية ولأن دمه كان ثخيناً جداً فلم يستطع الجرى في العروق؛ تماماً كما يحدث للساقية التي يمتلئ بطنها بالطين فلا يتدفق منها الماء.

منذ ذلك الحين بدأ شملهن يتفرق. "لادورو"، الكبيرة، تزوجت من "الأنطونيو" وذهبت لتعيش في "لاباريا". "لاسليينا"، الثالثة، أعلنت عن اتفاقها مع "الأوترويو"، الذي يمتلك أرضاً لا بأس بها على الجانب الآخر من النهر، على الزواج في الخريف، لكن "لاكايّا" تدخلت وقالت بينما لم تؤد الأغلبية منهن ما عليهن من واجبات نحو البيت فلن تسمح بزيجات أخرى. عندها هجم "الأوترويو" من الشارع وأمسك بكل من "لاسليينا" و"لاكايّا" وجرجرهما وراءه وانتزع المباركة بالزواج انتزاعاً. أما "لاكاندی"، الثانية، فقد غادرت القرية ذات يوم دون أن تترك أثراً، وبعدها أخذت "لاديس" تخطط مع "لالفونسينا" للعمل في الخدمة. تعلقت "لالفونسينا" بمدرید عندما كتبت لها "لابالن" أخيراً وقالت لها: «تحصلين على ضعف الأجر وتجدين المكان الذي تنفقينه فيه». لكن "لاديس"، الأكثر حساسية بين أخواتها، كان يوجعها الابتعاد عن "البيكانا" بأُميال كثيرة ولذا قررت البقاء في المحافظة وكتبت أربع كلمات لصديقتها "لامارثي"، التي تصرفت كأخت لها، فأجابتها بمجرد وصول الخطاب وذهبت لاستقبالها على محطة الأنوبيس حتى أنها أقرضتها ٦٠ بيزيطة لكي لا تمثل بين يدي العجوز دون حقيبة وكأنها قادمة من الشارع.

كل مرة تتذكر فيها "لاديس" ماضيها تتكدر وتؤلمها الأذن ويلتصق شعرها بالجهة ليشكلا مع الحاجبين كتلة واحدة. لكنها كانت دائماً تضحك، تواجه العجوز، ترفع ذراعيها كما لو كانت ستطير ثم تتركها بعد ذلك يستريحان على جانبيها فى إيماءة خائفة:

- وأنا الآن هنا لأننى اخترت هذا.

بينما كانت تتكلم "لاديس" كان العجوز يترك نفسه لهدهدة صوتها الملتهب ويظل مطبق الجفنين كأنه نائم، ثم يفتح بكسل إحدى عينيه ويسأل فى شئ من الفزع:

- وماذا حدث للفتى؟

- أى فتى؟

- المكّار، يا بنتى، صاحب المِدرّة.

كانت الفتاة تضرب على فخذهما بكفّها محدثة رنينا، وينشقّ وجهها، العنيد المتوحش، عن قهقهة مضيئة:

- أى مكّار بحق الشياطين! تقصد الثعلب؟

- هذا، يا بنتى، الثعلب.

- قبضوا عليه. لكنه ليس فتى كما تظن -إن عمره يقترب من الثلاثين. كان العجوز يتنهد:

- لا يزال محبوساً؟

- "لا سلبينا" تقول أنهم سيطلقون سراحه فى عيد الفصح. قال المحامى أنه لم يكن فى وعيه بسبب ما حدث لبقرته. وكما ترى، فإن المحامين مستعدون للخروج من أى مأزق فى الحال.

- هذا صحيح .

فى الخارج ، كان الثلج يطوق أشجار الموز ويجعل الاسطح تلمع ،
كما كان يخفف من وقع الأصوات والحركات فى شوارع وميادين المدينة
الصغيرة ؛ وعندما بدأت " لاديس " فى حكاية جديدة استسلم العجوز
لهذه صوتهـا ، أخرج المنديل ببطء من جيب الدثار نظف أنفه بحركة
آلية ، وأخيراً ، عقف ذراعيه النحيلين فوق بطنه وأطبق جفنيه بنعومة كما لو
كان سينام .

على وقع قرقرة النار فى المكان استحضر العجور "إلوى" دفء لاأنتونيا".

كانت "لاأنتونيا" حنانه الأول، فلم يمهلها القدر لمعرفة والده وعن والدته لم يكن يحتفظ بصورة واضحة- أما أخته "إلينا"، التى عاش معها بضع سنوات، فقد كانت بعيدة عنه، حادة الطبع وبادرة مثل إحدى الزواحف. كان العجور "إلوى" مثل "ماركوس"، أخ "لاديس" النصف شقيق، ثمرة فات وأنها لأنه ولد نفس اليوم الذى دفنوا فيه والده، وهى مصادفة دفعت أحد الظرفاء إلى القول فى النادى بأن "دون إلوى نونيث" مات بسبب المخاض. وبالرغم من ذلك، فالحقيقة هى أن "دون إلوى نونيث" مات بسبب الكوليرا، وبالصدفة، فى اليوم التالى لاستقبال السادة "كاستلار" و"ساجستا" و"مارتوس" و"موريت" الدكتور "فيران" فى الكونجرس. اليوم السابق، اخبر السيد "كانوباس" الدكتور "فيران" أن الوزارة تقدر مجهوداته لتحرير الإنسانية من سياط الكوليرا القاسية وأنها مستعدة لتمويله بمائة بيزيطة يوميا لمساعدته فى عمله. لكن، وبرغم الدعم المادى، فقد مات "دون إلوى نونيث" بداء الكوليرا مساء اليوم التالى، وعلى حد قول "لاأنتونيا" فقد دفنوه وهو فى كامل هيئته.

خلال مراسم الدفن ألقى "دون كيتتين ماجرو"، القاضى، بهذه المفارقة: "أحدث هذا الآن والوزارة تمول الدكتور "فيران" لانتصاره على الكوليرا، إنه القدر المحتوم ولا شئ غيره" عندئذ اقترب منه فى حيلة "كلميمتى ثيد"، صاحب محل الفراءات، وقال له: "الا تعلم خبر

"تورتوسا" ؟ " تشكلت في الحال حلقة حول صاحب محل الفراءات الذي أضاف: " يقول فيران" انه سيذهب إلى "تورتوسا" لمساعدة أهلها، لكن قلبي يحدثني أنه ينوي الفرار لان دواءه لاينفع "ولا يشفع " . وسوء كان هذا او ذاك، فلن "دون إلوى نونيث" ، والد العجوز، قد انقطع الجبل الذي يربطه بالحياة عام ١٨٨٥ ، ودفنوه، كما تقول " لا أنتونيا" ، وهو في كامل هيئته .

قال العجوز لـ "لاديس" :

- كما ترين، يا بنتي، فقد كنت ابن ساعة وجثمان والدي مائل أمامي . وكما يُقال فإنني حتى لا اعرفه .

غامت عينا الفتاة الخاليتان من الاهداب :

- هذا يسمى سوء حظ .

- حدث لى تقريبا نفس ما حدث للملك .

- الملك؟

- الا تعرفين من كان الملك، يابنتي؟

انفجرت في الضحك ، مرتابة :

- معك لا يمكن لأحد معرفة متى تتكلم بجد أو متى تسخر .

- لا أسخر، يا بنتي . كان الملك شيئا هكذا مثل صاحب الدولة .

يأمر في كل شئ ويقول: " هذا هنا وذاك هناك " . " هذا يعجبني ولا يعجبني ذاك " والكل بطيعه في احترام .

كانت الفتاة تستمع إليه فاغرة الفم :

- أماء، لابد وان يكون واسع الثراء!

- تخيلى يا بنيتى كل ما يريده من غنى، لكنه فى المقابل، وبالعبد
الاقدار، لم يكن له أب.

ترددت "لاديس"، لم تكن تعرف ما إذا كانت تريد ان تضحك أو
تغضب:

- لاتبدأ - قالت، أخيراً-. الكل له أب حتى الأشد فقرا.

ومع ذلك، فالملك، يا بنتى، لم يكن له أب، هذه الحقيقة. لقد مات
أبوه قبل خمسة أشهر من ولادته وعندما ولد دثروه بملابس سوداء. ما
رأيك؟ عاصرت "لانتونيا" مصائب الأسرة حتى انها كانت تضع كل ليلة
بعض الاطعمة سرا على رف الخزانة، لأنه منذ ان بدأت المنغصات كانت
"إيلينا"، اخت العجوز، تتحجج بان الطعام لا يدخل لها فما.

ومن جهته، فإن العجوز "إلوى"، الذى لم يكن وقتذاك سوى
مخلوق ضئيل وعليل، كان يمضى الوقت فى المطبخ مع "لانتونيا" التى
كانت تسأله مرارا لكى تشغله: "ماذا تريد أن أقص عليك اليوم، يا وسيم
الوجه؟" ويجيب الطفل: "حكاية إمامبو" يا "انتونيا".

- اتعرفين حكاية "إمامبو" يا بنتى؟- سأل العجوز "لاديس" ذات
صباح بينما كان ينظر إلى الاسطح التى يتسلقها الصقيع وإلى المداخل
التي تخرج زفيرها بصعوبة تجاه اتجاه السماء الرصاصية.

- حكاية (إيه)، ياسيدى- ردت الفتاة مترقبة-. الواحدة منا تمضى
حياتها فى القرية وانت تعرف كيف تكون القرى.

عندئذ اوضح لها العوز أن "إمامبو" كانت مغنية رائعة الجمال
وعندما ماتت تركت ملابس تقدر فقط بشروات طائلة. لكن الفستان الأكثر
بهاء، المرصع باللؤلؤ البراق والاحجار الكريمة والذى ارتدته أثناء غنائها

للأوبرا المفضلة لديها، إستخدم كفن لها وعندما انتهوا من وضعه عليها بعدما شقوه من جانب أضرموا فيه النار تنفيذاً لوصيتها. وبعد ان احترقت إماً بوبت ، بما عليها من فستان، لم يتبق منها سوى رماد قليل، وضع أصدقائها الرفات فى صندوق من الذهب الخالص وحملوه إلى أختها وقالوا لها: "مس كلارك"، هذا ما تبقى من أختك".

تخيلته "لاديس" وهو طفل. احمرت بالتدريج، ثم رفعت يدها نحو فمها وتمتمت "ياللعذراء!" بصوت منطفي، غير مسموع تقريباً. سألت أخيراً:

- وبماذا أجابت "مس كلارك"، يا سيدى؟

لم يكن العجوز يفعل سوى اقتفاء أثر "لانتونيا":

-خمنى أنت. ويضيف قائلاً: "يالضالّتنا"، أو شيئاً من هذا القبيل.

فى مرات أخرى، وعلى ضوء لمبة الغار الخافتة، كانت "لانتونيا" تحكى له، أثناء انتظارهما لعودة أخته "إيلينا"، قصة "روباتشول". لقد لاحقوا "روباتشول" لأنه كان دائم التورط فى الجرائم والاعمال المشينة وعندما أمسكوا به قدموه للمحاكمة وحكم عليه بالاعدام. ويوم تنفيذ الحكم ايقظه الحارس فى الثالثة والنصف صباحاً قائلاً له: " روباتشول"، انهض، إنها الساعة" لكنه استدار نصف استدارة على الخيشة لغلبة النعاس عليه وكان على الحارس هزه ست مرات والصياح فيه مرات أخرى مماثلة: " روباتشول ، أفق حانت ساعتك"، لكى يستيقظ.

لم تكن تطرف للصبي "إلوى" عينا، كما لا تطرف عين "لاديس" الآن والعجوز "إلوى" يقص عليها الحكاية. كان الصبي "إلوى" يسأل متعجلاً: وبماذا أجاب "روباتشول"، يا "انتونيا"؟ وتواصل "لانتونيا" كلامها " قال: طيب بس من غير زعل). ارتدى "روباتشول" ملابسهم وحلق ذقنه ومشط شعره ثم مثل أمام الحارس وقال: "أنا جاهز، وعندئذ

اقترب القسيس وسأله: "روباتشول"، ستكون بعد قليل فى ذمة الله، ألا تريد الاعتراف؟". لكن "روباتشول" بصق وقال: «الغربان فيما بعد». وأراد أحدهم أن يعصب عينيه لكنه ابتعد وقال: «لا تفكر فى هذا». وعندما سقطت السكين فوق عنقه نظر نحو القسيس وصاح: «تحيا الجمهورية الشعبية!». ثم تدحرجت رأسه نحو الدلو ومن هناك تابعت الصياح، وهى منفصلة عن الجسد والعينان جاحظتان: «تحيا الجمهورية الشعبية!».

تمكنت "لاديس" من السيطرة على رجفة وهى تسأل:

هل يمكن أن نتحدث الرأس وحدها، يا سيدى؟

حسبما رأينا، يا بنتى. ابن عم "لانتونيا"، الذى كان عضوا فى لجنة تنفيذ حكم الإعدام، دعا على نفسه بالموت إن كان ما يقوله غير صحيح.

إلى جوار "لاديس"، فى المطبخ، كان العجوز "إلوى" يستحضر دفة "لانتونيا"، مثل بخار اصطبل لاذع ومعتم. على خلاف ذلك، فإنه عند الاستيقاظ كل صباح فى السرير الواسع يشعر بوجع أسنانه من الصورة الباردة لأخته "إيلينا". لم تصدر أبداً عن أخته "إيلينا" بالرغم من رابطة الدم وكبرها عنه بخمس وعشرين سنة لفئة تعينه فى الحياة أو تشعره بالدفة. ومع ذلك، فإن العجوز "إلوى" لم يكن يحمل لها أية ضغينة، لأن "إيلينا" أخته، ومثلها "سوئسو" زوجة ابنه "ليونيثو"، لم تختارا شخصيتهما، وعلاوة على هذا فهناك أشخاص قد ولدوا ليمدوا غيرهم بالدفة وأنحروا ولدوا لتلقيه. لكن "إيلينا"، بهجرانها، لم تكن هى التى تنبثق عنها ذاكرته، بل الشعور فقط ببرودتها. كان شعورا مبهما، لكن العجوز، لكى يهشبه، فإنه كان يتخذ وهو جالس فى السرير الوضع الدفاعى الغريزى للجنين، وعيناه مصوبتان نحو إطار المنبه. وبهذا الشكل، كان يحل محل الإحساس بأخته ما علق بالذاكرة من الالتزامات

الماضية للوظيفة: «فى التاسعة والنصف - كان مُدَوَّنًا- رَفَع دفتر التوقيعات». وبعد هذا بقليل: «فى العاشرة إلا الربع؛ تقديم التقرير للأمانة العامة». ثم: «فى العاشرة والنصف، تقرير بالأعطال وإخطار السجل العام».

فى بعض الأحيان، والصباح لم ينصرم، كان يصطنع النوم، وبين أطياف الغفوة، كانت تبرز واضحة المعالم المطبوعات التى ظل يعبؤها بدقة خلال خمسين عاما: «قسم النظافة»، «سير العمل»، «تأشيرة حارس مقلب القمامة». حلم ذات مساء بأن "كرأسكو" أرسل إليه بكومة هائلة من المطبوعات وقال له برصانته المعهودة: «إذا لم تملؤها جميعا لن تغادر المكتب؛ هذا أمر من "دون كاستور"». استيقظ فزعا، يلفه العرق، خَدَرَ اللسان. منذ الإحالة إلى المعاش، والعجور "إلوى" يعانى من الكوابيس دون حاجة لارتخاء المنطقة. كانت بدعة كريهة. اعتاد أن يحلم بإصبع "كرأسكو" المتهمم أو بالقمامة التى تتكوم فوقه ولا تجعله قادراً على تحريك إصبعه أو إصدار إشارة احتجاج. سابقا، فى حياة "لوثيتا" زوجته، كان يحلم، أحيانا، أحلاما واعدة. لدرجة أنه حلم مرة بأنهم نَصَبوه عمدة والكل يناديه بصاحب السعادة وكان هو يناشدهم بالآلام المسيح أن يَعدّلوا عن ذلك وينادونه بـ "إلوى" أو "دون إلوى" على الأكثر لأن هذا يَناسب مع طبيعته فى التصرف. لكن "لوثيتا"، زوجته، كانت تنهره وتوصيه بترك مرءوسيه ينادونه بصاحب السعادة لأنه إذا أعطى الثقة للناس انتهى بهم الأمر إلى التجرؤ عليه. لكنه عندما استيقظ، كفاه رؤية وجه زوجته وهو مغطى بالخمار ليعرف أن ما مضى كان مجرد حلم.

حدث له نفس الشئ الآن عند نظره إلى السمينة. لكن الكوابيس تطارده فى الآونة الأخيرة حتى وهو مستيقظ، ولكى يفر منها كان يضع نفسه

بحركات خرقاء داخل الدثار ويلجأ إلى المطبخ . ويمجرد أن يصل إلى هناك كان دفء " لانتونيا " يطغى على برودة المطبوعات وبرودة " كراسكو " وبرودة أخته " إيلينا " . وكان يسأل :

- ألم يمرّ ساعى البريد، يا " ديس " ؟

- مرّ منذ قليل .

- ولا شئ، يا بنتى ؟

- لا شئ .

كان يجلس على الكرسي وسرعان ما تبدأ قرقرة الجذوات فى قهر تحجره الداخلى شيئاً فشيئاً . كان يغمض عينيه كما لو كان ينهش رفات الستين عاما الأخيرة من حياته :

- " لانتونيا " لم تكن سيئة، يا بنتى . كثيراً ما كانت تقول لى : «الكليتان توجعانى ، يا وسيم الوجه» .

- أكانت جريئة لهذا الحدّ تقول لك يا وسيم الوجه .

كان العجور ينهرها :

- وهل فى ذلك شئ يا " ديس " . لم أكن سوى طفل وقتها . وكنت أسألها : « أين توجد الكليتان ، يا " أنتونيا " ؟ » . فتفك أزرار فتحة الفستان وتكشف لى مكانهما . كانت " لاديس " ترفع قبضتها إلى فمها وتهز رأسها مرارا كما لو كانت توبخ طفلا :

- هيا ، يحتاج هذا لشجاعة كافية .

- لماذا، يا بنتى ؟ - كان العجور يسأل مستقصيا .

- مرّة ثانية ! (بقى لك عين تسأل ؟) - كانت الفتاة تقطع الحديث .

حقيقة أن العجوز استطاع بفضل "لأنتونيا" إنقاذ سنوات خمس من طفولته. زوج أخته كان يدعى "أليخو" وكان هو يناديه بكلمة يا عم. كان للعم "أليخو" جسد عملاق وذراعا قزم وفي كل مرة يرجع فيها مخمورا كان يحمل هدية لأخته، لكنها كانت تخرج إلى باب المخدع ملوحة بصليب وتقول بصوت جنائزى وكأنها تطرد روحا شريرة: «ابتعد عني، أيها الشيطان». عندئذ كان العم "أليخو" يذهب، في وداعة، إلى حجرة الصبي ويخلع ملابسه على ضوء الدهليز حتى لا يرى الصبي، لو كان ساهرا، عورته. وبالرغم من ذلك، ففي بعض الليالي كان الصبي يميز، في الظل، عورته وذراعيه الصغيرين وكأنهما بلا مفاصل عند المرفق وشعره الكث، وعندما يطفئ النور ويسمع عمه يحدث نفسه ويكي أحيانا كان يمتلكه رعب مخيف وكره ويحن إلى "لأنتونيا".

في المساء، تحت الضوء المترنح لمصباح المطبخ الغازي، كانت "لأنتونيا" تحضر سلّة الملابس وتقول له: «أدخل الخيط في الإبرة، يا وسيم الوجه، فلم يعد النظر يسعني». فتلمع عينا الطفل "إلوى": «بخيط أحمر، يا أنتونيا!». فتهز كتفيها القويين وتبتسم: «بخيط أحمر؛ لنزعه بعد ذلك وضع خيطا أبيضاً بدلا منه، إنه لحياكة ملابس الداخلية». وهناك، وهو جالس إلى جوار "لأنتونيا"، كان يستمع لحكاياتها الكثيرة أو يتحدثان عن مشاكل أخته وزوجها. كان الصبي يقول لها أحيانا: «بالليل خرجت أختي بالصليب مرة أخرى». فترد عليه: «هذه هي الحكاية التي لا تنتهى أبدا». أضاف الصبي في إحدى المرات: «بالليل أتى العم "أليخو" لينام معي وعندما أطفأ النور ظل وقتا طويلا يحدث نفسه». تركت "لأنتونيا" الحياكة ورمته بعينها: «وماذا كان يقول، يا وسيم الوجه، ماذا كان يقول؟». أجاب الصبي: «كان يقول: مع هذه المرأة الواحد...». أشارت "لأنتونيا" على نفسها بعلامة الصليب: «يالله

من هذا الهواء! لا تذكر لأختك كلمة من هذا، أسمعت؟». «نعم، يا "أنتونيا"». «إنها معصية». «نعم، يا "أنتونيا"». «لكنها معصية مغلظة، أيها الصغير. أنت نفسك يجب أن تعترف بها غدا لتكرارك لها الآن». «لقد قلت ما قلت لأنك سألتيني، يا "أنتونيا"». «لا يهم؛ عليك بالاعتراف غدا». «حسنا، يا "أنتونيا"».

بعد عدة أشهر، ذهب كل هذا مع الريح، والعجوز، الذى كان لا يزال صبيًا وقتها، وجد نفسه مضطرا لتغيير مصدر الدفء والحنان. لقد ذهبت أخته إلى "بلباو" لتعمل مديرة منزل، ثم رحلت بعد ذلك إلى دير صديقتها "إيروينا"، وكان هذا ما تمتته دائماً. أما زوج أخته فقد هاجر إلى نزويلا بينما ذهبت "لأنتونيا" لتعمل عند السيدة "إيمليا" حاضنة أطفال.

لاحظت "لاديس" أن العجوز، الجالس على الكرسي المستدير، ينطح الهواء برأسه. قالت فجأة:

- (حتنام، واللا إيه؟).

فزع العجوز "إلوى":

- لا عليك، يا بنتى.

لمست أنفها لمسة خفيفة:

- سيدى، المنديل.

تنظف بحركة آلية.

- هيا، احكى لى شيئاً. تبدو وكأنك فى مأتم - قالت الفتاة.

- وما الذى تريد أن أحكيه لك، يا بنتى؟

وضعت "لاديس" يديها على خاصرتها وهى تبسم:

- حكاية "إمابو"، يا سيدى - أجابت دون تردد.

دون الخوض فى التفصيلات، فقد عاملتها "لامارنى" كأخت لها وعندما كتبت لها من القرية أجابتها الأخرى بمجرد وصول الخطاب، وبعد ذلك، لم تكذ تخبرها بموعد وصولها حتى خرجت لتنتظرها على محطة الاتوبيس، وبعد ذلك أيضاً، أخذتها من يدها -كما يقولون- وظافت بها أرجاء المدينة لكي تعلمها التصرف كما ينبغي. فى أعماقها، كانت "لاديس" توقّر صديقتها؛ كانت معجبة بشدة ببياض بشرتها؛ بعينها الزرقاوين الفاترتين الخاليتين من التعبير؛ بعدم خجلها من المجندين الجدد الذين يلاحقونها؛ بطبعها المتشيطن والمتقلب؛ بطريقتها فى المطالبة عندما يكون لها حق؛ حتى بقدميها المفلطحين اللذين يعذبانها أثناء جولات الأحاد التى لا تنتهى ويجبرانها، فى نهاية المطاف، على الجلوس فوق مقعد أو على حافة الرصيف ولو كن فى شهر ديسمبر.

عادات "لامارنى" المتحضرة غسرت "لاديس" -المعتادة على البشرة الصفراء الضاربة إلى الخضرة التى لوحتها الشمس وعلى ترويع الذباب بلطمات قاسية وعلى الصباح للمطالبة بما يخصها -بالدهشة، فى البداية، وبالإعجاب بعد ذلك.

لكن، بالرغم من كل هذا، ظلت القرية فى دمها، ولذا فإنها كانت أحيانا تقول وهى منبهة:

- أماء، تصورى لو أن هذا الميدان انتقل لقريتى وشاهده الناس هناك! بالرغم من أن قريتها لا تكاد تبعد سبعة فراسخ عن المدينة الإقليمية إلا أنها

كانت تتخيلها مكانا مبهما وفى غاية البعد؛ ومع ذلك، كانت القرية بالنسبة لها المَحَكَّ الذى لا فكاك منه. كانت "لامارنى" تنهرها:

- إنسِ القرية (بَقَه)؛ (هوه مفيش) فى الدنيا غيرها!

لكن "لاديس" لم تكن تستطيع الفكاك من صورة قريتها؛ فقد كانت أقوى من رغبتها؛ بل أقوى منها ذاتها:

- تخيلى لو أن هذه السينما كانت فى قريتى بدلا من مكانها هنا.

وتحت الثقل الباهظ لجبرأتها كانت تحكُّ إصبعها السَّابَّة فى الأوسط محدثة رنينا وتضحك متخيلة وجه "البيكاثا" الذى لم يصل لأبعد من حدود "ثيريثيا"، و"ماتيلدى" و"دون خيرونيمو"، القسيس، و"لاكايا"، زوجة أبيها و"سليينا"، أختها، و"فيديو" ووجه الجميع إذا وقع هذا الشئ الذى تتخيله. لم تكن "لامارنى" تكف عن كلماتها القميئة. وتظهر دائما تشدها مع العجوز: «هيا، لو قلت لأحد أن العم البخیل هذا يستخدمك نظير مائتى بيزيطة فلن يصدق». كانت "لاديس" تسكت، أو، على الأكثر، تعلق دون حماس: «(شوفى) يا "مارنى"، هذا الأمر يخصنى؛ (وما فيش حد) له عندى حاجة». فى تلك الحالات، كانت "لامارنى" تُصعّد الأمور: «قولى له على الأقل يشتري لك ثيابا، أن (يدعيس) فى جيبيه». كانت "لاديس" تتحمل فى صمت كلمات صديقتها المصوبة كالطلقات نحوها لأنها كانت تعرف أن العجوز لا يفيض منه شئ ولم تكن تريد أن تعترضه. وبالرغم من ذلك، فقد طلبت منه ثيابا منذ ستة أشهر لأن الدثَّارين اللذين أحضرتهما معها من القرية كانا يستحقان أن يُقدِّما صدقة لمسكين وفوقهما خمسة ملليمات، واشترى لها العجوز مئزرا ووعدها بشراء فستان وخُفَّين بفلوس المنحة. لكن المنحة وصلت ولم يقدم العجوز تفسيرا. كانت الفتاة تحسّ بأن الوقت، بعد الإحالة إلى

المعاش، ليس مناسباً. قبل هذا بليتين ضبطت العجوز وهو ينتزع مصباحي الصالة والمرحاض من مكانهما. ارتبك العجوز عندما رآها وقال من فوق الكرسي الذي كان عليه: «ما نفعله هنا في النور يمكن فعله في الظلام، أليس كذلك، يا بنتي؟».

قام بعد ذلك بتفريج همه في آلة التصوير. بعد عشرين يوماً من إحالته إلى المعاش، وجدته "لاديس" في الصالة وقد قلب كل شيء فيها رأساً على عقب.

اعتاد قبل ذلك على تمضية الأحاد المشمسة في الشرفة وأخذ لقطات (على الفاضي والمليان) بآلة التصوير الفارغة لكنه لم يعتد إقحام نفسه داخل البيت. عندما رأى الفتاة توسل إليها حتى تجلس على الكنب وتظل بلا حراك لعدة ثوان لأنه سيلتقط لها صورة نادرة. تركت "لاديس" المقشة وأخذت مكانها على الكنب وهي مشدودة للغاية ثم سألته بابتسامة مصطنعة بينما كانت تنظر شزراً إلى الآلة:

- جد هذا أم هزل، يا سيدى؟

وَأَرَبَ شَيْشِ النافذة لكي يدخل شعاع الضوء.

- طبعاً هزل، يا بنتى، ثمن الفيلم اليوم يقدر بثورة.

قالت:

- لو تصنع في معروفا ذات يوم وتلتقط لى واحدة حقيقية.

كانت "لاديس" تحلم بإرسال صورة إلى "سلينا" لكي تقوم بإيصالها إلى "البيكانا". بالرغم من عدم موافقة "لامارثي" على هذه الفكرة، إلا أن ما يُقال عن "البيكانا" وعلاقته الجديدة بـ "ماتيلدى" قد أفقدها صوابها. وعندما تنفرد بنفسها لم تكن تفكر في شيء آخر. كانت إذا رأت

السماء تُشَقُّ، ذات ليلة، عن نجمة مُدَيَّلة، تهتف فى سرِّها بحماس بالغ: «ليحبنى "البيكاثا"، ليحبنى "البيكاثا"!». فقد علِّمَوها منذ أن كانت طفلة بأن من يعبِّر عن أمنية فى تلك اللحظة يتحقَّق له دائما ما يريد، وحب "البيكاثا" لها يعتبر حلمها القديم. لكن "لاسليينا"، أختها وزوجة "الأوترويو"، قد كتبت لها مؤخراً: «أعرفك بأن "البيكاثا" و"ماتيلدى" من الصيف وهما فى غاية الانسجام». ولذلك فإن "لاديس" وهى لاتزال توكل النجوم الشاردة نجواها، كانت تتمتم دائما، بمجرد أن تُنهى النجوم مشوارها فى السماء، وعيناها غائمتان قليلا: «أماء، ياله من رجل وغدا!». حقيقة، أنه فيما عدا مهرجان "لوس كيتوس" واحتفالات عذراء "لاجيَّا" ويوم "سانتا أجيدا" الذى تأمر فيه النساء، لم تكن "لاديس" تحن إلى القرية. ولم يكن يؤلمها بُعاد "البيكاثا" أيضاً. "البيكاثا" عند استحضاره على البعد، كان مَجْمَعاً للفضائل. فلم يكن، عند تذكِّره فى المدينة، تفوح منه رائحة الاصطبل، ولم يكن يمشى وكأنه يُجر، ولم تكن ساقاه منفرجتين مثل قوس، ولا عيناها متحدتان.

بمعنى أنه كلما تأقلمت "لاديس" مع المدينة كلما طفا على مخيلتها "بيكاثا" متحضر ومُرَقَّ، مشابه، إلى حد ما، للأبطال الذين كانت تعجب بهم فى السينما مساءً بعد آخر.

لم تكن "لاديس" تكثر من الذهاب إلى السينما حتى لا تبدد راتبها. «إذا دخلنا السينما كل يوم، فعلى الراتب السلام»، كانت تقول لصديقتها "لامارثى". وعندئذ توبخها صديقتها: «يا بخيلة؛ ما فائدة النقود إذن!». لكن النقود بالنسبة لـ "لاديس" كانت فعلاً ذات فائدة. ففى سنتين ونصف فقط اشترت بياضتين للسريِر، فوطيتين، ثلاث ملءات، مفرشا أرقا وحقيبة لتحفظ فيها متاعها. ومن جهة أخرى فهى تريد أن تشتري قميصا وسترة من الصوف المشغول لأن "لاسليينا" كتبت لها قائلة: «أعرفك بأنه

فى فبراير على الأكثر، سيذهب "البيكانا" إلى المدينة لأداء الخدمة العسكرية». كانت الطلبات كثيرة، ولذا فإنها كانت تفضل التجول فى الشارع جيئةً وذهاباً، متأبطة ذراع "لامارنى"، تشدُّ من أزرها فكرة الإبقاء على الراتب من أجل أشياء أكثر فائدة. ومن جهة أخرى، كان للتجوال فى الشارع بواعثه وأسبابه. فالمُجنَّدون يُستبدلون كل عام وقد كانت معجبة بالعسكريين، بمشيتهم المتأنية ذات الإيقاع. كانت تفضل، وإن لم تُعرب عن ذلك صراحة، جنود سلاح الفرسان لأنهم يذكرونها، على نحو ما، بـ"البيكانا". لم تكن الفتاة تعنى بتحليل الأسباب، ولو فعلت لتوصلت إلى أن وجه الشبه بينهما يكمن فى رائحة الاصطبل التى تنبعث من كليهما. كانت "لامارنى" على عكسها، تفضل جنود سلاح المشاة، ربما لأن تجاوزهم حدودهم -خاصة إذا كانوا قد تدربوا على يد العريف "أرخيميرو" -كان يسعدها سعادة بالغة. وعلى خلاف هذا، لم تكن "لاديس" تغفر أدنى تجرؤ لا من جنود سلاح الفرسان ولا من جنود سلاح المشاة: «إلمس مرة أخرى، يا منيع القذارة، وسأطعمك لظمة لن يتعرف عليك أحد بعدها ولا حتى أمك»، كانت تقول عند اللزوم وعيناها خارج محجريهما.

كانت الفتاة تؤمن بفكرة مُلحّة عن العفة وتدافع عنها بكل ما أوتيت من شجاعة. ولم تكن هذه الفكرة نابعة، تماماً، من أساس ديني لأن صاحبته لم يكن يعيش فى عقلها الصغير سوى معتقدات بدائية. فبالنسبة لها، كانت عذراء "لاجياً"، قديسة قريتها، أعظم شئ فى هذا الوجود. عند نومها واستيقاظها، كانت الفتاة ترفع قبضتها إلى فمها وتطلق سلسلة من القبلات نحو الصورة المعلقة فوق رأس سريرها، ثم تتمتم فى خشوع: «مع الله أنام، مع الله أستيقظ، مع عذراء "لاجياً" والروح القدس».

كانت هذه الأسماء تشكل جَلَبَةً غامضة داخل عقلها . فهي لم تذهب إلى المدرسة إلا قليلا وعندما توقّت والدتها حجزتها الأشغال فى البيت . ومن جهة ثانية ، فإن "لاكايا" ، زوجة أبيها ، لم تهتم بتأصيل مشاعرها الدينية . فى القرية كانت توجد حالات أخرى كثيرة مشابهة . ودون الحاجة إلى الرجوع بالذاكرة كثيراً إلى السوراء لازالت الفتاة تذكر العام الذى حاول فيه دون "خيرونيمو" ، القسيس ، تحديث عيد "سان روكيه" وجمع لهذا الغرض دستتين من الصبية فى الجوقة .

كانت سيقان الأولاد تتدلى من بين القبضان وتبتسم أفواههم ابتسامات مترقبة . وسألهم القيس بمجرد وصوله : «من هو "سان روكيه" المبارك ؟» .

ارتفعت بالتدريج أربعة وعشرون صوتاً ندياً : «أواه ، سان روكيه" يا مبارك يا من اختارك الربّ زوجاً لأمه!» . اشتّاط دون خير ونيمو غضباً ، بدأ يُخزّن زبداً فى شذقيه وطردهم من الكنيسة وبعدها ألقع عن الاحتفال بسان روكيه . حدث هذا عندما أطلّت الخصومة برأسها بين "دون خير ونيمو" و"دون فيديل" المُعلّم ، الذى كان يدير بالاضافة إلى وظيفته مصنعا للطوب اللّبن خارج القرية . لم يكن الصراع يتجاوز الطابع الشخصى حتى عثر القسيس على الصبية وهم يغنون فى الشوارع الموحلة :

أبونا قدح بغطاء قصدير ،
بيّض الله وجوهنا يوم النشور .
من بين بضعة شجيرات للزيتون
تمرق حمامة بيضاء
أنصع بياضاً من البللور .

فى اليوم التالى انتقل القسيس الى المدينة لكى يخبر الأسقف بسخرية المعلم من أشد الاشياء قداسة تدخلت فيما بعد لجنة التفتيش وبالرغم من عدم استطاعتها تقديم دليل ملموس ضد المعلم الذى احتج قائلاً بأن الصبيان إذا لم يكونوا قادرين على فهم الاشياء الطبيعية فلنا أن نتصور مدى تخبطهم عندما يتعلق الامر بتفسير ما وراء الطبيعة إلا أن "دون فيديل" لجأ فى نهاية المطاف إلى طلب التقاعد المؤقت لمدة تزيد عن عام وتقلّ عن عشرة والى تكريس جهوده لمصنع القرميد. علّق "دون خيرونيمو" على ذلك قائلاً بأن المعلم «يغزل بخيط رفيع جداً» ومن يومها بدأ أهل القرية ينادون المعلم بكلمة "دون فيديو" بدلاً من "دون فيديل". *

بعد ذلك بضع سنوات استفحلت الخصومة بين الإثنين عندما حدثت واقعة الجراج .

كان القسيس يقول أنه من غير المُتصوّر أن يتعاون رجل مع قوى الشر صراحة. ردّ عليه دون فيديل الذى انتفخت أوداجه بأنه يبيع طوباً ولا شئ أكثر وأن على عمله العفّاء لو كان عليه فى كل مرة يشترون منه عربة طوب التّحرّى عما إذا كان هذا الطوب سيبنى به مرحاض أو كشك. بدأ دون خير ونيمو فى الصباح وبما أنه كان ضخم الجثة وله يدان هائلتان فإن دون فيديو لم يكن يُوفّق فى مجادلته ويكتفى بترديد كلمات شكلية : «حسناً ، إيه؟ دون بصق» وعلى هذا المنوال كانت الأمور تمضى بين الإثنين حتى قدمت "لاديس" إلى المدينة .

* الإسم الحقيقى للمعلم هو "فيديل" ، وهو إسم علم فى الأسبانية. لكن بعد اتهامه أمام لجنة التفتيش الدينية بالسخرية من المقدسات واستطاعته الخروج من التهمة بذكاء ، وقول القسيس عنه أنه «يغزل بخيط رفيع جداً» (كناية عن سخريته الذكية وعدم القدرة فى ذات الوقت على إدراكه) غيّر أهل القرية إسمه بما يتناسب وعبارة القسيس وحلوه إلى "فيديو" . وهذه الكلمة تعنى: الشّعريّة الرفيعة جداً- المترجم.

بغض النظر عما تقدم ذكره ، فإن الفتاة ظلت تخلط في عقلها الصغيرين مفاهيم مختلفة بالرغم من وجود قاسم مشترك بينها «الله سان روكيه ، عذراء لاجياً الروح القدس كانت أفكار لاديس الدينية تظهر واضحة في نقطتين لا ثالث لهما : الجنة التي تنتظر من كانوا أختياراً في الدنيا ويصلون كل ليلة بلا انقطاع : «مع الله أنام مع الله أستيقظ . . .» وتُشبهها (أى الجنة) بسماء زرقاء صافية ، مثل مفروش سريرها ، تجوبها بعض السحب التي يمتطيها الموعدون ، وجهنم بضوء من لهب والذي يخترن عقلها صورة حيّة له : حريق مخازن الغلال بالقرية والذي حدث في أغسطس عام ١٩٤٥ . نار شاسعة تحترق فيها ، دون أن تفنى أجساد الكافرين وكل أولئك الذين دون أن يصلوا الحد الكفر قد أغفلوا تهاونا الصلاة ذات ليلة عند النوم أو ذات صباح عند الاستيقاظ ولم يقولوا «مع الله أنام ، مع الله أستيقظ . . .» .

ومن هنا فإن "لاديس" حتى في الأيام الأشد عناء كانت توجّه كل ليلة عينيها المسطحتين إلى عذراء لاجياً وتتمتم في خشوع «مع الله أنام ، مع الله أستيقظ مع عذراء لاجياً والروح القدس» . أغلفت الفتاة صلاتها مرة واحدة فقط أثناء مرضها بالأنفلونزا واستيقظت فزعة في الثالثة صباحاً وهي تتعجب .

ألقت بنفسها من على السرير وصلت ، لكن الشك عَشَّش في صدرها لأن اليوم كان قد انتهى في الثانية عشرة مساءً ولم يهدأ لها بال إلا بعد أن أكّد لها العجوز أن ذلك في عُرف رجال الفلك والعلماء ، أما بالنسبة لبقية البشر فإن الشمس هي التي تفتتح اليوم الجديد .

في البداية أربكتها المدينة وحدث لها شيء مماثل مع غرفة نومها لكنها اعتادت على المدينة بالتدريج وأصبحت غرفة نومها أعز ما تملك وأقرب الأشياء إلى نفسها . هناك في القرية لم يكن لديها أبداً شيء خاص بها ولذا

فإن ترتيب حاجياتها وامتلاك غرفة بائسة أيقظ في صدرها الآن حماسا منقطع النظير لم يعد يهم أن يكون المكان بنافذته العلويتين الصغيرتين والمطوّقتين بشبكة معدنية و ببعض القضبان المتداخلة ضيقا ومعتما فقد كان يترأى للفتاة مضيئا للغاية حتى أنها استطاعت أن تُضفى عليه سمتها الشخصي «ولو كان هذا على حساب نقودها» كما كانت تقول لصديقتها "لامارثي" عندما كانت هذه تعترف بشئ من التحفظ أن المكان لا ينقصه شئ.

هداها تفكيرها لوضع لوح من الخشب على شكل رف بجانب حوض الغسيل المثلوم واشترت بنصف بيزيتة شريطا من اللّزق الشفاف لتثبيت صورة عذراء " لاجيا " فوق رأس السرير وعلى الكومودينو ، الذي أكلته القرّضة ، وضعت القوقعة الحجرية التي وجدتْها وهي طفلة في الصحراء والتي قال عنها " دون فيديو " أنها إحدى الحفريات كما وضعت المشابك ذات الرؤوس الملونة والصورة التي يرجع تاريخها لأعياد ١٩٥٠ ويظهر فيها مطموس المعالم البيكاثا في جانب وأخت "لاديسي" "لا سليينا" إلى جانب "الاورويو" و"الدلفين" الابن الأكبر لصاحب دكان التبغ والذي كان قد تقدم لخطبة " ماتيلدي "

في البداية كان تُخفي هذه الصورة مع بعض أشياء تخصها في صندوق صغير من الخشب غطاؤه مطلى بالورنيش ويحتوى على مرآة في ظهر الغطاء لكنها أخذت تستخدم بعد ذلك هذا الصندوق الذي كانت تُعلق مفتاحه الصغير في دوبارة حمراء تتدلى حول عنقها في حفظ خطابات لاسليينا التي أرسلت لها "لامارثي" على القرية منذ شهور مضت صورة فورية لعمل بطاقة شخصية ومعها قصاصة من صحيفة يومية صدرت العام الماضي تتحدث عن حادث سيارة وورد فيها إسم قريتها و "دون خيرونيمو" ، القسيس ، و "دون أوليانو" و "دون فيديريكو" ، الطبيب، بالرغم من أن الجريدة أطلقت عليه ، خطأ، إسم " دون فرانيسكو " .

لكن "لاديسى" كانت تُولى التسريحة اهتماما أكبر. فنتيجة لنصيحة "لامارثى" التى عاملتها بالرغم من حدة طبعها كأخت لها ، ولموافقة الفتيات اللاتى كنّ يجتمعن بها الساعة السابعة من أيام الأحاد أثناء قدّاس " سان بدرو" اقتنت " لاديس" علبة كريم صغيرة ماركّة بيا أورا" للاعتناء ببشرتها وكل ليلة قبل صلاة «مع الله أنام ، مع الله أستقيظ . . .» كانت تضع فوق وجهها لحسة من الكريم فى حجم حبة الحمص. كانت الفتاة تنتظر معجزة فى البداية قالت لها " لامارثى " «إنها الوسيلة المضمونة لتطليق القرية». وكانت تنتظر بفارغ الصبر تحوّل بشرتها، وكل خميس وكل أحد كانت تسأل صديقتها بنظرة قصيرة حاملة : "مارثى" هل طَلَقْتُ القرية الآن ؟

كانت " لامارثى " تتسم بفضاظة فطرية لم يخفف من وقعها الاحتكاك بالمجندين الجدد لسلاح المشاة ولا معاكسات العرّيف أرخيمىرو" ردّت :
- على مهلك ، يا حلوة : (إنت مُشْ مستعجلة شوية)

على الرّف ، بجوار علبة الكريم «بيا أورا» ، وضعت "لاديسى" أحمر شفاه، نصف دسّة من بنّسات الشعر، كيسا يحتوى على مسحوق البودرة، علبة ورنيش صغيرة وقطعة صابون ذات رائحة نفّاذة .

كل عالمها كان موجودا بتلك الحجرة وإذا أحسّت ذات يوم لاي سبب من الأسباب باليأس يهدد روحها أو بأن قديمها لا تحمّلانها فإنها كانت تحبس نفسها هناك وتنهمك فى ترتيب الرّف أو الصندوق الخشبى الصغير وهكذا تبدأ شيئا فشيئا فى استرداد سكينتها وإذا أحسّت كذلك بشئ ما يملك عليها نفسها أو مفعمة بحافز ما ، فإنها كانت تتناول من على الكوميدينو صورة أعياد ١٩٥٠ وتأملها فى ثبات ، فى إلحاح ، إلى أن تبدأ الشخصيات أخيرا فى التحرك ويتسم لها " البيكاثا" أو يغمز لها بعينه. فى تلك الحالات كان وجه الفتاة الخشن يلين ، تتسع فتحتا أنفها ، ترتعش قليلا شفتها السفلى المتشققة ، وعيناها المعتمتان الكايتان عادة كانتا تتألقان ببريق دمة .

اعتاد "بولدوبومبو" ، الرجل الرياضى ، أن يسأل فى لحظات وجْد رومانسية : «من من الأربعة سيعيش أكثر؟» أيامها كان يتدرّب بكرات الجمباز التى اخترعها الدكتور " ساندون " وأوصت بها المراكز الطبية الشهيرة لكل من يريد تقوية عضلاته ولم يكن يشك وقتها أنه الأطول عمرا بينهم. لكن تُقَدَّرُون وتضحك الأقدار؛ لقد مات "بولدو بومبو" بداء السل فى ٨ فبراير ١٩٢٩ بالرغم من كُرّات الدكتور "ساندون" وبالرغم مما حققه من مآثر على الدراجة.

فى الطريق إلى محطة التنقية ، ذكّر العجوز "إلوى" صديقه عيسى بهذا. لوح عيسى بالعكاز الخفيف وقال أثناء توقّفه:

- أفضل ما أذكره لـ "بومبو" تلك المرّة التى أهدى فيها بيغاء طويل اللسان لأختى "لوبي" فقد كانت تمر بأزمة وأعانتها هدية بومبو" على تجاوزها.

تنهد العجوز "إلوى" بعمق مرّر المنديل بسرعة على طرف أنفه. فى الفترة الأخيرة كان عيسى يتهرب منه دائما؛ لم يكن يوفّق فى حصاره داخل ملعبه . كان صديقه ظاهرة عجيبة . من مدة لم يعد يشغل فكره سوى الوصول إلى المائة، الشمس الفتيات، وعلى وجه الخصوص بطنه الكسول. كثيرا ما ناشده العجوز "إلوى" بالتغوّط فى الخلاء لكنه كان يقاوم بشدة. كان العجوز "إلوى" يقول «فى الربيع والصيف ينصلح حالى وأمشى كالساعة». وعندئذ يَحْتِجّ عليه عيسى: «هذا يتوقف على طبيعة الشخصية (شوف) "أجوادو" كان يتعرض لتيار الهواء وهو يراجع الملفات القديمة . يظن أن ذلك راجع للتراب الذى يستنشقه لكن فَتَش أنت عن السبب!»

لقد عانى عيسى منذ الطفولة من عدم انتظام عملية التغوط وكانت أخته "لوبي" تقول أنها لا تزال تذكر والدته وهى تضع له نقط الزيت بصفة شبه مستمرة وأنها كانت تبكى لتصورها أن هذا يمكن أن يلحق به الضرر. من جهته كان عيسى يُبرِّء ساحته مؤكداً بأن أخواته كنَّ سبب عزوبته وأن تصرفه فى النهاية لا يتسم بأى ضرب من ضروب البطولة لأنهن عزفن أيضاً عن الزواج من أجل تربيته. ومع ذلك ففى النادى حيث لا يخفى شئ كانوا يؤكدون على أن أويا "الصغرى لم تسنح لها الفرصة أبداً على حين أن "لوبي" كانت متهاكة منذ صباها على "بولدو بومبو" لكنه فيما عدا هدية البيغاء لم يقدم لها بارقة أمل. كما كانت معروفة كذلك فضيحة الحارس الذى لم يصنع فيهما معروفاً. مضى زمن كان يشكل فيه "بولدو بومبو" و"يبين باثكيث"، الذى رحل دون انتظار فى الردهة، وعيسى والعجور "إلوى" مجموعة مترابطة ومتماسكة. حدث هذا خلال المدة التى وصل فيها المواطن النزيه والعفيف "دون نيكوميدس" فرنادث بينيا "إلى منصب العمودية والذى نُقِّد فى عهده مشروع المجارى العملاق وسفلته الميدان والشوارع الرئيسية كان ذلك الزمن هو زمن أيام الرخاء والذى حلَّت فيه الإضاءة الكهربائية محل الإضاءة بالكيروسين وقد أقامت البلدية من أجل الاحتفال بالحدث السعيد معرضاً رائعاً للزراعة والصناعة والتجارة والفن لَفَّت أنظار العالم أجمع. كانت أصداء الاحتفال المهيب لا تزال عالقة بالأذهان عندما أخذ فخامة السيد "دون نيكوميدس" فرنادث بينيا "برداً وهو يزيح الستار عن تمثال كولمبس تحت وابل من الأمطار وسرعان ما تحوّل البرد إلى التهاب رئوى لم تُقد معه وسائل العلم الحديثة ومات بعده بأربعة أيام. أبرزت الصحيفة المحلية المُصاب الحُلل بإيجاز شجى "دون نيكوميدس" فرنادث بينيا عمدة المدينة مات وهو يؤدى واجبه أسكنه الله فسيح جنته».

فى تلك الأيام كان العجوز "إلوى" قد تسلّم عمله فى البلدية وخلالها بدأت ساق العم "إرمنس"، حنانه الثانى، تتعبه. كان العم "إرمنس" يقول للفتى "إلوى" ان اهتمامه بمشاكل البلدية ينحدر عن أسلافه. كان العم "إرمنس" رجلاً نباتياً ذا مهارة فائقة فى ابتداع الفكاهات والدفاع عن قضايا خاسرة. لكنه كان شديد الاستقلالية ويفضل عدم الزج بنفسه فى متاهات وإذا كان يتسلى بأوراق اللعب وعرضت عليه أية قضية فإنه كان يتهرب منها متعللاً بكثرة مشاغله. من حين لآخر كان العم "إرمنس" يقرأ عليه الخطابات التى وجهها والده إلى الصحيفة اليومية مطالباً بمزيد من التحضّر وعند الفراغ من قراءتها كان يفعل ما لا بد منه وهو التأكيد بأن تلك الخطابات يمكن أن يكون كاتبها ثرثانتس لكن إلوى نونيث هو الذى سطرها لأن الحياة هكذا متقلّبة وغريبة الاطوار.

أمام محطة التنقية دار العجوز "إلوى" حول نفسه مرتين باحثاً عن وجه الشمس وقال لعيسى بعد ان مرّر المنديل بنعومة على طرف أنفه :

- عمى "إرمنس" كان رجلاً رطب الصدر، هذا هو النعت المناسب له قلت له ذات يوم أننى لا أريد الذهاب إلى المدرسة، أتعرف بماذا ردّ على؟

صوّب اليه عيسى ابتسامته الوردية

- ماذا ؟ سأل مستقصياً

- قال لى «افعل ما يحلو لك، الحياة قصيرة وإذا جعلناها مريرة بإجبار بعضنا البعض على فعل ما لا يحب فلا تستحق أن تُعاش» ولهذا السبب عملت فى البلدية.

العجولات اليومية للعجوز "إلوى" وصديقه عيسى يرجع تاريخها إلى ١٩٢٩ وهو نفس العام الذى توفى فيه "بولدو بومبو" الرجل الرياضى. قبل هذا التاريخ كانت تربطهما علاقة حميمة لكنها غير متواصلة. انتظمت

علاقتهما ابتداء من ٩ فبراير ١٩٢٩ وكان الاثنان يتواجدان فى تمام الرابعة مساءً تحت البواكى بجوار مكتبة "أفروديسيو نينو". قبل خمسة وعشرين عاما كانا يمشيان دون حساب للمسافة ويتحدثان بحماس شبابى. لكن الحماس أخذ فى التراجع رويدا رويدا، ومع الحماس حب الثروة، ومع حب الثروة طول المسافة. ابتداء من ١٩٥٥ ، نادرا ما كانت مسيرتهما تتجاوز المقابر أو محطة التنقية أو مطعم "جسپارين ماركيز". عند تلك الأماكن كانا يمشيان على مهل وكأنهما مرغمان عليه وكان الحديث يمضى بطيئا وكأنهما مرغمان عليه. كانت علاقتهما تتألف من الصمت والذكريات الدفينة. لقد تربيا معا وترعرا سويا وعاشا نفس الحياة وفى نهاية الأعوام الطوال لم يعد يحس أحدهما بقدرته على إثارة دهشة الآخر. كان من الضروري الوصول إلى الشيخوخة حتى تبدوا لهما الاشياء مدهشة من جديد وجديرة بالحكاية. ومع تعثر الحوار وصل الشقاق. لم يكن عيس يفهمه أو لم يكن يريد فهمه. كان عيسى يرفض صنع حاضره من خلال ماضيه. صحيح أن الزمن قد تغير جذريا لكن هذا لا يبرر إمكانية تغير عيسى معه. كان يرجع العجز "إلى" تشبث عيسى بعصر لا ينتسب إليه، عصر يستعصى على المقارنه بعصر شبابه.

فى عصرهما كان العالم أكثر جدية وكانت المشاكل الخطيرة تُناقش دون عجلة، بالجدية المناسبة، ومجلس بلدية "دون نيكوميديس فرناندث بينيا ذاته" اجتمع بكامل هيئته اثنا عشر اجتماعا استثنائيا فى ١٩٠٣ ليقرر سفلتة الميدان وأربعة عشر اجتماعا ليقرر إنشاء شبكة الصرف الصحى، ولم تكن الجدية تنسحب فقط على الهيئات بل شملت الموظفين أيضا. عندما التحق بعمله فى البلدية نادرا ما كان زملاؤه يخصصون أوقات فراغهم للحديث عن النساء والأمور التافهة. فى عصره كانوا يناقشون قرار «كونت دى أليناس» بالمساهمة فى تكوين هيئات المحلفين المختلطة أو مناقشة البطالة العامة فى برشلونة.

كان عيسى نفسه، والذي انتهى وقتها من تأسيس وكالة الاعلانات الخاصة به في شارع "لوس جريموس"، يقول: «الأثر الأول لهيئات المحلفين المختلطة يتمثل في تنظيم العلاقة بين المالك والعامل وتوفير التناغم المطلوب بين العمل ورأس المال». كانت الأمور هكذا وفجأة، لا أحد يعرف لماذا، كيف ولا متى، انقلب كل شيء رأساً على عقب. كان العجوز "إلوى" على وعى تام بما حدث لكنه لم يُوفّق في تحديد أسبابه. كان فكره يتجه إلى الحرب الأهلية لكن الحرب في رأيه ليست مبرراً لكل هذا التحول. كان الشيء الذي لا يختلف عليه اثنان يتمثل في قيام الشبان الحاليون مثل كراسكو بقتل ساعات الصباح في الغمز واللمز على العجائز وإذا لبسوا، على سبيل المصادفة، مسح التأمل والتدبر فمن أجل التأكيد، كما كان يفعل "موروخيل" على أن تذكّر السينما توارى قيمة ثلاث ساعات من عمل الموظف وأن هذا يخلّ بالتوازن بين الدخل والنفقات.

في طريق العودة من عند محطة التنقية ذكّر العجوز "إلوى" صديقه عيسى بنقاشه مع "ببين باثكيث" والذي دافع فيه عن هيئات المحلفين المختلطة وعن موقف كونت دي المانيس "تجاه القضية، لكن عيسى ضرب البلاط بطرف عكّازه ودون أن يمسه عن الابتسام للشمس وللحياة ردّ بجفاء:

- ظل "باتكيث" طوال حياته مريضاً بداء العصب. أتذكر أنه في حالات الاكتئاب كان يتغوط في غدير الحديقة بقصد تسميم الأسماك الملونة.

تعرّف العجوز "إلوى" على عيسى وهو صبي لم يتجاوز السادسة في مدرسة مدام "كاتروكس" الفرنسية. وقتذاك كان عيسى يُضفر شعره وكان زملائه ينادونه:

«إيزابيلا» غير أنه لما يكن يعبأ ويرد عليهم بصوته المائل الى العذوبة:

«إذا كنت طفلة فهذا أفضل لى». فى سن التاسعة قصت لى أختها "لوى" الضفائر لكنها كانت تعطره فازداد الطين بله عندما أصبح مراهقاً لم يكن يكثر بالفتيات وإذا اقترح "بولدو بومبو"، الرجل الرياضى، التسلسل إلى دار الحمامات العامة لمباغنة "لابايتا أوردنيث" وهى متخففة من ملابسها، فإنه كان ينتظرهم جالساً على مقعد فى مكان قريب. وقتها لم يكن "بولدو بومبو" مشهوراً لانه لم يكن قد ذهب بالدراجة بعد إلى "سان سبستيان" على مرحلتين فقط أو إلى مدريد دفعة واحدة دون توقف لمشاهدة حفل تنويح الملك؛ بالرغم من تدريبه آنذاك بكرات الجمباز التى اخترعها الدكتور "ساندون" وأوصت بها المراكز الطبية الشهيرة لتقوية العضلات.

كان "بولدو بومبو" الرجل الرياضى، يعيش تحت وطأة الفكرة المتسلطة للقوة الجسمانية وعندما رجع من مدريد قال وقد علته خيبة الأمل: «باه*، الملك تمثال من الحلوى، أمن أجل هذا كل هذه الجلبة!». أحاط به زملاؤه، مشغولين بالحفل، وسألوا مستفسرين عما إذا كان صحيحاً أن القطارات كانت تعج بالمسافرين الذين شغلوا كل ركن فيها حتى دورات المياه، وأن الحجرة الواحدة كانت تؤجر بثلاثين بيزيتة، وأن أمراء أجنب حضر الحفل وكيف بدت الإضاءة التى اختلط فيها ضوء الكيروسين بضوء الكهرباء المدهش، وأخيراً، ما إذا كان صحيحاً أن جلالته قد تعثر فى السجادة أثناء حلفه لليمين وأن "ماركيز دى لايبجا أرميخو" قد حذره قائلاً: «يا صاحب الجلالة لكل منا عشرة واحدة فى الحياة. ليحرص جلالته على أن تكون هذه هى الأخيرة». لكن "بولدو بومبو" تجاهل كل هذا، علاه التجهّم كما لو كان يحسّ بأنه قد احتيل عليه وأخيراً قال: «لا يحمل شيئاً من معالم الرجولة، صدقوا ما أقول».

* Bah (باه): صيحة احتقار فى الأسبانية- المترجم.

كان عيسى على النقيض تماماً من "بولدو يومبو". لم تفارق الابتسامة عيسى منذ نعومة أظافره. الآن، وهو شيخ، يُظهر عند الابتسام ثلاثة أسنان من الذهب. بالنسبة لـ "ديس"، فقد أطارت الثلاثة أسنان الذهبية للسيد عيسى برجا من عقلها. بعد وصولها إلى المدينة بأيام قليلة قالت للعجور "إلوى": «من على بُعد ميل يرى ما يحمله السيد عيسى هنا»، ثم حركت أصابعها فيما يشبه عدّ الأوراق المالية. قال لها العجور: «يا بنتى، لماذا تفكرين فى هذه الأشياء؟». رفعت الفتاة شفتها العليا كما كانت ترى "دون أولييانو" وهو يفعل مع الجياد لمعرفة أعمارها وأبانت عن أسنان ضاربة إلى الصفرة وغير متساوية: «مرة أخرى -قالت-. لديه ثلاث قطع من الذهب». تركت شفتها وبما أن العجور لم يرد أضافت: «أحسن صنعا. لو عندي رأس مال، لكان أول شئ أفعله هو ملء فمى بالذهب». قالت هذا فيما يشبه التعريض بالعجور "إلوى" لأن طاقم أسنانه الذى يودعه ليلا فى إناء لم يكن به ولا قطعة من المعدن المطلى بالفضة. وبالرغم من هذا فإن طقم أسنان سيدها قد أثار دهشتها أيضاً عند وصولها. فى البداية، كانت "لاديس" تمضى أوقاتها طويلة تتأمل ذلك الجهاز فى ذهول، وكأنها تشاهد معدة فوق مائدة تقوم بعملية الهضم لحسابها الخاص.

أفزعته إمكانية أن يكون ذلك الهيكل الوردى، المُرصّع بقطع الأسنان، من اللحم لكنها تجاسرت ذات صباح ولمسته وعندما تأكدت من صلابتها اعترتها خيبة أمل. اعتاد صديقه عيسى منذ نعومة أظافره على الابتسام المستمر. لهذا السبب، ولصوته العذب ورائحته العطرة وتفضيله لأربطة العنق اللافتة للنظر ولنفوره من دار الحمامات العامة، نال سمعة سيئة. كان صديقه "إلوى" يُفند الشائعات التى تدور فى النادي، إذ أن سلوك عيسى يرجع -طبقاً لرأيه- إلى تربيته بين النساء. لقد حاول جاهداً، قبل عدة سنوات، إخراجه من هذه الدائرة لكن خجل عيسى من

الفتيات كان يزداد كل مرة عن سابقتها. ذات يوم، ودون إخبار أحد، غاب عيسى عن المدينة وعاد بعد أسبوعين ليؤكد أن مدينتهم مثل مدرسة لصغار السن، ومن أراد العبث فعليه ببساريس، ففي هذه المدينة لأتباع الفتيات بل تُهدى، وبنات عُلْب الليل لا يرتدين سوى ورقة صغيرة (ويقول إليه ويحكى إليه) وإذا لَمَحَ أحد أصدقائه إلى فتيات خدمة "الفيجارو" كانت تصدر عن عيسى إيماءة احتقار ويقول: «هذا شئ تافه في باريس». وبالرغم من ارتياب "بولدو بومبو"، الرجل الرياضي، وتعليقه الساخر بأن «عيسى (بتاع) كلام» إلا أنهم بدأوا يحترمونه في النادي وكانوا إذا أرادوا الإشارة إليه لجأوا إلى مطلع القصيدة الذي يقول: «ذو الحياة المستقيمة هذا، إلا أن عقده حلت في باريس...».

كانت "لوثيتا"، امرأة العجوز، تحس تجاه عيسى بنفور شديد، وكثيرا ما سألت زوجها عما يجده في هذا الرجل حتى يتحملة كل يوم. لقد كانت تجهل أن وراء عيسى تتواجد مدام "كاتروكس" والمدرسة الابتدائية؛ وتتواجد "لأنتونيا"، حنانه الأول؛ ويتواجد العم "إرمنس" وإشراقاته العبقريّة و"لاروسينا"، ابنة "لافوينسانتا"، الخادمة القادمة من مرسية؛ وتتواجد "لاباكيثا" أوردونيث وعبثها ودار الحمامات العامة؛ ويتواجد "بيين باثكيث" وكأبته؛ وتتواجد فتيات "الفيجارو" والخناقة مع طلبة المدرسة الحربية؛ وهيئات المحلفين المختلطة، وبمضى الزمن، تواجدت حتى هي و"جويتو" -ابنه الصغير- الذي رحل في الثانية والعشرين دون انتظار في الرّدهة؛ أي تتواجد -باختصار- وراء عيسى حياة بأكملها.

كانت جولات العجوز "إلوى" وصديقه عيسى تنتهي عادة أمام حوائط "سان ألديفونسو" القديمة الرمادية، حيث تلمس الشمس خيوطها الأخيرة. في ذلك المساء كان يجتمع في الميدان الصغير عدد كبير من الصبيان وفتيات ثرائيات في عمر "لاديس". نقر العجوز "إلوى" بإلحاح

على ساعد صديقه ودون أن يلتفت إليه كليةً حتى لا يفقد ملاطفة الشمس
الواهنة قال له :

- الأطول عمرا هو واحد منا نحن الإثنين .

أطبق عيسى جفنيه لحماية عينيه ثم سأل :

- الأطول عمرا؟

- نعم -أضاف العجوز "إلوى" - . كان "بولدو بومبو" يتساءل دائما:
«من من الأربعة سيعيش أكثر؟». ألا تذكر ذلك؟

أسند عيسى ظهره إلى الحائط القديم، وعينه مطبقتان في نشوة وقال :

- "بومبو" . أفضل ما أذكره له تلك المرة التي أهدي فيها ببغاء طويل
اللسان لأختي "لوبي" . كانت تمر بأزمة وأعانتها هدية "بومبو" على
تجاوزها .

اختفى نصف قرص لشمس برتقالية متفتحة هناك ، خلف ربوة عجفاء ،
وهيمن شبلل متنامى على الميدان الذى بقى فى دقائق معدودة مظلماً وبارداً
وصامتاً . كان الجدار الحجري لا يزال يحتفظ ببقية من حرارة عندما فتح
عيسى عينيه وشاهد "إلوى" وهو ينظف ميكانيكيا طرف أنفه بالمنديل .
أبرز عيسى ابتسامته الوردية ، جلد الهواء بعكازه ، ثبَّت القبعة بلمسة من
إصبعه وقال بادئا السير على مهل :

- إمش رويدا رويدا .

فى منتصف شهر نوفمبر، مثل كل عام، نشطت رياح الشمال من عقالها. بعد ساعات قليلة بقى الميدان عاريا وخاليا إلا من بعض العصفير الدورية والعقاعق التى كانت تتحمل نُذر الشتاء فى شجاعة. بدت الأشجار، والرياح تهزها بعنف، وكأنها هياكل ترقص على بساط لامع من الأوراق الصفراء. هدأت الرياح بعد يومين. بدأ يرتفع من النهر ضباب الخريف وغرقت المدينة فى سكون مُكبّل بالأغلال، منذرا بصقيع ديسمبر القارص. لكن الثلج وصل هذا العام قبل الصقيع. جاء متخفيا وراء سحب معدنية رمادية وفى غمضة عين غطى المدينة ورشقتها ببطء وإلحاح يُدْفِه الرقيقة، كاسيا الشوارع والأسقف بالبياض. وعلى خلاف كل التوقعات، استمر الجو هكذا خمسة أيام بلياليهن. انكمشت الحياة فى المدينة الصغيرة على نفسها، مثل حلزون داخل قوقعته، ينتظر ظرفا مواتيا للنهوض من العدم. كان العجوز "إلوى" يستقبل كل صباح، من موقعه على السرير، الصمت الجليدى للشارع. من وقت لآخر كان يرسل سحبات هشة مائلة إلى البياض.

منذ أسبوع وهو ينهض متأخراً كثيراً عن المعتاد. لم يكن المعاش يكفى وأعطى تعليمات لـ "ديس" بعدم استخدام التدفئة حتى اليوم الحادى عشر من الشهر. الآن، وهو قابع فى السرير، يخيل إليه أنه يسمع الترسب اللدن لندف الثلج على الأسفلت. أحس بالبرودة، برودة غير محددة جعلته يرتجف. ولكى يخفف من البرودة كان يخبئ طرف قدمه اليسرى خلف باطن ركبته اليمنى ويغيّر الوضع بعد ذلك. فى النهاية، وبعد أن تعب من هذه اللعبة، أخذ يهرش بقسوة وعناد بطنه من فوق المنطقة حتى أحس بتجمع الدم تحت الجلد. حرك رأسه حركات متشككة:

«يصّرّ خييل على أن الرجل في السبعين لا يعتبر عجوزاً هذه الأيام؛ أعتقد أن هذا مجرد كلام».

منذ عدة أيام قابلة في الميدان، لكن "خييل" مدّ له يدا خائرة ورطبة ثم فتح عينيه العبوسيتين على آخرهما وقال دون أن يتوقف: «معدرة، دون إلوى؛ لأنى على عجلة من أمرى». عندما ابتعد همهم من بين أسنانه: «يا للشياطين، لقد ساءت صحة العجوز في خمسة أسابيع ما يمكن أن تسوء في خمس سنين». ومع ذلك، فقد التفت نحوه، لوّح بيده وصاح: «إبق على ما أنت عليه! لقد أراح المعاش من على كاهلك خمس سنوات على الأقل!».

بينما كان الثلج يتساقط، طافت بذهن العجوز فكرة أن الحياة عبارة عن صالة انتظار، وكما يحدث في صالات الانتظار يوجد في الحياة من يتجول من مكان لآخر لكي يشغل نفسه وينسى أنه ينتظر. الاكتئاب الذي يمكن أن تحدثه في نفسه هذه الأفكار كان يعوّضه الاعتقاد بأنها أفكار نيرة وذكية. لكنه كان إذا تدبّر فيها لبعض الوقت فإنه كان يصل إلى نتيجة مؤلمة مفادها أن تلك الأفكار، سواء كانت ذكية أم لا، لا تناسب من هو في مثل حالته. كان "يبين باثكيث" يؤكد في عام ١٩٣٠ على أن المعاش هو صالة انتظار الموت، ودون الرجوع كثيراً إلى الوراء، فإن "كرأسكو"، زميله في القسم، كان يقول بوقاحة، كل مرة يمر فيها على حوائط "سان إلديفونسو"، أن العجايز والمحكوم عليهم بالإعدام يقتربون من الحوائط لكي يجدوا شيئاً يتكئون عليه لحظة السقوط. وسواء كانت هذه الأفكار تناسب من هو في مثل حالته أم لا، فإنها سرعان ما بدأت تتمدد داخل عقله، ونتيجة لذلك كان العجوز "إلوى" يلقي بنفسه من على السرير وهو يرتجف ثم يرتدى الدثار الذابل ويلجأ إلى المطبخ. وهناك، بجانب "لاديس"، يعتربه وهو يستمع لقرقرة النار العذبة في المكان إحساس مرضٍ بالتوازن.

- ألم يمر ساعى البريد، يا "ديس"؟
- مرّ منذ قليل.
- ولا شئ؟
- لا شئ.
- كان يحرك رأسه ليخفى استياءه:
- حسنا، يا بنتى -كان يضيف-. المهم الصحة.
- ثم يجلس على الكرسي، ملتصقا بالفرن، ويداه المرتعشتان والبنفسجيتان مبسوطتان فوق الصفيح الساخن. أىّ عارض ولو بسيط كان كافٍ لمدّ جسور الاتصال بينهما:
- اللعنة!، لقد اكتويت بالنار.
- كونى حذرة، يا بنتى.
- مرة أخرى! وماذا تريدنى أن أفعل؟
- دهنت "لاديس" إصبعها الملسوع بالزيت والدقيق، ثم أوضحت:
- هناك، فى القرية، ماركوس، أخى النصف شقيق، اكتوت ساقاه ذات مرة أثناء إشعال النيران للاحتفال بذكرى "سان خوان".
- هل لك أخ نصف شقيق، يا بنتى؟
- كان لى. براكسيدس، الثعلب، أخرج أحشاءه بمنزلة خلال فيضان ١٩٥٢.
- يالله! أصحيح هذا؟
- فى غاية الصحة.
- أخبرينى، يا بنتى، كيف حدث هذا؟

أمسكت الفتاة عن العمل برهة. نظرت إلى العجور بهياج واضح، وبما أنها وجدته خائر القوى فقد استأنفت عملها وأضافت متدرة بالصبر:

- الذنب لم يكن ذنب الثعلب وحده، صدقنى. كان النهر قد جرف بقرته و"الماركوس"، الذى كان عبيطاً، لم يكن له من عمل سوى الصياح: «فليسقط المطر، ليسقط المطر، بحق عذراء الشجرا» وعندئذ التقط الثعلب المذراة وقضى عليه فى مكانه. حدث كل هذا فى زمن أقل من الزمن الذى تستغرقه حكايته.

عندما انتهت "لاديس" حركت يدها المصابة فى الهواء:

- اللعنة!

قطب العجور جبهته:

- يؤلمك، يا بتي؟

- (شوف)!" دون فيديريكو" كان يقول: «ليس هناك أسوأ من الحروق الجافة والجروح التى تسببها الأحذية».

- دون فيديريكو؟

- طيب قريتى.

- آه!

فى الخارج، كان الثلج يتساقط بطريقة محزنة. على الأفرع المستنفخة لأشجار المور تشكّل إفريز أبيض. نظر العجور إلى النافذة وارتجف. عقف بعد ذلك ذراعيه فوق بطنه وسأل:

- وهذا الفتى، يا "ديس" ماذا حدث له؟

- أى فتى؟

- المكار، يا بنتى، صاحب المذارة.
- أطلقت الفتاة ضحكة وضربت على فخذيها براحتها:
- أى مكار بحق الشياطين! تقصد الثعلب؟
- هذا، يا بنتى، الثعلب.
- قبضوا عليه، لكنه ليس فتى كما تظن. أراهن على أن سنّه تزيد الآن عن الثلاثين.
- تنهد العجوز. للحظة لم يُدْسمَع فى المطبخ سوى ضجيج الاوانى. كانت نظرة العجوز تهيم قلقة من ركن لآخر. توقفت أخيراً على الفتاة. قال بنعمة شاردة:
- روجتى حرق ذات مرة "جويتو"، ابنى الثانى، بزجاجة من الماء المغلى.
- الذى مات؟
- نعم. كان آخر عَفْرَةٍ، ولا توجد شقاوة لم ترد عليه. عندما حرّقه روجتى لم يكن عمره يتجاوز الأسبوعين. كانت تحمله فى عربته الصغيرة إلى طبيب الأطفال لكنه تحرك بداخلها فانسكب عليه الماء المغلى. ولكثرة بكائه كانت أمه تتساءل: «ما الذى جرى له اليوم؟». لكن الطبيب قال بعد أن فكَّ قِمَاطه: «بخ، بخ، هذا حرق من الدرجة الثانية». عندئذ استولى علينا الفزع، وبكت "لوثيتا".
- كانت "لاديس" ترمق سيدها من منتصف المطبخ دون أن تَطْرُف لها عين، ويدها الضاربتان إلى الحُمرة معقوفتان فوق حجرها. كانت تتمنى أن يروى لها العجوز الحكايات كاملة ويملكها دائماً الخوف من تركه لها دون تكملة. وهذا كان يحدث باستمرار وخاصة عندما تتحول نظرة العجوز -دون سبب واضح- إلى ما يشبه الشفافية ويحملك فى الفراغ. أمسكت بطرف الحديث لتفادى حدوث هذا:

- وبسبب تلك الحروق مات الرضيع؟

هز العجوز رأسه فى عناد:

- أوه، لا! أخبرنا الطبيب أن الأمر يمكن أن يكون خطيراً جداً فى رضيع كهذا، لكنه نظّف له الفقاعة وأوصى بدواء لكى... -أخرج المندبل من جيبه ومسح بنعومة طرف أنفه... لكى يُرَشَّ برشاش على الحرق. تبادلنا السهر عليه أنا و"لوئيتا"، زوجتى، طوال الليل وفى الصباح أوشك الحرق على الاندمال. لكن الطفل لم يكف عن الصراخ وأخيراً اكتشفت زوجتى أنها لم تعطه ثديها لأكثر من اثنتى عشرة ساعة.

انفراج فم الفتاة عن ابتسامة مبتسرة:

-معلوم -قالت-. لو قالوا لك أن الطفل سيغدو شاباً لو فعلت هذا الشئ* ما فعلته، أليس كذلك؟

سكت العجوز. كان لحديثه مع الفتاة هذه الميزة. لم تطالبه أبداً بإجابة. إذا سكت، شكرته على صنيعة ولا شئ أكثر. لكنه فى الأيام الأخيرة كانت تمر عليه أوقات يفقد فيها صبره. كان يتجه حينئذ إلى النافذة ليرى الثلج وهو يتساقط. من حين لآخر كان يحدث نفسه: «ها هو "مارتينيث" عائد من الدكان». أو: «"دون إستانسلا" يحرص على الذهاب إلى البورصة وهكذا سيفرق العالم». أو: «ها هو "دون ديموفيلو" ذاهب إلى المدرسة. تشير الساعة إلى الثانية عشرة إلا ثلاث دقائق».

فى اليوم الخامس لنزول الثلج، أطلّت "لاديس" من النافذة ومعها العجوز. لم يبق للمدينة، المُخدّرة تحت الثلج، سوى فوّهات المداخل لكى تفصح عن حيويتهما. تحوّل العالم إلى صمت متأجج. مرّقت

* يبدو أن الفتاة (لاديس) تقصد الرضاعة، التى هى بالطبع حكر على الامهات- المترجم.

دراجة، وأمام النافذة، أحدثت عجلتها الأخيرة صبراً مدوياً. ضربت الفتاة براحتها على فخذها وأطلقت ضحكة عالية:

- كان هذا الشقىّ على وشك السقوط على وجهه.
وبخها العجوز:

- يا بنتى، بأى حق تُطلقين عليه لفظ «الشقى»؟
- كما ترى، هوس - ردت الفتاة.

ابتعد العجوز عن النافذة، قَرَّب الكرسي من النار، وجلس ثم قال وهو يعقف ذراعيه ببطء فوق بطنه:

- "بولدو پومبو"، صديقى، ذهب إلى مدريد على دراجة. لا أعتقد أن هذا مدعاة لتسميته شقيّاً، يا بنتى. لقد كان يريد فقط حضور حفل تنويع الملك.

قطّبت الفتاة جبينها. قالت أخيراً فى حرارة وبظرة متلألئة وكأنها عثرت فجأة على حلّ لمشكلة أرقتها طويلاً:

- الملك هو الذى يأمر وينهى فى كل شئ، اليس كذلك يا سيدى؟
- نعم، له ولاية على كل شئ فيما عدا القدر. وكما ترين، يا بنتى، رجل كهذا كان لديه كل ما يريد، ومع ذلك لم يكن يملك أباً.
استولى البرود على نظرة الفتاة:

- لا تبدأ - قالت الفتاة بشئ من الارتياب - الكل له أب حتى الأشد فقراً.
- ومع ذلك لم يكن لديه أب؛ هذه هى الحقيقة، يا بنتى. وعندما وُلد دثروه فى ملابس سوداء. فالمولود، مع ما كان له من سلطان، لم ير أباه أبداً.

أفزعت "لاديس" خصلة من الشعر المتدلى على جبهتها بلكمة . قالت بغضب دفين :
- ها أنت وموآل كل مرة .

فى الخارج ، لازال الثلج يتساقط بعناد مُهَيِّج للأعصاب ، والشوارع والأسطح كانت مكتسية بصرامة متييسة . وفى كل مرة كان يقترب فيها العجوز "إلوى" من النافذة يعتريه التملل الناجم عن الحبس الانفرادى . كان البياض الذى يطوق العمران يدمى عينيه .

أحيانا ، وهو إلى جوار النار ، كان يغفو ومن ثمّ كان على "لاديس" لفت انتباهه : «سيدى ، المنديل» . فيلمس أنفه بخفة ويقول فزعا أثناء إخراجه للمنديل من جيب الدثار : «شكرا ، يا بنتى» . وفى أحيان أخرى ، كانت الفتاة تقص عليه ، بهدف تسليته ، حكايات مرتبطة بالثلج مثل حكاية "لأدريانا" ، جامعة الصمغ ، التى مزقوها بالسكاكين عند مدخل الجبل أو حكاية أعياد "لوس كيتتوس" عندما تساقط الثلج ، عام ١٩٤٧ ، وشلّ حركة الوافدين وظلت القرية بكاملها ترقص حتى الثمالة أربعة أيام بلياليهن ، أو حكاية ضبط "براكسيدس" بواسطة "الأوتروبيو" ، زوج أختها ، ذات ليلة مقمرة .

كانت تقول :

- لم يكفّ "براكسيدس" يوما عن أفعاله السوداء وسرقة دجاجة من الحظيرة . كان "الأوتروبيو" يقول : «سأكمن له ذات ليلة وسيدفع ثمن ما اقترفه من قبل» . انتهز فرصة نزول الثلج وقال لنا : «أتريدان الذهاب معى؟» . وذهبت معه أنا وأختى "لاسليينا" . كمنّ له فى نافذة الحظيرة وكنا نراقب نحن الاثنتين من فوق كتفه . كان العجوز يرمق الفتاة متشوقا :

- ثم ماذا؟ - سأل .

تابعت "لاديس" :

- كان الثلج يلمع تحت ضوء القمر على حين بدت أشجار الصنوبر سوداء داكنة. ظللنا هناك لأكثر من ساعتين. وفجأة، التفت "الأوترويسو" نحونا وقال: «ها هو قادم، إلزما الصمت». تفهقر بعجزه استعدادا للوثب. . .

قاطعها العجوز:

- "ديس"، لا تتفوهى بكلمات خالعة العذار.

رفعت الفتاة رأسها واستفسرت:

- هل أخطأت القول؟

- لا، لكن يمكنك سرد الأحداث بشكل آخر.

بدا المطبخ وكأن الضوء يغمره فجأة. رفعت الفتاة، التي كانت تتأهب للرد على العجوز، رأسها بغتة كمن أصابها الفزع، نظرت دهشة حوالها ثم جرت أخيراً نحو النافذة وهي تصيح بصوت يشوبه الهلع:

- الشمس، يا سيدى! إنها الشمس!

أخذت النسمات القادمة من جهة الغرب تداعب الأفرع المتبيسة لأشجار المور ثم تنعطف نحو السماء الرصاصية اللامعة؛ وبين الفجوات تسلل ضوء أصفر رطب انتفخ تدريجياً بنفس القدر الذى كانت تطارد به الرياح السحب مثلما يطارد كلب أغنام القطيع.

أكملت "لاديس" العشرين ربيعاً يوم الأحد الموافق ١١ ديسمبر. كانت قد قالت اليوم السابق لصديقتها "لامارثي"، أثناء حديثهما في المسقط المتسخ، بكآبة لا تشوبها شائبة: «أنا أتقدم نحو الشيخوخة». ولم يكن هذا مجرد كلام، فقد كانت "لاديس" تظن منذ أن بدأت تستعمل عقلها أن الشيخوخة تبدأ فعلاً بعد العقد الثاني من العمر والفتاة التي لا تتزوج قبل هذه السن ستكتب عليها الرهبة. لكي تخفف من اكتسابها، لجأت الفتاة إلى غرفتها، وعيناها المتوحشتان مسمرتان على صورة أعياد ١٩٥٠ ولأمر ما، لم يكن في الحسبان، امتنع "البيكانا" هذا النساء عن الابتسام أو الغمز لها بعينه، وعندما نادى عليها سيدها لأخذ الدرس، اضطرت لمسح وجهها بالبودرة وشفط المخاط مرتين حتى لا يلاحظ عليها البكاء. وكالمادة، بسط العجوز الصحيفة أمامها وهو يشير بظفره إلى العناوين السوداء وتهجّت:

- الزعيم يرفض pue* أسبانيا...

قال العجوز:

- لا، يا "ديس"؛ ليست pue بل que. إذا كان الحرف التالي يقع خلف بطن الحرف الأول، فالحرف الأول هو p وليس q. أفهمت؟
نعم يا سيدي - ردت دون اقتناع.

* أبادلت الفتاة حرف P بحرف P، لأن الكلمة المقصودة هي que، ومعناها في الجملة "إن". أما "Pue" التي نطقها الفتاة فليس لها أي معنى، ومن ثم فإن العجوز يقوم بتصحيحها لها كما نرى - المترجم.

- إفهمى، يا بنتى. فكرى فى كلمة تبدأ بـ pe أو pi. كلمة تحيينها، أسمعت؟ وبهذا الشكل لن تنسى.

حركت الفتاة شفتيها وكأنها تصلى ووشا جفناها المطبقان عن تركيز موجه. كان العجوز يلاحظها فى إلحاح. انطفأت الفتاة فجأة، أدارت عينيها، رفعت يديها إلى الخدين الأحمرين ولفنت إليه رأسها المنتصرة:

- "Picaza" - قالت باردهاء.

- "بيكانا"، (ماشى) - قال-. كيف أتت إلى فكرك كلمة شديدة الغرابة كهذه، يا بنتى.

ابتسمت وهى مرتبكة وظلت تتمتم "بيكانا"، "بيكانا" بحركة آلية، وأخيراً أضافت:

- إنها الصداقة.

سأل:

- هل لك صديقة بهذا الاسم؟

اشتد خجل الفتاة:

- إنه لقب، أعرف؟ إنه صديق وليست صديقة لكى يكون عندك علم.

- حسنا، يا بنتى.

الآن، وهى إلى جوار "لامارنى" فى الطريق إلى الكنيسة، تفكر فى الاختلاف الموجود بين p، q وفيما يثيره من تسلبية احتماء حرف «ا» من Picaza، كالجبان، خلف البطن الكبير لحرف P. لكنها لم تقل شيئاً لصديقتها. وبالرغم من أنها كانت أحياناً تحس برغبة عارمة لكشف سرّها إلا أن شوقها فى مفاجأتها كان أقوى. كانت الشمس لم تشرق بعد وحشائش الحديقة مكسوة ببياض الصقيع وأقدام الفتيات تترك آثارها على

الطريق. كانت "لاديس" محشورة داخل المعطف الطوبى، وتقبض على ذراع صديقتها، من عند الكوع، وتحدثها فيما يشبه الهمس قائلة بأنها لا تعتقد أن "لاتاسيا" ستزوج لأن الرجال إذا دخلوا المرح مرة لا يتزوجون بعدها. كان المعطف الطوبى ضيقاً للغاية عليها ويظهر طرف الدثار من تحته. لقد استخدمته من قبل كل من "لادورو" و"لاسليينا" و"لاكاندى" و"لالفونسينا" وانتقل إليها وهى فى الرابعة عشرة وعلى الرغم من أنها قد أكملت اليوم العشرين وأصبح المعطف ضيقاً وذابلاً وملطخاً بالعرق تحت الإبطين إلا أن الفتاة تفكر بحكمة فى إمكانية استخدامه موسمين آخرين.

تقف الكنيسة شامخة على الطرف الآخر من الحديقة وفى فصلى الربيع والصيف كانت "لاديس" تتهازى فرصة استيقاظ العصافير لكى تفتت لها قطعة خبز فى نفس الوقت الذى تقوم فيه بتقليد صفير الشحارير. كانت العصافير الدورية والحمام تستجيب لصفيرها وتحيط بها وأحياناً، عندما تكون وحدها، تهبط باطمئنان على يديها وكتفها. كان صفو "لامارثى" يتعكر من تصرف صديقتها: «تحميلن القرية فى دمك»، قالت لها ذات يوم. عقدت "لاديس" العزم على ترك عاداتها، لكن العصافير الدورية نظرت إليها الأحد التالى بعيون شديدة التوسل، مغردة بشكل موجه ومن ثم فقد قررت العودة إلى سابق عهدها حتى ولو غضبت "لامارثى". لكن "لامارثى" اقتصرت على هز كتفها والقول لها: «أنت أشد فظاظلة من حجر بر، يا حلوة».

أما فى الشتاء فلم تكن الشمس تشرق قبل الثامنة ولم تعد هناك مشكلة لأن الطيور كانت لا تزال هاجعة أثناء عبورها الحديقة.

قالت لها "لامارثى" هذا الصباح وهما على السلم: «عقبال مائة سنة، يا حلوة»، وطبعت قبلة شكلية على وجنتها. اعترى "لاديس" الخجل

وهى تذكرها بدعوة الإفطار فى المحل الخاص بعمل المقلّيات وأوصتها
بألا تقل كلمة للأخريات لأنها تعرف أن "لاتاسيا" تستغل مثل هذه
الأشياء للاستطراف وهى اليوم ليست على استعداد لشئ من هذا القبيل .
وفى الكنيسة لم تستطع التركيز ولم تحس ، مثلما يحدث فى مرات
أخرى ، بنظرة عذراء "لاجيا" وهى تسقط فوق عنقها الخانع . عادة ما
كانت "لاديس" تتلهى أثناء القدّاس بعمل إيماءات لزميلاتها أو بالضحك
على منظر الصيادين الذين يصطفون بصحبة أدوات الصيد ، مثل جيش ، على
مقاعد الجهة اليسرى . كانت فقط تلملم نفسها فى ورع عندما يدق مساعد
القسيس الجرس الصغير . فى تلك اللحظات كانت الفتاة تحس بأن عذراء
"لاجيا" تتسلل عبر القبة العالية فتتكشم ويعتريها إحساس بأنها تراب
ورماد ، وتضرب بحرارة صدرها بقبضة يدها ضربات توقيعية بينما تتمتم :
"مع الله أنام ، مع الله أستيقظ ، مع عذراء "لاجيا" والروح القدس" .
وتتلقى وهى منحنية فوق مقدمة المقعد الخشبي صدمة عيني العذراء مثل
وخزة إبرة دقيقة فى فقرة العنق الأولى ؛ وتظل بلا حراك لعدة لحظات ،
وكأنها جماد ، حتى تعلن الدقات المتكررة للجرس الصغير بيد مساعد
القسيس عن عودة العذراء إلى السماء ثانية من خلال القبة العالية دون أن
تهشمها أو تلتطخها ، وعندئذ يمكن لـ "ديس" العودة إلى تسديد الضربات
بكوعها لزميلاتها وإلى إيماءاتها دون خوف من عقاب .

بعد انتهاء القدّاس ، تحكى الفتيات فى البهو ما طرأ من جديد خلال
الأسبوع الفائت : حالات الاستغناء ، حالات الالتحاق الجديدة بالخدمة ،
الأمراض . . . الخ . أو تُقدّم الجديّدات فى الحى لكى تعرفهن
الأخريات ، بينما تتوارى النجوم فوقهن أعلى الشارع :

- هذه أختى ؛ هذه صديقة .

أو يتداولن النصائح المقصودة :

- هذا مثل ما تفعله "لاناتي" التي (تُطْفَش) كل صيف خطيبا .
وبالرغم مما تسوقه من تبريرات فليس هذا بالعمل الطيب .
أو :

- لا تضعنى قطنا يا "پورى" ، اعملى بمشورتى . بعد أن يلმسه
سيحدث ما لا تحمد عقباه .
أو :

- أتعرفين ما يقوله لى "الإمليانو" ؟ إذا لم أرد عليه ، سيخطب أختى
الشهر القادم ، تصورى !
لكن "لامارثى" لم تفسح المجال اليوم لأى تعليق لأنه بمجرد أن
بدأت الحلقة تتشكل ، وقفت فى الوسط وقالت وهى تشير إلى
"لاديس" .

- يا بنات ، اليوم هو عيد ميلاد هذه .

لم تجد "لاديس" وقتا للاستياء لأن أربعا وعشرين زميلة وثبن عليها
وامسكن بأذنيها وشعرها ولم يتوقفن إلى أن تدرجت على بلاطات البهو
الحجرية ، بين نقيق يزهد الأنفس . عندما نهضت كانت ركبتها تنزفان
وبدت ، بشعرها الغير منتظم المبعثر فوق وجهها فى خصلات متلبدة ، مثل
شخصية كاريكاتورية كوميدية . وأثناء قيامها بتنفيض التراب من على
المعطف سمعت صوت "لاتاشيا" :

- لم أكن أعرف أن عيد ميلادك يوافق "سان أنتون" .

رفعت "لاديس" رأسها ، وعروق جبهتها منتفخة وقالت بصوت منطفى :
- اغلقى فمك ، يا مؤذية !

كانت على وشك البكاء لكن عزة نفسها منعته. ومع ذلك ، ففى الطريق إلى محل المقلبات ، وهى على انفراد مع "لامارنى" ، عندما كانت الشمس تبتغ من فوق الأسطح ، لفتت على استحياء انتباهها:

- بأى مناسبة فعلت هذا يا "مارنى" ؟ قلت لك أننى لست على استعداد للمزاح اليوم.

هزّت "لامارنى" كتفها:

- هيا ، يا حلوة ، لا تأخذى الأمور مأخذ الجد.

كانت "لامارنى" تمشى وهى تجر جر حذاءها مثل جندى مستجد ويهتز نصفها الأعلى المترهل مع كل خطوة تخطوها. و"لاديس" ، بساقيها الأقصر من ساقي صاحبها ، كانت تركض مثل كلب صغير إلى جوارها حتى تستطيع مجاراتها. لم تفتح فمها قبل الجلوس أمام المنضدة البدائية فى محل المقلبات. فى جانب من المحل كانت توجد زمرة من الصيادين يتحدثون بصوت عال وعلى طاولة المحل ، سكيّر يتناول كأسا من "الروم". على المنضدة المجاورة كانت لاتزال مطوية بعناية صحيفة ذلك اليوم. نظرت "لاديس" إليها بطرف عيناها. كانت يمكنها قراءة العنوان الكبير الذى يتصدر الصفحة الأولى دفعة واحدة. وكانت على وشك قراءته لكن النادل اقترب فتحكمت فى نفسها. بعد أن طلبت أكواب الشيكولاته التفتت نحو صديقتها:

- فى مكان كهذا تقام حفلات الزفاف فى قرىتى.

بدت "لامارنى" وكأنها ساهمة:

- عند العم "بوتى" ، أليس كذلك؟ - قالت فى فتور.

- نعم ، عند العم "بوتى". كيف عرفت؟

- حضرت مرة هناك.

تناست "لاديس" ضغيتها فجأة وقربت كرسيا من كرسى صديقتها:
-المفروض- تحدثت بلهجة من يقول سرًا- أن أتزوج فى يوم كهذا. قررت
ذلك منذ أن كنت صبية- الزواج فى عيد ميلادى. وانت، يا "مارثى"؟
- سأقرر وقتها.

--عندما كانت والدتى على قيد الحياة، كانت تقول: "سأقدم لكل
واحدة منكن دجاجة يوم زفافها، كما كانت تفعل المرحومة حماتى".
لكنها ماتت وبما أن "لاكابا" لا ترسل لى حتى بالسلام فى خطاب فلن
تحرك ساكنًا، أليس كذلك يا "مارثى"؟
- (بكره نشوف).

اقترب الفتى بالشيكولاته والعجائن المقلية. كان الصيادون يتناقشون
بصوت عال فى جانب من المحل ووضعت الكلبة بلون القرفة يديها على
المائدة فضرّ بها أحدهم وقال لها متوعدا: «مكانك، يا "دوللى"» وعندئذ
تكوّر الحيوان ممثلاً تحت المائدة القريبة ووجه لصاحبه نظرة متوسلة.
قال صاحبها فى فخر: «هناك فى أمريكا لا يوجد حجل حقيقى، بل
نصف مخنث؛ لكى تسقطه، يكفى أن تحمل عليه». رفع "لاديس"
نظرها نحوه ثم حطته بعد ذلك على المائدة القريبة حيث توجد الصحيفة،
وتهجّت فى سرّها: «الز- عيم- يس- تقد- بل- إل- م- لك- سي-
مون». وضعت يدها على ذراع صاحبها وقالت (بالفم المليان):

-- هناك فى قريتى، يذهب العريس والكفيل لإحضار العروس من دارها.
ينتظر الجيران عند الباب وإذا لم تحيهم العروس بظرف تنهال عليها
السخریات. كان كل همى هو تكرار هذا التنبيه على "لاسلينا": «مدى يدك
للجيران. مدى يدك للجيران، يا امرأة». وكانت تسير وهى هائجة وتصيح
فى: «الا تريدین إغلاق فمك!». لكننى كنت أفعل هذا لمصلحتها. فلو لم

تفعلى هذا تنهال عليك السخريات وتلازمك صفة ثقل الدم. حقا، يا «مارثى»؟

ردت «لامارثى» بفتور:

- هذا معروف فى القرى.

- وإذا أرادت الجارات بعد ذلك وضع السويتان للعروس، تتركهن يفعلن ذلك. إنها حفلة لهو ومرح!

كانت الفتاتان تآكلان بنهم. افتتنت «لاديس» بالصحيفة من جديد ولكى تقهر رغبته قالت لصاحبته:

- فى كنيسة قريتي يوجد صفان من المقاعد، الصف الذى على اليمين للصبيان والذى على اليسار للبنات هذا فى قداس أيام الأحد أما فى حفلات الزفاف لا أحد يهتم وعلى مقاعد الصبيان يجلس مدعوو أحد الطرفين وعلى مقاعد البنات يجلس مدعوو الطرف الآخر. أحيانا تتعانق نظرات الطرفين فيما يشبه التريوح بمروحة؛ يا لها من أشياء!

خرج الصيادون والكلبة بلون القرفة تتسلل بين سيقانهم حرصا منها على عدم البقاء متأخرة. صاح بائع العجائن المقلية: «حظا طيبا!». فردت المجموعة فى صوت واحد: «شكرا». بعد قليل دخل رجال المطافىء البدلاء، والى توجد نقطتهم على بعد ناصيتين من المحل. نظر إليهم السكير باطمئنان وهو مضطجع على الطاولة. اقتربت «لاديس» أكثر من صديقتها وهمست فى أذنها:

- يوم زواج «لاسليينا» ما من واحدة إلا وكان لديها كلام تقوله لها. ولم يتركوا «الأوتريو» يستكين ولو للحظة وعندما أقبل الليل وضعت «لاكولويكو»، ربة منزل القسيس، ومعها «الدلفين» وكل

العصابة شرّكا من الجلد فى سرير العريسين . يالها من ليلة!الحسن
حظلهما لم يتفكك السرير . يوم أن تزوجت «لادانيل» وضعوا لها
تحت الحشية قطعة من الخشب متصلة بجرس صغير وبقي الجميع
منتظرين فى الشارع وعندما رنّ الجرس تسلقوا الشرفة وضبطوهما . . .

. . . تخيلي ، يا «مارثى» ، على أية حال ضبطوهما !

الآن لم تعد «لامارثى» تأكل العجائن المقلية . وكالعادة كانت عيناها
المائعتان منطفئتين وساهمتين . قالت :

- أفضل البقاء عزباء على الزواج فى قرية ، (شفتى بقّه).

- (ياشيخة روى). حفلات الزفاف لاطعم لها فى المدينة . فى قريتي
تشتري فى الحفل العاشرة صباحا ولا تنتهى منه حتى العاشرة من صباح ا
ليوم التالى . فى الأول المشروبات الباردة ، ثم يأتى دور الغداء ، بصحة
«أوركسترا» وكله ، وبعد ذلك العشاء . وأنا لا أتحدث عن أموات ، يا
«مارثى» ؛ اذهبي إلى هناك وستجدين أختى كى تقصه عليك .

تأثبت «لامارثى» . من على المائدة القريبة جذبت الصحيفة انتباه
«لاديس» مرة ثانية : «الز - عيم - يس - تق - بل - ال - لك - سي -
مون» . أنقذها من جديد صوت السكّير . سقطت منه النقود عند الدفع
فأرغى وأزبد بينما كان يجمعها وهو جالس على الأرض :

- (باين عليه مبسوط ، مُش كده يا «مارثى»؟)

- نعم .

ابتسمت «لاديس» بتعبير آت من الأعماق . قالت :

- هذا لا يقارن بما جرى فى قريتي خلال تناول المشروبات الباردة فى
حفل زفاف «لاسلبينا» بدأ الفتيان وكأس تأتى ، وكأس تروح ، و«يعيش»

القسيس» و«يعيش المدعوون» وتعرفين الباقي. فى النهاية سكر الجميع وأخذوا يغنون: «مع الـ بين - بيرين - بيمبين، مع الـ بان - بارايان - پيمان*، من لايعجبه النبذ فهو حيوان».

وكونوا حلقة حول «دون فيديل»، المدرس، الذى لايشرب، (وهات ياتريفة). حتى القسيس نفسه كان ضمن الحلقة، تصورى يا «مارثى».

- إنه المزاح.

- لازلت إلى الآن عند رأى. إذا لم أستطع تقديم مشروبات وغداء وعشاء وإحضار فرقة موسيقية (زى الناس) فلن أتزوج. هذا ما أقوله باستمرار له، واللا إيه يا «مارثى»؟

- من حقل.

والثياب نفس الشيء. تزوجت «لاسليينا» على أية حال. ولايعنى هذا الذهاب عارية. فلن تذهبي إلى بيت زوجك يوم الزفاف دون قميص. أفضل الزواج غدا ولو بقميص واحد. (واللا إيه رأيك) يا «مارثى»؟

وكرت صديقتها بالكوع:

- (أما نشوف) - ردت «لامارثى».

انكتمت «لاديس» لحظة، ثم قالت:

- لست متضايقه، حقا يا «مارثى»؟

- أتضايق من ماذا؟

- تناولى إذن المزيد من العجائن المقلية.

* هذه الكلمات ليس لها معنى والغرض منها تكوين جملة موسيقية يتفق آخر مقطع منها مع المقطع الأخير للأغنية - المترجم.

- لا أستطيع إدخال فمى ولا واحدة زيادة؛ أنا على الآخر.

ابتسمت «لاديس». ذهب نظرها رغما عنها نحو الصحيفة من جديد. كان رجال المطافئ يتحدثون بأصوات غلب عليها النعاس. خرج السكير وهو يتمايل. مدت «لاديس» يدها فجأة، أمسكت بالصحيفة، انطفأت وهي تقول بعينين مستديرتين ومضيتين:

- «مارثى»، سأخبرك بشيء.. الآن أستطيع القراءة!

عضت صديققتها شفتها السفلى. تابعت «لاديس»:

- انتبهى، سترين.

كانت تضع بعصبية إصبعها الخشن تحت السطر المكتوب بحروف كبيرة عندما وقفت «لامارثى» وقالت كمن أخذ على غرة:

- لكن، أتعرفين كم الساعة، يا حلوة؟ تجلس الواحدة لأكل العجائن المقلية وتنسى حتى اسمها. فى مثل هذه الساعة تكونين قد انتهيت من قلب حجرتين رأساً على عقب. هل دفعت الحساب؟

ذات مساء، وهو مرتكز على ركبتيه بجوار السرير كالعادة، قرر العجور «إلوى» زيارة «باتشيكو»، صاحب محل النظارات. كانت تسيطر على العجور آفة الاعتقاد بأن اليوم الذى لا يركز فيه على ركبتيه لمدة نصف ساعة بعد الأكل تتأخر عنده عملية الهضم. يحرص العجور «إلوى»، بعد تجاوزه السبعين، على عاداته الخاصة من أجل المضى قُدماً فى الحياة وإذا حدث وانتقده أحد فإنه يستعين بالمنطق والخبرة الشخصية للدفاع عن تلك العادات. عندما ضبطته «لاديس» أول مرة وهو مرتكز على ركبتيه بعد الغداء أغلقت الباب وهى مرتبكة. صاح: «ادخلى، ادخلى يابنتى، فانا لا أصلى». لم تقل الفتاة شيئاً لكنها لم ترفع عينيها من عليه طوال الوقت وتذكرت وهى تنتفض رعباً «الأبولينار»، ابن عم «الأوتروبيو»، روج أختها، الذى فقد عقله لأن الريف كان يطبق على أنفاسه ولم يجد فرصته فى المدينة.

وبالرغم من ذلك، فقد كان العجور «إلوى» يقول لصديقه عيسى أنه من البديهي أن تتم عملية الهضم عند الإنسان وهو مرتكز على ركبتيه بأفضل مما لو كان على قدميه لأن المعدة فى الحالة الأولى تكون أقرب إلى الأرض وبالتالي يكون تأثير الجاذبية على الطعام أشد قوة والدليل على ذلك ما يلاحظه من سهولة الهضم عند الأطفال، وإلا فما السر فى أن الأطفال تتم عندهم عملية الهضم أسرع من البالغين. قال له بعد ذلك أنه لو حرص أى شخص طبيعى على هذه العادة وأفرغ مافى بطنه فى الحديقة كل يوم فبإمكانه أن يبلغ أرذل العمر.

فيجيب عيسى على هذا قائلا بأن لكل إنسان خواصه وأن «أجوادو»، دون الذهاب بعيدا، كان يستريح على مراجعة الملفات القديمة وحسبما يدعى فقد كان ذلك بسبب ما تحويه هذه الملفات من تراب، لكن معرفة السر في هذا أمر غير مستطاع. كان العجوز «إلوى» يضحك بينه وبين نفسه من تلك الوسائل ويستحثه على تجربة طريقته، وأيضا صعود سلم بيته وهو منحني من عند الخصر في زاوية مستقيمة لأن الحجاب الحاجز يتزحزح في هذه الحالة من مكانه ويمكنه صعود خمسين درجة بل ستين دون إجهاد للرتتين. ذات يوم، والعجوز يصعد السلم هكذا اصطدم بـ «دون أوريليو»، الرسّام الهندسى، مخدم «لامارثى»، الذى كان يهبط فى تلك اللحظة وتحير العجوز ورفع يده بخجل إلى جناح القبة فابتسم فى تسامح «دون أوريليو» ولم يقل سوى: «ظننتك تقلد الثور يا «دون إلوى». منذ ذلك الحين والعجوز يتوقف عند كل دوران فى السلم للتأكد من عدم هبوط أحد حتى يتفادى الوقوع فى حرج جديد.

عادة ما يتخذ العجوز «إلوى» القرارات الخطيرة أثناء بدء عملية الهضم وهو مركّز على ركبته أمام السرير. هكذا قرر ذات مساء زيارة «باتشيكو» فى محل النظارات وحثه على إعادة تنظيم نشاط جمعية التصوير.

قبل يومين كان قد قرر زيارة زملائه فى الهيئة لتهنئتهم على السرعة التى تصرف بها عمال النظافة بعد سقوط الثلج. ومع ذلك، فقد قاسى وقتها من خيبة أمل كبيرة. لقد كان يتصور أن ظهوره المفاجئ فى القسم سيقابل بحفاوة بالغة، لكن «دون كاستور»، الرئيس، لم يقل له سوى: «أرايت؟ الصحافة تؤلب رأى العام ضدنا». لم يرفع أحد عينيه ما عدا كرأسكو الذى شَهر من بعيد الإصبع السبابة وأداره فوق رأسه عدة لحظات. قال العجوز «إلوى» وهو ينظف بألية طرف أنفه بالمنديل: «عندما سقط الثلج تصرف العاملون بمهارة. وقد أتيت خصيصا لتهنئتك

على ذلك». لم ترتفع عينا «دون كاستور» من فوق أوراقه. تأخر خمس دقائق في الردّ على العجوز وعندما فعل لم ينظر أيضا إلى وجهه: «هذا ما تقوله أنت. أنت طَرَفٌ - خرج صوته عميقا عند إضافة -: لست الصحافة. نحن نفكر جديا في إعادة ترتيب الهيئة».

نزل العجوز من على الأرضية الخشبية واقترب من المدفأة. راودته الرغبة في الابتعاد عن المكان لكنه لم يحسم الأمر. كان يتأمل المكتب القديم بأرضيته الغبراء وموائده التي أكلتها القرصنة وحزَم المطبوعات الضخمة - قسم النظافة، بيان العمل، تأشير حارس مقلب القمامة - وكأنه يراها لأول مرة. وشيء غريب، كان يتشبث بالمدفأة في نهم، خوفا من أن يدفعه حماسة العفوى وحبه القديم للهيئة، إلى إحدى الموائد حيث يعمل رملاءه. تنفس الصعداء عندما رأى "موروخيل" ينهض ويتقدم نحوه، لكن خيل لم يكن يريد تحيته بل دَفَعَه قليلا حتى يستطيع المرور إلى السكرتارية العامة: «من فضلك، دون إلوى». عندما عودته قال له، دون أن يتوقف: «الصحافة تؤلب الرأي العام ضدنا. تدعى أن المدينة مستسخة. ها قد رأيت! نسعى الآن لتعديل مواعيد العمل ودراسة زيادة العمالة».

أحس العجوز بالخجل. كان يخجله التواجد هناك بلا عمل، متشبثا في عتبه بالمدفأة، بينما يعدّ رملاؤه القدامى خطة لإعادة ترتيب قسم النظافة، لكنه لم يقرر مغادرة المكان. عندما همّ بفعل هذا أخيراً، نهض "كرأسكو" متثاقلا وخرج للقائه وقال له: «أهلا، بالجد الصغير»، ثم أخذه من ذراعه واقترب به من مائدته القديمة فوجد فتى شاحبا، له أذنان كالجناحين، يحتل مكانه وعندما أحس بهما الفتى رفع رأسه فسأله «كرأسكو»: «كيف التحقت بالعمل هنا، يا «بن»؟»، اشرح للجد. تلثم الفتى وحاول أن يقف على قدميه، لكن «كرأسكو» أقنعه بالعدول قائلا له: «لاتضايق نفسك، الجد من أهل البيت»، وعندئذ حرك الفتى أذنيه

وقال: «عن... عن طريق الاختبار». واجه «كراسكو» العجور «إلوى»: ما رأيك؟ لقد سمعت». ثم التفت نحو الشاب: «قل للجد كم امتحان دخلت، هيا يا «بن». بدا الفتى وكأنه كلب مروض: «ثلاثة. واحد شفوى، وآخر تحريري والثالث عملي». نظر كراسكو إلى العجور: «مارأيك؟». كان العجور يرتجف. لقد كان يعتقد أحيانا أن «كراسكو» مخلوق شرير ولديه القدرة على القتل لو سححت له الظروف... اتجه «كراسكو» مرة أخرى إلى الموظف الجديد: «بن، قل للجد كم كيلو جرام فقدتها وأنت تستعد للاختبار هنا، هيا». رد الفتى، مرتبكا، ومطوحا أذنيه مثل قزم خرافى(*) : «ثمانية... لكنى استرجعت الآن اثنين ونصف». «حسنا - قال كراسكو - أمامك الجد. دخل الهيئة منذ مايزيد عن الخمسين عاما يا صبيعه، ولمكافأته على مدة خدمة قضائها فى توافه الأمور أعدوا له مأدبة وأعطوه ميدالية ومعاشا طوال الحياة، ما رأيك فى هذا يا «بن؟». تورد الفتى خجلا، حرك أذنيه وابتسم. ظن أن الأمر مجرد دعابة. ابتسم العجور أيضا فى محاولة لتمييع الموقف، لكنه أحس بخوف يتملكه وقال: «أنت دائما هكذا يا «كراسكو»، «تحب المزاح» - لكن «كراسكو» استعار سميت القاضى لكى يقول: «أنا لا أمزح، أيها الجد. هيا يا «بن»، أخبر الجد أننى لا أمزح». عاود «بن» الابتسام مرتبكا فقال العجور: «أنا ذاهب، لقد تأخرت» وعندئذ انحنى كراسكو على يد العجور المرتجفة وطبع عليها قبلة مصطنعة.

كان العجور «إلوى» يصاب بالهلع كل مرة يتذكر فيها هذا المشهد كانت الذكرى توقظ فيه إحساسا بالتقزز أو الخوف وكان يحرك رأسه من جهة لأخرى لكى يطرد هذا الهاجس. ودون سبب واضح غدت فرائضه

* الكلمة هي gnomo، ومعناها: عفريت أو قزم خرافى يقوم بحراسة كنوز باطن الأرض، حسبما تدعى كتب الخيال العلمى - المترجم.

ترتعد الآن من صورة المكتب، وكأنهم وضعوا على بابه كلبين متوحشين للحراسة. حنّ إلى «باتشيكو». «إنه شيء آخر»، قال لنفسه.

وفعلا، استقبله «باتشيكو» بمودة لدرجة أن نظارته التي بدون حامل، ذات العدسات الشديدة النظافة، كانت تبتسم له في غير تكلف. في النادي كانوا يؤكدون على أن «باتشيكو» لا يحتاج إلى عدسات، لكنه كان يستخدمها من باب الدعاية للمحل. قال له «باتشيكو»: «طلعتك ولا طلعة القمر، يا «دون إلوي». منذ متى ولم ير أحدنا الآخر؟». كان محل باتشيكو خلّاباً، مليئاً بالأغراض البراقة والسيلوفان وأضفت عليه مهارة صاحبه الزخرفية جواً يوحى بالنظافة المطلقة.

- اجلس، يا «دون إلوي»

جلس العجوز، مرّر المنديل على طرف أنفه وتنحنح بافتعال، ثم قال: أتذكر، يا «باتشيكو» محاضرتي في الجمعية عام ثلاثة وثلاثين. أوما «باتشيكو» بالإيجاب وهو يبتسم، ويداه الغليظتان ذات الأظافر المصقولة قابعتان فوق الفاترينة:

- كنت أقول لك «الأجيد التعبير وصوتى ضعيف، لكنك أصررت وجعلتني هدفاً للسخرية يومها. أتذكر يا «باتشيكو»؟

صدرت عن «باتشيكو» إيماءة غير ملحوظة لأنسة ترتدى المعطف الأبيض لكي تستقبل زبونا. وضع مرفقيه بعد ذلك على الفاترينة ونظر إلى العجوز. كانت نظارته ترسل بلمعان يعشى الأبصار.

- لازالت الكاميرا «كوتناكس» ٥, ٣ معك يا «دون إلوي»؟

أحس العجوز بالحيرة. ردّ:

- عن هذا أود أن أحدثك بالإضافة إلى أشياء أخرى.

جَعَدَ «باتشيكو» جبهته، مُرَكِّزاً، وكأن الكلمات التي ينتظرها من العجوز ذات أهمية قصوى:

- ما الذي يساويه اليوم فيلم ٩٨٦؟ سأل العجوز في كثير من العنت، وتنحنح في النهاية وكأنه يفتح باراشوتاً حتى لا ينهار سؤاله فجأة، بل يسقط برفق على مُحَدِّثه.

بشيء من اللامبالاة ألقى «باتشيكو» بعلبة صفراء فوق الطاولة:

- هذا حسن . ثمنه ٦٠ و ٢٤ بيزيته، لكنه ممتاز.

كان لمعان نظارة «باتشيكو» يربك العجوز. تصور أن بإمكانه الاطلاع على بؤسه بتلك النظارة.

- كل شيء ارتفع ثمنه - قال - . أصبحت الحياة لاتطاق.

- بالنسبة لك لا . خذ هذا وسدد ثمنه عندما تحب. أنت في هذا المحل وزير المالية.

- شكرا يابني، لكني لا أستطيع قبول هذا.

- ولم لا؟ «خيميستا»، غلّقى هذا الفيلم. لاتسجلى ثمنه في الخزينة. خذ. هدية من المحل.

كل مرة ينطق فيها «باتشيكو» كلمة «المحل» كانت تنتفخ أوداجه ويرفع الصوت ويضفى عليه سَمَماً توقيريا وكأنه يقوم بالركوع أمام مديح. وكل مرة كان العجوز يحس بالارتباك أكثر. حاول أن يشرح لصاحبه أنه ما جاء من أجل ذلك، لكن «باتشيكو» كان يتسم بنظارته ولم يترك له الفرصة. بعد ذلك، ولكي يشكر له حسن صنيعه، ظل العجوز يذكره طوال ساعة ونصف بملاحظات محاضراته عام ١٩٣٣ وقال له أن «لوثيتا»، امرأته، غضبت منه وقالت له أنه من أجل هذا الدَّور كان الأفضل له البقاء في البيت. تحدثا

بعد ذلك عن الجمعية وباغته العجوز «إلوى» بقوله: «أنها ماتت» وسرعان ما أدرك قوة الجملة لأن «باتشيكو» كان يتولى رئاستها وأراد إصلاح ما أفسده، لكن «باتشيكو» لم تظهر عليه أمارات الإحساس بالإهانة واستأذنه عدة مرات «معذرة، «دون إلوى»، لكي يستقبل الزبائن وكان العجوز ينتظر هادئا وفي كل مرة كان يرجع فيها «باتشيكو» كان يقول له: «معذرة، فهذه الساعات من النهار تكثر فيها الحركة».

فيوافق العجوز، وعندما همَّ بالانصراف، بالغ «باتشيكو» في كرمه معه وحشه على زيارته باستمرار وقال له العجوز: «من نشاطى عام ١٩٣٣ يتبأنى السرور فقط عندما أذكر ما قلته لى عند وجود صورتين فى غاية الروعة من بين الصور التى التقطتها». كانت نظارة «باتشيكو» تبسم وتؤيد وقال له العجوز «إلوى» أنه سيواظب على زيارة المحل. فقد كان من دواعى سروره دائما تبادل وجهات النظر حول التصوير، وأنه يمكن بالتعاون بينهما إعادة الحياة لنشاط الجمعية.

فى الأسبوع السابق على أعياد الميلاد، نزل العجوز «إلوى» إلى الحديقة صباحين متتاليين ومعه «لاديس» وصورها وهى مضطجعة على مقعد معاكس للضوء، وتحتها مياه الغدير اللامعة. أتم العجوز المهمة بإتقان، كان يقيس المسافة ثلاث مرات، يغير الضوء بعد كل صورة ولكى يتغلب على رعشة يديه كان يبحث عادة عن نقطة ارتكاز ثابتة للكاميرا. كان النهار قد أوشك على الانصرام وأصبح الجو فاترا فتجمعت حفنة من المشاهدين حولهما. تملك الغضب «لاديس» لأن العساكر المستجدين لم يكفوا عن تعليقاتهم الساخرة أثناء جلوسها ولم تتوقف هى الأخرى عن تسديد الشتائم لهم ونعتهم بأوصاف مثل «أوساخ» و «أقذار»، وقد أدى كل هذا إلى فقدانها للهدوء والاتزان.

كانت تصيح فى العجوز:

- هيا، ياسيدى! لقد أمضيت القيلولة بكاملها فى هذا.

ويعود العجوز لقياس الأمتار ويتملكه والكاميرا فى يده غرور المحترفين:

- الصبر، يابتنى.

عاد إلى محل النظارات بعد ثلاثة أيام وجلس على الكرسي المُستند إلى عمود المرايا.

- الثلاثة فى خمسة سلعة غير مناسبة اليوم. أليس كذلك؟ - سأل «باتشيكو» فجأة.

- معذرة، «دون إلوى».

- عذرك معك، يابنى.

كان «باتشيكو» يستقبل ربائنه. أخيراً اقترب من العجوز:

- «زيس» أرسلت حديثاً كاميرات ٨x١، لكن لمعانها أكثر من اللارم؛ يحتاج ضبط غشائها لكثير من العمل - قال.

كان العجوز ينظف طرف أنفه:

- أعتقد أن الجهاز البصرى الأزرق لابد منه فى الكاميرات الجيدة، أليس كذلك؟

- معذرة، «دون إلوى».

- عذرك معك، يابنى.

كان «باتشيكو» يتلأأ فى العودة، بينما ينتظره العجوز فى صبر متأملاً الكاميرات، النظارات، المناظير والإعلانات الزخرفية للفاترينات: «عدسات القرنية: فريدة، بسيطة، معبرة، نظيفة، ملائمة، متقاة».

معلومات مستفيضة؛ جربّ دون أى التزام». «استعمل «زين» الجديدة التى تشتمل على مقياس».

«بوصلات، مجسّمات، عدادات للمسافة ومقاييس للحرارة».

- لاتزال الثلاثة فى خمسة تحتفظ بمكانتها - قال «باتشيكو» - يحتاج ضبط غشاء الواحد فى ثمانية لعمل كثير.

- حقا؟

- بالطبع

- تعتقد أن كاميرا «كونتاكس» مثل التى معى...؟

- معذرة، «دون إلوى».

- عذرك معك، يابنى.

كان العجور إلوى يستمتع بتواجده داخل محل النظارات، حيث يلفّه ذلك الجو المريح، الفاتر والمعقّم. لكن «باتشيكو» كان يتلكأ كل مرة أكثر فى العودة إلى جواره.

عندما رجع العجور بالفيلم بعد يومين سأل «باتشيكو» فزعا:

- هل تفكر فى الانتظار، «دون إلوى»؟

ارتبك العجور؛ لكن «باتشيكو» كان رجلا جريئا وسريعا فى اتخاذ القرارات. ابتسم بخروطوم متغضن، مثل أرنب:

- ادخل المعمل وتولي تحميض الفيلم بنفسك، ما رأيك؟

كان العجور يرتعش مثل طفل فقير وضعوا بين يديه فجأة لعبة غالية الثمن.

اصطحبه «باتشيكو» إلى البدروم وساعده فى ارتداء الرّوب الأبيض.

«حسنًا»، كان يكرر العجوز «إلوى». «جربّ أولاً فى فيلم تالف. خذ»، حذّره «باتشيكو».

«إطمئن، يابنى». عندما وجد العجوز نفسه وحيداً، فكر فى «لاديس». لقد أمضت الفتاة ليلتين ساهرة تفكر فى الصور لأن العجوز أكّد لها أنها ستكون مثل التى تتصدر المجلات.

لاقى العجوز عتّاً فى تعويد عينيه على الظلمة؛ كما صعب عليه أيضاً التأقلم مع فكرة استحواذة على معمل خاص به، لكى يقوم بتحريض عمله فيه. منذ أن عمل بضعه أشهر وهو صبى فى محل للتصوير الفورى على ألواح معدنية كان هذا هو حلمه الذهبى. سمح له الضوء الأحمر أخيراً بالتمييز بين السوائل والأوانى. جربّ أولاً بماء وبفيلم تالف وسارت الأمور على مايرام. فكّ الفيلم بعد ذلك من على الهيكل المعدنى، شحن الإناء الاسطوانى، صبّ الحامض وأخذ يهزّ فى أناة. أحس بانفعال حاد وعنيد فوق معدنته؛ الانفعال الصافى والخالص للمبدع. وعندما رفع، أخيراً، الفيلم فى الضوء لم ير إلا ورقة شفافة، ناصعة البياض.

تصادفت خيبة أمله مع دقّات «باتشيكو» المتعجلة على الباب: «دون إلوى»، اختصر، سنغلق المحل» رفع العجوز المزلاج وأطلعه على نتيجة عمله، نظر «باتشيكو» إلى السوائل وقال:

- خلطت بين الحامض العامل والحامض المظهر.

حاول العجوز الابتسام وهو يخلع الرّوب الأبيض. لانت عيناه وكشف عن عتمة غريبة. فكر: «ربما أهدى إلى «باتشيكو» فيلماً آخر». لكن «باتشيكو» قال فقط، وهو يشير إلى أسفل البنطلون:

- بالإضافة إلى ذلك لوّثت نفسك. هذا أسوأ. هذه البقع لاتزول.

فكر العجوز «إلوى» فى «لاديس» وهو يقول:

- وهل يبدى شىء، أفعله!

عندما قرر العجور «إلوى» الاحتفال بليلة عيد الميلاد بصحبة «لاديس» وتكليفها بشراء زجاجة نبيذ أحمر فاتح من الحانة الموجودة على الناصية كانت لديه دوافعه .

فمن النادر أن يقدم العجور على فعل شيء دون سبب . عندما أقدم على هذه الخطوة كان مقتنعا بوجود أشياء كثيرة عليه أن ينساها ، وأشياء أخرى جديرة بالاحتفاء . ومن الأشياء التي كان عليه نسيانها ، على سبيل المثال لا الحصر ، موضوع الصور ؛ وتلاشى الدفء من الهيئة التي كان يعمل بها ؛ علاوة على الورقة الحمراء التي طلعت له في دفتر البقرة ؛ وأخيرا ، موضوع البطانية الشانك . لقد أصيبت «لاديس» بخيبة أمل عميقة وقاسية فى موضوع البطانية .

قبل ليلة عيد الميلاد بيومين كسبت الفتاة بطانية من الهدايا التي تقدمها سنويا «مؤسسة أعمال البر» لمن تتفق بعض أرقام كوبوناتهم التي ابتاعوها منها مع الأرقام الفائزة فى السحب الغير عادى لليانصيب . وبالرغم من ذلك ، فعندما ذهبت الفتاة للمطالبة بها ، وهى متأبطة ذراع «لامارنى» . أخبرها المسئول أن الرقم الفائز بالبطانية هو ٤٩١٨٣ وليس ١٠٠٩٤ لأن الأرقام التي تتفق مع بعض أرقام الجائزة الخامسة عشرة لا يتم حسابها وفقا لمسلسل الجريدة بل طبقا للترتيب الذى خرجت به أرقام الجائزة من صندوق الاقتراع السرى . ألحّت الفتاة وألحفت فى الطلب ، لكنها بعد أن تيقنت من أنها لن تحصل على شيء ، انطفأت ووصفته وهى تصبح بالخسة والجبن ، هدهدا المسئول بالإبلاغ عنها ، لكن الفتاة هاجت أكثر وكان لزاما على «لامارنى» استخدام القوة لإخراجها من غرفة ذلك الموظف .

بعد ذلك، فى البيت، روت «لاديس» ماجرى للعجوز وهى تنتحب وتوسلت إليه كى يذهب معها للمطالبة بالبطانية لأن الجميع يسخر من الخادمة؛ لكن إذا كان المتحدث سيد فإن الأمر سيختلف.

فى المساء وصل العجوز إلى بوابة «مؤسسة أعمال البر» ومعه الجريدة والكوبون لكن المسئول أكد له ثانية على أن الأرقام التى تتفق مع بعض أرقام الجائزة الخامسة عشرة لا يتم حسابها وفقا لمسلسل الجريدة بل تبعا للترتيب الذى خرجت به أرقام الجائزة من صندوق الاقتراع السرى، ومن ثم، فإن الرقم الفائز بالبطانية هو ٤٩١٨٣ وليس ١٠٠٩٤. ومع ذلك فقد حاول العجوز إثارة شفقة الرجل بلفت نظره إلى أن الأمر يتعلق بفتاة مسكينة فى الخدمة، لكن الرجل المسئول قال له أن لسانها لم يكن كذلك، ومن جهة أخرى، فمما هو إلا عبد المأمور ولا يستطيع فعل شئ ونظرا لفشل العجوز فى مهمته فقد قرر الاحتفال بليلة عيد الميلاد فى المطبخ بصحبة الفتاة التى انفجرت عندما عرض عليها الأمر.

— أو تقدر على هذا.

— ولم لا، يابنتى؟ الجو جميل هنا. وهكذا يمكننا أيضا تبادل أطراف الحديث.

قبل أن يحين الموعد ظهر شئ جدير بالاحتفال وأصبحت رجاجة النيذ الأحمر الفاتح لاتعتبر ملطفا للآلام فحسب بل حافزا جديدا للسعادة أيضا. تحقق المأمول اليوم السابق، على غير المتوقع، مع وصول البريد. صاحت «لاديس» من على الباب:

— خطابات، ياسيدى. توجد خطابات!

شرع فى الجرى بوثبات حائرة، وفى عجلته، ارتطم عَجْزُه بطرف المائدة، لكنه لم يشعر بأى ألم. بعد ذلك، عند فتح المظروف، أصبح

تنفّسه صعباً ولاهثاً. من خلال عدسة تكبير غائمة لمح العجوز السقيفة الجميلة والدمى الملونة والحاشية المتقنة وعبرة «أجمل التهاني» مطبوعة بحروف مذهبة، وأسفل، على الخطوط الدقيقة التي تغطيها الكلمات كان يوجد توقيع مألوف لديه: «ليون» وعندئذ، رفع الكارت عالياً وقال بوجه مرتخ بفعل سرور غامر:

- إنه من ابني، يا «ديس»! الفتى يكتب لي من مدريد.

امتلاً كل جسده بشوق عارم ونظر من جديد إلى الكارت وعندما قالت له «لاديس»، بوجه محتقن، وهي على وشك الانفجار: «وأنا الأخرى جاءني خطاب، ياسيندي»، همهم: «إنها مصادفة».

صعدت الفتاة بعد ذلك إلى حيث توجد «لامارثي» وأثناء غيابهم لم يبعد العجوز عينيه الرطبتين والرخوتين من على الكارت وعندما رجعت «لاديس» سألها: «أخبار طيبة، يا بنتي؟»، لكن الفتاة بدت وكأنها في غيبوبة فاضطر لتكرار السؤال أربع مرات، قالت بعدها وكأنها استيقظت فجأة: «طيبة» ووضعت يدها على قلبها وضغطت بحب على الخطاب الذي انتهت من إخفائه في صدرها.

كان الخطاب من أختها «لاسلبينا»، زوجة «الأوتروبيو» وقرأته لها «لامارثي» دفعة واحدة. كانت «لاسلبينا» تقولك «أختي، أعرفك بأن البيكانا سيذهب إلى المدينة في السابع من الشهر القادم للالتحاق بالجيش، وسيحمل لك عند ذهابه بعض السجق والدجاج مما نتنتجه هنا». أوشكت الفتاة على الاختناق وضغطت على قلبها فأحست به يدق بين الضلوع مثل ناقوس أصابته لווثة. بعد فترة لمست الذراع العاري الأبيض والبض لصاحبتهما وقالت بصوت منهك: «إنه قادم، يا «مارثي»، أنعرفين؟». ردت «لامارثي»: «نعم، يا حلوة». أضافت «لاديس»: «خلال

خمسة عشر يوما ، يا مارثى». قالت «لامارثى دون أن تتوقف عن العمل: «نعم، يا حلوة». فجأة، تحسست «لاديس» بجزع خديها المتوردين وقالت: «مارثى، من فضلك، هل طلّقت القرية الآن؟». ردت «لامارثى» دون أن تنظر إلى وجهها: «ألا تتعجلين الأمور حبتين ، يا حلوة!».

أحست وكأن السقف ينطبق على الأرض وأوشكت على الإجهاش بالبكاء.

سألت، بالرغم من هذا، ويعد جهد جهيد: «ستذهبين غداً إلى قدّاس عيد الميلاد، حقا يا «مارثى؟». اشتاطت صاحبها غضبا، ثم قالت: «أتتحمل عظام كعبيّ شيئا مثل قدّاس عيد الميلاد؟». حينئذ انصرفت «لاديس» وهى شبه نائمة وفى البيت ، كان على العجوز سؤالها أربع مرات عما إذا كانت الأخبار طيبة لكى تعود إلى رشدّها.

أشرق اليوم التالى على مهل بالرغم من برودته وتسلّل جوّ عيد الميلاد عبر النوافذ الزجاجية فأزكى المشاعر والأفئدة. أضواء الواجهات الزجاجية ومُكبر صوت «رويث جساندا رياس»، صاحب محل الديسكو، الذى يذيع الأناشيد الدينية، وزجاج القهاوى المُلقّع بالبخار، والرجفة المتقطعة للأجراس، الحواشى الضئيلة اللامعة لأشجار المور، والبهجة المرتاعة للأطفال، كانت جميعها تؤكد على أهمية هذا التاريخ. وإذا كان هذا قليلا، فإن العجوز «إلوى» قد أمضى المساء فى المطبخ، مشاركا فى الإعداد للعيد وأمر الفتاة بإحضار زجاجة نبيذ أحمر فاتح، وقال لها أخيرا بعد تهيئة كل شيء: «إجلسى، يا «ديسى». صدرت عن الفتاة حركة ريبة مثل التى تصدر عن زوجة جديدة فى أول ليلة لها وقالت: «لا أعرف ماذا جرى لى، ياسيدى». أبعد الكرسى قليلا: «أنت عبيطة، يابنتى؟ اجلسى». امتثلت الفتاة حينئذ، شدّت طرف الدثار وثبّتت بين ساقها ثم جلست. ملأ العجوز الكأسين بالنبيذ ثم رفع كأسه:

- من أجل الخطابات! - قال.

طأطأت رأسها:

- (أمّا بتطلع منك حاجات)، ياسيدى! - وبما أن العجوز كان ينتظر فقد أخذت كأسها أخيراً وأفرغته فى جوفها دفعة واحدة. وسرعان ما شاهدت «البيكانا» قريباً جداً منها وبدأت نشوة غارية تصعد من المعدة إلى القلب. قال العجوز بينما كان يأكل فى صخب:

- فى مثل هذا اليوم منذ أعوام طويلة، كان عمى «إرمس» يفتح لنا خزانة الملابس التى يحتفظ فيها بملابس أسلافه وكنت أنا و«لاروسالينا»، ابنة «لافويتيسانتا» وأصدقائنا نرتدى الأقنعة ويعقد لنا عمى مسابقة فى النوادر وأخرى فى الشعر وثالثة فى الأناشيد الدينية وكان يقدم للفائز فى كل مسابقة «دورو» من الفضة. ألم تشاهدى «الدوروس» الفضية، يابنتى؟

- أى «دوروس»؟

- المستديرة.

كانت الفتاة تحدّق بنظرتها المتلاشية المعالم وعندما كان العجوز يحسّ بعينها الكليلتين يتخلى مسرعاً عن مواصلة:

- كلى، يابنتى.

تنبه العجوز فجأة إلى أن «سوثيرو»، زوجة ابنة، لم توقع على الكارت علماً بأن هذا لم يكن يكلفها شيئاً، ولقتل هذه الفكرة فى المهد تناول جرعة أخرى من النبيذ الأحمر الفاتح فأحس بسرّان حرارته وحّدته ونشاطه أسفل ساقيه. ثم قال:

- لم تُفَتِّحْ مدريد فى يوم واحد.

- مدريد؟

- (شوفى)، يابنتى. مكتب التوثيق فى مدريد أكثر تعقيدا مما تتصورين .

كانت الفتاة تنظر إليه دون أن تعى ما يقول . كانت تفكر فى مجيئ
«البيكاتا» وغناؤه لها وحدها «الريليكاريو» و«لماذا تملكنى الأحزان»
بصوت كالهمس . قالت :

- هناك فى قريتى، فى مثل هذه الليلة، كان «ماركوس»، أخى النصف
شقيق والعبيط، يثير الضجة بأنفحة الخنزير ويزعجنا جميعا .

أخذ العجوز جرعة أخرى من النبيذ الأحمر الفاتح لكى ينسى «بيين
بائيث» وأفكاره السوداء عن المعاش . عندما تحدث، تشبث لسانه قليلا
بسقف الفم :

- هل لك أخ نصف شقيق، يابنتى؟

نظرت إليه متبرمة :

- كان لى - قالت أخيرا - براكسيدس، الثعلب، قضى عليه فى مكانه
بمذارة خلال فيضان ١٩٥٢ .

كان للنبيذ الأحمر الفاتح، وسكون الليل ودقات الأجراس البعيدة
الفضل فى إشاعة جوٍّ من الألفة بينهما . قال العجوز بصوت متلجلج :

- عندما ولدت مات أبى . لم أتناول عشاء ليلة عيد الميلاد ولا مرة
مع والدى . حدث لى نفس ما حدث للملك .

- الملك هو الذى يأمر وينهى فى كل شىء، أليس كذلك، ياسيدى؟

- نعم، يابنتى، له ولاية على كل شىء فيما عدا القدر . وكماترين
رجل كهذا كان لديه كل ما يريد، ومع ذلك لم يكن له أب .

شرب العجور من جديد لكى ينسى يّتمه . وأخذ جرعة نبّذ أخرى لكى ينسى جويتو، ابنه الصغير، الذى رحل دون انتظار فى الردهة .
أردف أخيراً :

- «بولدو بومبو» ، صديق قديم لى ، ذهب إلى مدريد على دراجة لكى يشاهد حفل تتويج الملك . استغرقت رحلته ست عشرة ساعة .

كانت رأسه تفور تنبت فيها الذكريات مثل فقاعات صابون تتحطم عند انفجارها وتذوب فى الهواء . كانت الفتاة تستمتع بتواجدها إلى جوار العجور ، منصّته لحديثه الذى لا ينتهى ، مدفوعة بحافز تواجد «البيكاثا» إلى جوارها بعد أيام قليلة وعندما شرع العجور فى سرد حكاية «لا أنتونيا» حنانه الأول ، تناسّت الطعام وعندما روى لها العجور الحكايات التى كانت تقصها عليه «لأنتونيا» عندما كان طفلاً ، لم تكن تطرف لها عين . . وعندما حكى لها العجور أن أخته «إيلينا» كانت تخرج ويدها الصليب من باب المطبخ وأن العم «أليخو» ، زوجها ، الذى كان عملاقاً وله يدان مثل يديّ قزم ، كان يذهب للنوم فى غرفته ويحدث نفسه حتى أنه كان ييكى أحياناً ، كانت «لاديس» تختنق بالبكاء . وأضاف العجور :

- كلى ، يابنتى - توقف قليلاً لكى يتلّع الطعام ، ثم أضاف : حدثت بعد ذلك واقعة انتهاك المقدسات ، وهذا أسوأ ما فى الموضوع .

- انتهاك المقدسات ؟ - سألت الفتاة بجفاء .

- خرجت أختى ويدها الصليب لكن العم «أليخو» كان ثملاً ، فسدد ضربة للصليب وأسقطه على الأرض ثم داس عليه وهشّمه . أوضحت أم لا ، يا بنتى ؟

أو مات الفتاة إيماءً مبهمه وكأنها تشير على نفسها بعلامة الصليب
تحول لونها إلى الأحمر القرمزي:
- يا للعداء! - قالت فزعة .

- وصاحت أختي بأعلى صوتها : «انتهاك للمقدسات» . «كفر» .
وعندئذ غادر البيت ومعه الهدية انفصلا في النهاية، وذهبت هي إلى
«بلباو» لتعمل مدبرة منزل في دير صديقتها «إيروينا»، وهذا ما كانت تريد
فعله منذ زمن طويل .

أما هو، فقد رحل إلى فنزويلا . إلى أمريكا، تعرفين؟ وبقيت وحدي .
لكني لم أعبأ بهذا وتحملت، وعندما ماتت نشرت لها نعيًا في الجريدة
وأقمت القدّاس على روحها خلال أيام العزاء التسعة . رفع فجأة الكأس
الممتلئ حتى منتصفه وقربه من كأس الفتاة ثم قال:
- من أجل عمي «أليخو» .

ارتجفت الفتاة:

- أمّا هذا فلا - قالت .

- حسناً، كما تريدن - قال . وشرب . بمفرده

بدأت الأجراس تتحاور بحماس من فوق الأسطح اللامعة بفعل
الجليد . أخذ شعور فاتر ومطمئن بالرخاء يترسّخ في خاطر الفتاة . بينما
كان العجوز مشغولاً بأكل سمك المرجان وانتزاع الشوك بإصبعه . انتهزت
الفتاة الفرصة لكي تشرب، وعندما انتهت، وضعت الكأس فوق المائدة
وسألت:

- وماذا كان من أمر «لأنتونيا»، ياسيدي؟

تلعثم العجوز :

- لا أنتونيا؟ . . . آه ! - استعداد انتباهه : شتان بين هذا وبين ما حدث لها .
- هذا . لقد ظلمت الفتاة . دائما يُؤخذ الصالح بذنـب الطالح . . ويكون
نصييـنا نحن الخادـمات أسوأ ما فى الموضوع . هذا ما تقوله دائماً
«لامارنى» ومعها كل الحق .

- لامارنى؟

- صديقتى التى تعمل فى الطابق الثالث - ردت «لاديس» وهى ثائرة .
كان العجوز يحس بسحابة تطفو داخل رأسه وتجعل معالم الصور
تتلاشى عنده .

نهض وقال بعناد ، وهو يتكىء على الحائط ومقطبا جبينه فى محاولة
للتركيز :

- هذا صحيح . الصالح بالطالح . فى غاية الصحة ، يابتنى . ابنى
«جويتو» هناك بعيدا ، مات ولم يفعل شيئا يسأل عنه لا أقول هذا لأنى أبوه
بل لأنه بالفعل لم يسـء لأحد أبدا .

تشبث بظهر الكرسي :

- هيا ، إجلس - قالت الفتاة بلهجة أمرة - . لو وقعت الآن سيكسر لك ضلع .
امثل العجوز . جلس بتأقل لأن ساقيه بدتا وكأنهما استبديلتا بملاص
كثيرة تلتف حول أرجل الأثاث مثل أخطبوط . قالت الفتاة وهى تشير إلى
الأنف : «سيدى ، المنديل» . «آه ، حسنا» ، قال العجوز دون أدنى خجل ثم
أضاف بعد أن تنظف وحفظ المنديل فى جيبه :

- كان «ليونثيتو» معجبا بالكتب لكنه كان نحيفا ، ولكى نغذيه بما فيه
الكفاية ، قررنا شراء لحم خنزير مجفف له وفى كل مرة كان يقترب فيها

أخوه من شرائح اللحم تثور ثأثرته. كنت أقول لزوجتي حينئذ: «هذا الفتى لابد وأن يفوقنى». وكما ترين، يابتنى، فقد أصبح موثق عقود فى مدريد وهو فى الثانية والأربعين.

أخذت «لاديس» جرعة نبىذ أخرى. كان خدّاهما متوردين وأحست بجلد وجهها مشدودا وكأنه مشمّع. قالت:

- ماركوس، أخى النصف شقيق... .

التفت إليها العجور، فى كثير من الاهتمام:

- هل لك أخ نصف شقيق، يابتنى؟

هاجت هياجا مشوبا بالغضب والحيرة. قالت بصوت يقترب من الصباح:
- كفّ عن هذا الاستخفاف.

كان صخب الأجراس يزداد وضوحا وقُربا. كان يتسلل عبر الزجاج الذى يُلْفُه الضباب مثل تسكّل عذراء «لاجيا» من ثنايا القبة العالية فى كل مرة يهز فيها مساعد القسيس الجرس الصغير أيام الأحاد أثناء قدّاس السابعة فى «سان پدرو».

كان الجو حارا فى المطبخ ونبتت تحت عيني العجوز حلقتان ورديتان. نظر إلى الفتاة، التى أمالت رأسها وانهالت على أذنها ضربا براحتها:

- ستؤذين نفسك، يابتنى.

- لقد بدأت. كأن بداخلها بعوضة.

بالضرب لن تتوصلنى إلى نتيجة.

ابتسمت، ثم قالت:

- لايفلّ الحديد إلا الحديد .

لكن «البيكاثا» كان يرفرف عندها فى اللاوعى تَمَنّت أن تعلن الأجراس
نخبر قدومه . قالت بغتة :

- لن تتأخر عن حضور حفل رفاڤى عندما أتزوج .

نظر إليها العجوز وكأنه عائد من عالم آخر . تشكّل فوق عينيه شيء
أشبه بالغشاوة البللورية :

- أين ، يابنتى ؟

- مرة أخرى ! طبعاً فى قريتى .

تملكه الحماس فجأة :

- سأذهب بصفتى كفيل ، هذا ما اعتقد . سأكون كفيل حفل زفافك ، يابنتى !

- اتفقنا - قالت الفتاة . ثم أضافت بعد لحظات من الصمت : يالها من
حفلة ! تلك التى تُقدّم فيها المرطبات . يبدأ الفتيان وكأس تروح وكأس
تأتى ثم يشكلون جوقة ويغنون : «مع البين - بيريبين ، مع البان - بارابان ،
بمبان ، من لايعجبه النيذ فهو حيوان» . يالها من سهرة !

أبدى العجوز «إلوى» اهتمامه :

- كيف يكون هذا ، يابنتى ؟

- ماذا ، الغناء ؟ هكذا يكون : «مع البين - بيريبين ، بيمبين - مع البان -
بارايا ، بمبان . . .» .

نهض العجوز بصعوبة . أحسّ فى صدره بالهياج المُفرح والمُحزن للأجراس :

- هيا ، يا «ديسى» - قال وهو يمدّ ذراعيه كمن يدعوها للرقص .

وقفت الفتاة على قدميها فأخذها العجوز من يديها وتحت اللمبة الضعيفة التي لاتزيد عن ٢٥ فولت، بدأ الإثنان فى الدوران المحموم وظلالهما تتضاءل وتتضخم فوق الحوائط دون توقف، وأصواتهما الغير متجانسة كانت تهدر فى مواجهة الخواء والعزلة والخوف:

- مع البين - بيريين، ييمين - مع البان - بارابان، بمبان - من لايعجبه النيذ - فهو حيوان!!! مع البين - بيريين، ييمين - مع البان - بارابان . . . !!
- توقف الأرض تدور بى . . . !

كان العجوز يضحك ، ويضغط كل مرة بشراة أكثر على يدى الفتاة الخشتين:

- هيا!! مرة أخرى، يا «ديسى». بصوت أشد.

- مع البين - بيريين، ييمين - مع البان - بارابان، بمبان . . . !!
«لا أنتونيا»، «جويتو»، «لوثيتا»، «بيسين باكيث»، «ليونثيتو»، «بولدو بومبو»، العم «أليخو» وابنة «لافويتيسانتا» كانوا يرقصون حولهما، كانوا يقتربون ويبعدون بطريقة جنونية وكان العجوز «إلوى» يغمز بعينه ذاهلا، وعندما ينتهى يضحك ويصيح:

- بصوت أشد !!! بصوت أشد !!!

- توقف الآن، ياسيدى، الأرض تدور بى!!

وعندئذ يضغط أكثر على يدى الفتاة اللتين تتصببان عرقا:

- مع البين - بيريين، ييمين - مع البان - بارابان، بمبان - من لايعجبه النيذ - فهو حيوان!!!! مع البين . . . !!

- أترك يدى، ياسيدى، أنت تؤلمنى!!!

لم يكن يسمعها:

- مع البين - بيريين، ييمين - مع ال !!

دقّ جرس الباب فجأة فتوقف العجوز والفتاة أتوماتيكيا. تشبّث العجوز «إلوى» بظهر الكرسي وظل هكذا لبعض الوقت وعيناه مُسمرتان على الأرض محاولا الاعتماد على ساقيه الواهنتين. قال، بعد عدة ثوان:

- الباب يدق يا «ديس»، افتحي.

خرجت الفتاة وهي تترنح وعندما عادت كان العجوز قد جلس على الكرسي واضعاً رأسه بين يديه. عندما سمع «لاديس» رفع وجهها اعتراه الهزال والشحوب فجأة. قالت الفتاة خجلة:

- إنها فتاة الطابق الأسفل؛ ترجو منا الكفّ عن الضوضاء؛ يوجد مريض . . .

بالرغم من انتظارهاله اليوم السابق بطوله، هكذا، وبدون مقدمات، فى ظلّ السّلم وبتلك الثياب والقبعة التى يغطى خيالها العينين. لم تعرفه «لاديس».

قال، فى جسارة تشوبها الهيبة، محاولا وَصَلَ علاقتهما بالماضى:

- م . . . ماذا تقول الجاهلة الأكثر جهالة من كل الجاهلات؟

- «بيكاثا»! - صاحت حينئذ بحنان.

كان «البيكاثا» يتأبط علية أحذية من الكرتون عليها بقع من الشحم، مربوطة بحبل. ظل الفتى عدة ثوان على عتبة الباب، الوقت اللازم لكى تعتاد «لاديس» على الظل ولتفحصه بالزّى الجديد. لم ينزل الحماس من على وجه الفتاة. رفعت يديها إلى فيها وقالت متحيرة:

- آى، اماء! (مين كان يقوللى)، هيا. ادخل.

تقدم مزهوا فى الممر بساقيه القصيرتين المقوستين، مجرجرا الحذاء الأسود ذى النصف رقبة على الخشب المتآكل. بعد أن دخل المطبخ، أزاح القبعة إلى الخلف، جلس على الكرسي الذى اعتاد العجوز الجلوس عليه كل صباح ووضع مرفقيه على فخذه. كانت الفتاة تتأمله وهى شاردة، يداها الضاربتان إلى الحمرة معقوفتان فوق حجرها، ملامحها الخشنة مضاءة بابتسامة حنون. لكنه، على خلاف العادة، بدا مرتبكا، مُشوّشا وشاردا الدهن.

حاولت «لاديس» التّقرّب منه:

- تعرف أنك لائق فى الزّى العسكرى؟

- يـ . . . يمكن .

لمحت المعدن المذهب فوق متوازي الأضلاع الأحمر الموجود على
طَيَّتى صدر السترة :

- ظننتك ستلتحق بسلح الفرنسان .

- ١ . . . ابن عم «دون أولبيانو» جعلنى جندى مراسلة ، أنظرى هنا -
قال مبررا .

قطعت الفتاة حبل العلة وقدمت له بعض الشطائر . كان «البىكاثا»
يلتهم الطعام دون أن ينظر إليها ، منزويا ، مثل كلب فى بيت غريب .

حاول الفتى مرتين تقلد طابع الجرأة لكن المدينة ، وتلك الشياب ،
كانت تثقل كاهله . كان يرتفع بينهما حاجز غير مألوف من الوحشة . كانت
تظن أن «البىكاثا» ، بمجرد أن يصل ، سيحكى لها عن أشياء من هناك
وسىغنى لها «الريليكاريو» و«لماذا تملكنى الأحزان» . لكن «البىكاثا» لم
يكن يفعل سوى التهام الطعام دون أن ينظر إليها ، منزويا ، مثل كلب فى
بيت غريب .

حاول الفتى مرتين تقلد طابع الجرأة لكن المدينة ، وتلك الشياب ،
كانت تثقل كاهله . كان يرتفع بينهما حاجز غير مألوف من الوحشة . كانت
تظن أن «البىكاثا» ، بمجرد أنى صل ، سيحكى لها عن أشياء من هناك
وسىغنى لها «الريليكاريو» و«لماذا تملكنى الأحزان» . لكن «البىكاثا» لم
يكن يفعل سوى التهام الطعام وإذا سألت عن شىء ، أجابها دون أن يرفع
رأسه على خلاف عادته فى القرية كل مرة يستعد فيها للتحدث أو الغناء ،
فقد كان من الممكن - على حد قول «كولويكو» خادمة القسيس - رؤية
خلايا مخه من فتحتى أنفه الصغير .

والشيء الأخير لم يتغير فيه، فالبيكانا، كما كان يفعل في القرية، عليه أن يستعد(*) إذا أراد أن يقول شيئا، لأنه طبقا للكلام «دون خير ونيمو» الذى يُكنّ له كثيرا من التقدير - يحدث له نفس ما يحدث للطائرات التى تحتاج لبعض الوقت حتى تتمكن من الإقلاع.

- ال . . «الكارابلانا»، خطيب كريسبولا، سيؤدى الخدمة العسكرية فى المغرب.

- ياللعذراء، كيف ستستقبل «كريسبولا» هذا الخبر!

- خ . . خمنى أنت.

خيم الصمت من جديد . . تعاضم القلق فى قلب «لاديس». استعانت بكل الوسائل لتقيم جسرا من المودة بين الاثنين. قطعت السجق بالسكين:

- تناول شريحة من السجق؛ لاتكن خجولا.

كان يأكل دون أن ينبس بينت شفة، دون أن يوجه إلى الفتاة نظرة واحدة من عينيه، الشديدتى الالتصاق واللتين تبدوان كعين واحدة عندما يدقق النظر بهما. كانت «لاديس» تفكر فى «ماتيلدى» وغصة مؤلمة تتشكل أعلى صدرها.

قالت فى محاولة أخيرة:

- أمّاه، شكلك لم يتغير.

- أ . . . أنا دائما هكذا.

* Tomar carrerilla تعنى: اخذ خطوتين قبل بدء الرقص. ومعناها فى الجملة ان «البيكانا» عندما يشرع فى الكلام فإنه يحتاج لوقت واستعداد لكى ينطق بالكلمة الأولى... المترجم.

- يجوز، لكن بعد قضاء وقت بالمدينة فإن الأمر يختلف - عندما تنتهى من الخدمة العسكرية ستكون قد نفضت عن نفسك غبار القرية؛ هذا ما يحدث للجميع .

- ج . . (حنشوف). هذا لا يمكن التنبؤ به .

جرت الفتاة أشكالا جديدة للاتصال، دون فائدة. فالفتى كان يتحصن داخل صمت متوحش بعد مضي بعض الوقت وعلى خلاف ما كانت تنتظر نهض. خرج صوت «لاديس» بصعوبة قالت له من على الباب: «إبقى عدى، تعرف الآن الطريق». وسرعان ما وجدت نفسها وحيدة فصعدت عند «لامارثى» وأجهشت فوق صدرها بالبكاء. كانت «لامارثى» تقول: «هيا، ياحلوة، دعك من هذا».

وتتحب «لاديس»: «لايحبني»، يامارثى. الآن لا يحبني. . . ولامارثى تربت على ظهرها: الرجال غيره كثيرون. لم يكن هذا الكلام يسليها، فقد كانت معدة على مقاس جسارة البيكاثا وتطاولاته وهذا السلوك الخائر والغير مفهوم من جانبه، كان يفزعها. «ليس هذا البيكاثا الذى أعرفه لقد غيرته الحقيرة ماتيلدى». فترد عليها «لامارثى»: «هونى على نفسك ستموتين كمدا».

أمضت «لاديس» أياما سيئة منذ أن أخبرتها «لاسليينا»، أختها، بقدوم «البيكاثا».

خرجت ثلاث أمسيات مع «لامارثى» وفى الثالثة لم تكن قررت بعد شراء السترة الخضراء المنقوشة بالأحمر. أدخلها اهتمامها بأثاث عش الزوجية فى نفقات كثيرة وقد حضر البيكاثا قبل ما هو متوقع. . . ومن جهة أخرى فقد أنهكها أيضا رسم الخطط مع «لامارثى» وهما تتحدثان فى مسقط النور. كما كلفها هذا الشجار مرتين مع «لاتاسيا»، التى كانت

لا تمل من التعريض بها قائلة أنه من الأفضل لها انتظاره جالسة لأنها ستتعب من طول الوقوف. لم تعتقد «لاتاسيا» بوجوده أصلاً. وقد كان يسعدها توبيخها على ما فعلته ليلة رأس السنة: «هيا، نسيت نفسك مع العجوز، لو لم أصعد لجاء عاليها واطيها». كانت «لاديس» تثور وتصبح فيها لكى تمسك لسانها، وتصفها بحقيرة ومؤذية، لكن الأخرى كانت تمد رقبتها، مثل الدجاج أثناء الشرب، وتقول: «الحقائق تؤلم». كانت «لاديس» ترتعد من مجرد التفكير في انتشار الإشاعة وتصور «البيكاثا» لشيء لم يحدث ولهذا فلإنها كانت تفضل أن تسخر «لاتاسيا» وتقول أن عليها الانتظار جالسة لأنها ستتعب من طول الوقوف، حتى تستطيع التظاهر بالغضب من هذا الكلام بقصد أن تتمادى «لاتاسيا» في هذا الجانب وتنسى الآخر.

فى المساء، بعد أن انتهت من غسيل الأواني صعدت «لاديس» عند «لامارثى» من جديد. لم تستطع التزام الهدوء. كانت أكثر سكينه لكنها عادت لتزرف بعض الدموع قالت لصديقتها أنها لاتعرف ماذا دهى «البيكاثا» فهو نصف مذهول ولا يتكلم، لا يضحك لا يمد يده، ولا أى شيء.

تغضنت شفتاها المتشققتان عن تبوية لتقول:

- آى، يا «مارثى» على مزاحه الذى كان لا يكف عنه! لقد تغير.

لكن «البيكاثا» عاد المساء التالى وبدأ قلب «لاديس» فى الخفقان الغير منتظم عندما أحست بتلك الرائحة المميزة التى تجمع بين رائحة العرق الآدمى ورائحة الإصطبل والجلد المنقوع فى الشحم. لم يكن «البيكاثا» المعهود بمرحه العدوانى وحركاته الصبيانية بل إنه حتى لم يقص عليها شيئاً مما هنالك مثل حكاية المعجزة أو عش اللقلاق كانت تقول لتشجعه:

- كانت كدمة من أثر ركلة .

د . . . دعك من هذا لقد كان لها قلب حقيقى وبها دم وكل شىء كان القسيس يرى ضرورة فحصها قبل الإدلاء بأى تصريح لأن «لاتينا» عندما تسللت من بين قدمى الذكر لتُخرج هذه الخليقة استعانت بقولها: «ياقلب يسوع، أنقذها». وعندما خرجت كانت تحمل فوق ذراعيها قلبا أحمرًا حسن التصوير .

- شىء مدهش .

- ل لقد حدث هرج ومرج بين أهل القرية جميعا، وتَجَمَّعت أكثر من ألف نفس بدار «لاتينا» .
- وعش اللِّقلاق؟

- ج حظ عاثر، ليس إلا . . لو سقط العش قبل دقيقة، لما حدث شىء؛ ولو سقط متأخرا دقيقة، لاشىء أيضا. لكنه سقط عندما كان التوأمين يلهوان تحت البرج، والباقي معروف. طبعا وزن العش كان ثقيلا جدا.

قطبت «لاديس» جبهتها الضيقة:

- ياترى إيه شعور «لاكنديلاس دلوقتى»

- خ خمنى أنت.

فكَّ الفتى بعد ذلك أزرار السُّترة، أخرج ورقة متسخة من الجيب الداخلى وقال:

- يعدُّ القسيس لاحتفالات العذراء هذا العام إعدادا غير مسبوق . . ما حدث فى السنوات الماضية لايساوى شيئا بالمقارنة بهذا.

بسط الورقة وقرأ بنغمة روتينية يتخللها بعض التردد:

١. انطلاقاً من خالص الحرص على إعادة الروعة
لاحتفالاتنا بعدراء «لاجياً» بما يتناسب وماضيها التليد، فإننا نطلب العون
من أبناء القرية، ونحن على ثقة بأن يجد هدفنا الصدى الذى يستحقه من
أجل تمجيد الرب وقديستنا عدراء «لاجياً».

ب. بيان بالنفقات

ت. تسع قداسات، إضاءة طوال العام، حقوق القسيس، مساعد
القسيس، شموع، الخ. ٤١٠٥ بيزيتة
مواعظ ديسمبر الثلاثة (التكلفة التقريبية، نحن فى سبيل استيفاء
الإجراءات مع الأب فيديريكو). ٣٠٠٠٠ بيزيته
أ. الألعاب النارية. ٥٠٠٠ بيزيتة
أ. المشروعات (التكلفة التقديرية) ٣١٧٥ بيزيتة
أ. الخطابات والمراسلات. ٧١٠ بيزيتة

إ. إجمالى ١٥٩٩٠ بيزيتية

ك. كل فرد يمكنه التبرع بالمبلغ الذى يريده، وسيتم توزيع
المرطبات بما يتناسب وحجم التبرعات. من سيساهم بأكبر مبلغ سيكون
من نصيبه ميدالية بداخلها صورة لعدراء «لاجياً» وستعلق على طية سترته
بشريط صغير عليه العلم الوطنى. . . وكل من يساهم بأكثر من خمس
بيزيتات سيحتل مكاناً بارزاً فى الاحتفال الدينى.

- ل . . . لو ساهم كل فرد فلن يكون المبلغ كبيراً .

- أ . . . اشترك فى الإعداد للاحتفال بعذراء «لاجية» .

عندما انتهى «البيكانا» ، كانت «لاديس» على وشك الاعتراف بأنها
ايضاً تعرف القراءة لكنها قررت عدم التسرع فى الإفصاح عن المفاجأة
. . . ودون أن تتفوه بكلمة نهضت ، خرجت ثم عادت ومعها بيزيتة مطوية
بعناية أربع طيات :

- خذ - قالت - أعطها للقسيس نيابة عنى .

وضع البيزيتة بإصبعه الأوسط فى الجيب الداخلى للمسترة ثم قال :

- و . . . وصل المبلغ الآن إلى عشرة آلاف وخمسمائة بيزيتة . بالمزاد
على الطائر البنى جمعوا أكثر من سبعمائة بيزيتة من المدرسة وحدها .
قطبت الفتاة جبينها :

- المزاد ؟

- ج . . . حمل المدرس الطائر و«التشيتشو» ، ابن «لاكريسبولا» ، رفع
الرقم إلى ٣٢٥ بيزيتية فقال له المدرس حينئذ : «هذه النقود من أجل
القديسة العذراء ، أناخذ الطائر أم نعرضه فى مزاد آخر ؟» . فجن الصبي
وقال نتركه لمزاد آخر .

وبقيت الثلاثمائة خمس وعشرون للقديسة . . وبهذا الشكل جمعوا
أربعمائة بيزيتة ، ومن فصول الفتيات ثلاثمائة أخرى وبما أن أحدا لم يجرؤ
على أخذ الطائر فقد تركوه عند قدمى العذراء . ويتناقل الناس الآن القول
بأن ثبات الطائر وعدم طيرانه يعتبر معجزة أخرى للعذراء .

كانت الفتاة تنظر إليه باهتمام :

- ألا يستطيع الطيران من مكانه عند قدمى العذراء؟
ابتسم «البيكاثا» ابتسامة العالم ببواطن الأمور:
- ل... لقد أعطاه لى المدرس، وفتفت ريشه بنفسى.
- أيقدر على هذا ، «دون فيديل»؟
- ل... ليس «دون فيديل»، بل الجديد. «دون فيديل» ترك القرية منذ عامين.
لم يكن القسيس يطيق حتى رؤية صورته. لاتقولى لمخلوق كلمة عن
نتقف ريش الطائر.
عندما ذهب «البيكاثا» كانت «لاديس» أكثر هدوءاً فى المساء، وهى بقميص
النوم وذراعاها معقوفان طلبت من عذراء «لاجيا» أن يحبها «البيكاثا».
فى مساء اليوم التالى، ارتدت السترة الخضراء المنقوشة بأحمر لأول
مرة لكى تستقبله، وبالرغم من عدم تعليقه بشيء فقد لاحظت من خلال
نظراته الجريئة المختلصة أن الأمور بينهما قد تغيرت. كرر على مسامعها
بعد ذلك وهو يدقق فيها من فوق لتحت:
- أ... أتعرفين أن المدينة تناسبك؟
خافت الفتاة من أن يعتريه الطابع السيئ ولو أن هذا كان أفضل نظراً
لما تسير عليه الأمور بينهما. كانت «كولويكو»، خادمة القسيس تؤكد
على أن «البيكاثا» فتى طبيعى ما لم يملكه الطابع السيئ فإن سيطر عليه
فهو أهل لارتكاب أى جرم وقتها أحياناً، فى الجنازات الباذخة كان
«البيكاثا» يخرج صوتاً معتما وكأنه صادر من أعماق القبور بقصود تخويف
العجائز، اللاتى كنّ يعلقن على هذا بعد الخروج من الكنيسة بقولهن:
«ياللمسيح، يالشيطان «البيكاثا»؛ لقد حبس اليوم أنفاسنا».

عندما ما قتل العققق ضربا بالعصى وعندما نتف جناحي الطائر البنى
وعندما كان كان يضايق «لاديس» فى الخلاء، فإن البيكاثا» كان يتصرف
كذلك تحت تأثير الطابع السيىء، لكن بعد الجمود الذى وجدته عليه
«لاديس» منذ اليوم الأول لقدومه فإن هذا السلوك السيىء من جانبه لم يعد
يقض مضجعها.

شرع «البيكاثا» فجأة فى الترتم بأغنية «خاليسكو» وبساق فوق
أخرى كان يتابع اللحن بفمه . لم تقاطعه عندما كان يتحرك «البيكاثا»
كان يملأ المطبخ بتنانة تختلط فيها رائحة العرق برائحة الإصطبل
والجلد المنفوق فى الشحم . كان هو الذى أفلح عن الدندنة بمبادرة
منه ليقول بابتسامة مُغترّة:

- ط . . طالما ظل «البيكاثا» فى الجيش فلا مكان فى القرية للأفراح
أو المآتم الباذخة .

وضع القسيس إعلانا بهذا على باب الكنيسة . . إذا لم يغن «البيكاثا»
لأشئ يمكن عمله .

رَبَّتْ على كتفه فى مودة:

- يا لها من أهمية، يافتى .

- لـ لأنى أستطيع

- سنرى .

انفتح فراغ من الصمت ولملئه، ضغطت الفتاة على أذنها الموجبة
عدة مرات براحة اليد .

- لـ . . لايزال هذا؟

- لم يقطع أبداً . . عندما يأتى الشتاء تبدأ فى الطنين وكأن بها ذبابة .
- ت . . تركت لك الحمة «لاكايا» أثرا من عندها .
- وياله من أثر!
- وضع الفتى ساقيه على بعضهما من جديد وهزّ قدميه .
- هل أفرج عن الثعلب؟ - سألت .
- ه . . هيا! سيكمل السنة فى الحادى والعشرين من الشهر القادم .
- كان «البيكاثا» يتململ . لاحظت «لاديس» هذامن تغييره لجلسته باستمرار . قالت لنفسها: «بعد يومين من الآن سيعود «البيكاثا» سيرته الأولى» . لكنه لم ينتظر كثيرا . وقف فجأة ثم اقترب منها وضمّمها بنظرته الحارة اللافتة :
- س . . سأخرج ، ينتظرنى بعض الأصدقاء - قال ، ودون سبب جلىّ ،
- وضع يده اليمنى على مؤخرة الفتاة وضغط بشدة عليها :
- أ . . . أتعرفين أن المدينة رادتلك حلاوة؟
- انسحبت ضاحكة :
- «بيكاثا»، لا تبدأ من جديد .
- أوهنتها الرائحة التينة التى تجمع بين رائحة الجلد المنقوع فى الشحم ورائحة الإصطبل والعرق الأدمى . قال :
- غه . . . غدا سأنتظرك عند الباب .
- حسنا .
- كان يمشيان تجاه الباب :

- ف . . فى تمام الرابعة .

- حسنا .

أمسكت بسُقَاطة الباب لكنه مد يده من جديد فجفلت إلى الخلف
وهى تُقهقه . لكنه كان يتبعها وهى تضرب يده وتقول : «إمش ، يا عديم
الحياء ، إلزم الهدوء» .

وأخيرا ، مضى «البيكاثا» ، فتنهدت «لاديس» بعمق ثم أسندت خدّها
على الباب مبتسمة وظلت هكذا بلا حراك حتى تلاشى وقع أقدام الفتى
هناك تحت ، فى عمق فتحة السلم .

قال العجوز عيسى وهو يجلد الهواء بعكّاره مستبدلاً ابتسامته الوردية
بتعويجة فم مبهمة تنمّ عن الخطورة:

- (تعرف مين اللى تعبان حبتين؟)

نظر إليه العجوز «إلوى» بحدقته الكليلتين وسأل بطرف لسانه:

- من؟

- «بينتادو»، بائع الحداثد.

- لقد بلغ من الكبر عتياً.

- ماشى فى الخامسة والسبعين؛ لا أويده عاما واحدا.

مرّر العجوز «إلوى» المنديل على طرف أنفه. جولاته اليومية مع
عيسى يرجع تاريخها إلى ١٩٣٠. حتى هذا التاريخ، كان العجوز «إلوى»
وصديقه عيسى يسألان بعضهما عند اللقاء: «تعرف مين أصبح له
وريث؟». بعد ١٩٣٠ تحول السؤال إلى: «تعرف مين اللى تعبان
حبتين؟». كانت المدينة تجدد تيارها البشرى دون هوادة وتعود العجوز
«إلوى» أن يقول عند اقترابهما من المقابر وهو يشير بإصبع مرتجف إلى
أسوار المكان:

- لدى هنا، داخل هذه الأسوار، معارف وأصدقاء أكثر بكثير مما
يوجد خارجها. يحدث هذا دائما للعجائز أمثالنا.

ثم ينظف أنفه. فيقول عيسى: «أفكارك القاتمة لاتفارقك». منذ ثلاثة أشهر، كان العجوز «إلوى» يردّده الخالد: «رضيت أم كرهت، فقد طالعتنى الورقة الحمراء فى دفتر الفرة. إنه لنذير».

لم تكن «لوثيا»، زوجة العجوز، تطيق عيسى، وفى حياتها كانت تسأل زوجها باستمرار عما يراه فى هذا الرجل حتى يتحمّله كل يوم. . لكنها كانت تجهل أن وراء عيسى تتواجد مدام «كاتروكس»، الفرنسية، ومدرستها الابتدائية؛ ويتواجد «بولدو بومبو» ورحلاته على الدراجة وكرات الدكتور «ساندون» للجمباز؛ وتتواجد «إيلينا» والعم «أليخو» و«لانتونيا» و«إمّا أبوت» و«روباتشول» وحنانه الأول؛ وتتواجد «لاروسينا»، ابنة «لافوينسانتا»، الخادمة القادمة من مرسية، و«لاباكيئا أوردونيث» وعشها ودار الحمامات العامة و«بيبين باثكيث» وأفكاره السوداء عن الأشياء؛ وتتواجد فتيات «الفيجارو» و«هيات المحلفين المختلطة» و«كونت أليناس» وترويج الملك؛ ويتواجد العم «إرمنس» وإشراقاته العبقريّة والبنك التعاونى والآن، وبمضى الزمن، تتواجدت هى نفسها «وجويتو»، ابنه الصغير، وحياة بأكملها.

كان العجوز «إلوى» يقول أثناء توقفه باحثاً عن وجه الشمس:

- تعرف أننى تغاضيت كليةً عن مافعلته معى أختى «إيلينا». وعندما ماتت، أقمّت على روحها القدّاس طوال أيام الجنّازة التسعة ونشرت نعيها بالجريدة وكان شيئاً لم يكن.

جلد عيسى الهواء بعكازه. اعتادا التجول لمدة ساعة ونصف، وعندما تنحدر الشمس، بعد ذلك، يبحثان عن ملاذ بجوار حوائط «سان إلديفونسو» الخضراء الرمادية مثل كل العجائز المحالين على المعاش وأطفال المدينة الغير مكلفين.

كان عيسى يقول فجأة:

- إمش رويدا رويدا.

ويستأنفان السير لكي يتوقفان من جديد بعد خمسة عشر أو عشرين مترا.

إنصافا للحقيقة، فإن العجوز «إلوى» كان قد فقد دفء «لانتونيا» قبل حادثة انتهاك المقدسات وبالتالي قبل رحيل أخته «إيلينا» من مدبرة منزل فى «بلباو» إلى دير صديقتها «إيروينا». لو لم تكن «لانتونيا» قد أصرت ذلك الصباح على أن يرافقها لحضور جنازة الكونتيسة أو أن تقصّ على مسامعه بعد ذلك حكاية الرجل الذى تقمص شخصية خادمة لكي يسرق بيت رجل غنى، فلربما مات دفؤه مئة طبيعية، بعد استهلاكه. لكن «لانتونيا» كانت من هواة الجنازات المحترمة واعتادت اغتنام فرصة الخروج للتسوّق لكي تلقى نظرة على جنازات الشخصيات الهامة والتلذذ هكذا بالإحساس بنعمة الحياة وبالإشفاق على هؤلاء الذين تفرحت عيونهم من كثرة البكاء فى صدارة الموكب. قالت له ذلك الصباح «ستأتى معى اليوم يا وسيم الوجه، إلى جنازة محترمة». وذهب الصبى معها. كانت القطيفة السوداء تغطى منصة التابوت الضخم ومن الجوفة تتساقط ابتهالات معتمة وقربت «لانتونيا» شفيتها السميكتين من أذنه وأخبرته: «تحت الأكفان يرقد الموتى». كن طبيعيا؛ توجد مجموعة منهم». بدأ الصبى يرتجف والتصق بها: «كم عددهم، يا «لانتونيا»؟» سألها هامسا. «عشرة أو ثمانية على الأقل. ألا ترى ضخامة التابوت؟»، أجابت. لم يفلح الصبى فى السيطرة على أعصابه. أضاف: «لماذا هم هناك؟». أجابت: «لكى يرشهم القسيس بالماء المبارك حتى لاتجرّهم الشياطين من شعورهم إلى الجحيم».

عندما خرجا من الكنيسة، كان الصبى - الذى أصبح العجوز فيما بعد - يتنفس بخشونة وكأنه ينتحب، ويرتجف من جرّاء أى ضجيج غير متوقع. ومع هذا فقد كان من الممكن نسيان ما تقدم لو لم تعزف «لا أنتونيا» على نفس الوتر ساعات بعد ذلك وتحكى له قصة الرجل الذى تقمّص شخصية خادمة لكى يسرق بيت أحد الأغنياء ووضع فوطتين على صدره واكتشف أمره لأن سيدة البيت ضبطته ذات صباح وهو يحلق ذقنه فى خزانة الأطعمة والفوطتان على الكرسي. كان الصبى يردد فقط: «نعم، يا أنتونيا». ومن يومها بدأ ينسلخ عنها شيئا فشيئا، متأملا وهو خائف شعيرات شاربها المتهدلة وعنقها المتين وساعديها المُشعِرَين وعندما دق جس الباب ركض هاربا واحتمى بساقي العم «أليخو» بينما كان يصيح فى هستيرية: «لا أنتونيا» رجل مُتَخَفٌ يا عمى، اطردها». كانت «لا أنتونيا» تنظر إليه دهشة وتقول: «ماذا جرى اليوم للصبى؟». والصبى يكرر فى إلحاح: «اطردها، يا عمى؛ إنها رجل! ألمسها، تضع فوطتين هنا». لكن العم «أليخو» بالرغم من جسامته لم يقرر اختبار صدر «لا أنتونيا» للتحق مما إذا كانت تضع فوطتين أم لا وزادت حيرته من فزع الصبى. كان هياجه كبيرا لدرجة أنهم نقلوه مؤقتا لبيت العم «إرمنس» إلى أن جرى ما جرى بعد عدة أيام من انتهاك المقدسات وذهاب أخته إلى «بلباو» لتعمل فيها مدبرة منزل، ورحيل العم «أليخو» إلى فنزويلا، أما «لا أنتونيا» أو من يكون، فذهبت لتعمل عند السيدة «إيميليا» حاضنة أطفال.

لكن العجوز «إلوى» عندما اعترف لصديقه عيسى بتغاضيه عما فعلته معه أخته «إيلينا» فإنه لم يكن يقصد انشغالها عنه بل مسألة المجوهرات.

العم «إرمنس» كان هو الذى أخبره ذات يوم، بحسن نية، بالمجوهرات التى تركتها والدته؛ وعندما بلغ العجوز الثالثة والعشرين كتب إلى أخته فى

«بلباو» فأجابه بأنها قد تبرعت بها للدير منذ عشر سنوات وأن هذا هو أفضل مصير لها، ومع هذا، فلو كان لا يزال يريد الحصول على نصيبه فإنها ستبيع ملابسها وتقتصد في النفقات لكي تسدد له نصيبه، لكنها لا تتصور أن أخاها مهتم بهذا الموضوع. ومن ثمَّ فقد رد العجوز قائلا بأنه لم يقصد ذلك وأنه راضٍ بما فعلت وسألها عن العم «أليخو» وهل لا يزال في 'نزويلا'، لكنه لم يتلق ردًا على هذا الخطاب أبداً.

كل مرة يتوقف فيها العجوز «إلوى» كان يبحث عن وجه الشمس ويترك نفسه ليتلفف بشعاعها مستمتعاً. قال لصديقه عيسى:

- العم «إرمنس» كان رجلاً عظيماً. كان يقول أن أبى كان بإمكانه أن يكون شخصية هامة لكن آل «نونيت» يبدون مواهبهم دائماً.

نظر إليه عيسى وابتسم وطوّح عصاه في الهواء ثم قال:

- إمش رويدا رويدا.

على جانبي الطريق كانت تنتصب أشجار السنط العارية ومن خلف المرتفعات تتراءى البساتين وأكواخ الضواحي القرية. الشمس، الشاحبة اللدنة، تنشر بالكاد ظلالاً فوق الأسفلت. كان العجوزان. المنحنيان، بعض الشيء، يتقدمان بخطوات قصيرة متمهلة. كانا يدركان أن للشمس مواعيدها ولا مجال للمخاطرة.

عندما انتقل من دفء «لا أنتونيا» إلى دفء العم «إرمنس»، لم ينبهه أحد إلى الاختلافات في درجات الحرارة. في أمسيات الشتاء، بجوار الموقد، كان العم «إرمنس» يكون أشكالا هندسية معقدة وكان الصبي و«لاروسينا»، ابنة «فوينسانتا» يساعده بالبحث عن قطع وعندما يعثر أحدهما عن قطعة مناسبة يصفقون له مبتهجين ويقول العم «إرمنس»: «حذار، حتى لا نهدم ما شيدناه».

أحيانا أخرى كانوا يلبسون أقتعة وبعد أن يتحول الثلاثة إلى شخصيات فاشية يتبارون فى إلقاء الأشعار وكان العم «إرمس» يملك صوتا جميلاً وعمقيا مثل المنشدين. بعد ذلك، ومع الأحد الأول من فصل الربيع يأتى المهرجان الكبير للبنك التعاوني. البنات والصبية كانوا يتجمعون فى الميدان ومعهم الآباء والأمهات، ومن هناك إلى «أشجار اللوز المزهرة» يذهبون فى قافلة مبهجة تشدو بالحنان المؤسسة:

مهلا مهلا، يا رائد.

البنك التعاوني.

مهلا مهلا، يا رائد

البنك التعاوني.

سنغرس الشجيرات

كان البعض يشد عن المجموعة أو يسبق منشدا:

سترى الطرقات

بالزهور مغطاة !

وعندئذ كان «دون جريجوريو دى لاتوخا»، الرئيس، ينصب نفسه مديرا للأوركسترا وفى غمرة حماس كان يسدد ضربة غير مؤثرة بالرأس لكل من يشد من المنشدين الصغار عن المجموعة. وعند «أشجار اللوز» يبدأ احتفال إعادة التشجير وكل طفل يزرع بفأس شجرة ويلف ساقها النحيل بحبل علقت عليه لوحة تبين إسمه والتاريخ.

بعد ذلك يأتى دور الغداء الريفي، وأخيرا خطبة «دون جريجوريو دى لاتوخا»، الرئيس، والتي يشير فيها عاما بعد آخر إلى ضرورة ترسيخ حب

الأشجار لدى الأطفال لأن الطفل الذى يحب الأشجار اليوم سيصبح مواطنا نموذجيا فى الغد القريب. ومع الغروب يعودون بسيفان متعبة وحدقات محشوة بندف الضوء، لكن «دون جريجوريو» كان يترأس المجموعة وعند دخول المدينة، مع حلول الظلام، يتوعدهم قائلاً : «الآن، هيا!». وعندئذ يشرع الأطفال متكاسلين فى الغناء بأصواتهم الرقيقة الناعسة:

مهلا مهلا، يا رائد

النبك التعاونى.

على رأس كل شهر وإذا استمر تحسن الجو، كان العم «إرمنس» يصطحب «لاروسينا» والصغير «إلوى» إلى مكان «أشجار اللوز» للاطلاع على تقدم ونمو شجيراتهما. وكان الصغير و«لاروسينا» يحولان المناسبة إلى مجال للتنافس ويتشاجران بحمية. فى الأعوام الأخيرة تورمت ساق العم «إرمنس» بشكل مؤلم ولزم الفراش شهورا عديدة. كانت «لاروسينا»، ابنة «لافوينسانتا»، قد شبت عن الطوق وأصبحت تحب البطلونات بدلا من الأشجار وكانت تقول لوالدها بالتبني كل مرة تخرج فيها إلى الشارع:

«إلى اللقاء، يآبى، أتمنى أن تنعم بوقتك». فيرد عليها خانعا العم «إرمنس»، الذى كان يعاني وقتها من آلام حادة ومستمرة تجعل صلته تنصب عرقا أبيضاً : «إلى اللقاء، يا بنتي، أرجو أن تخفف آلامك». كان الناس يتناقلون هذه المأثورات فى النادي، حتى أن بعض المأثورات التى لم تصدر عنه كانوا يلصقونها به قائلين : «هذه أشياء لايتفوه بها إلا «إرمنس نونيث». عندما أوشك العم «إرمنس» على الرحيل جمعهما حول فراشه وانتظرا وصاياه الأخيرة، لكنه اقتصر على التنبيه عليهما بقوله: «بدلتى الرمادية فى المغلسة فلا تنسيها».

وفى تلك اللحظة انقطع التيار الكهربى وعندما عاد، كان العم «إرمنس» جثة تتسم بصلعتها الوردية الضخمة التى أخذت فى التحول تدريجيا إلى اللون الرمادى .

أصرت «لاروسينا»، ابنة «لافوينسانتا»، على أنه هو الذى أطفأ النور عند رحيله وفى النادى تناقل الناس أن «إرمنس نونيث» لم يكف عن المزاح مع ابن أخيه وابنته بالتبنى حتى بعد موته . على أية حال ، فقد رحل «إرمنس نونيث» بساقة الموجوعة وعبقريته ، وبعد سنوات رحلت «لاروسينا» بسبب النفاس ، هناك فى إشبيلية حيث كانت متزوجة بمساعد مهندس زراعى .

والآن يقول العجوز «إلوى» لصديق عيسى أثناء جولتهما المسائية :

-عمى «إرمنس» كان يؤكد بأن ميولى كموظف بلدية ورثتها عن أبى . فلم يكن أبى يتهاون فى مسألة النظافة وكثيرا ماكتب إلى الصحيفة اليومية بهذا الخصوص . أذكر أن خطابا منها كان ينتهى بهذه العبارة : «ألا يوجد نظام يحدد للعمال التوقيت المناسب لإفراغ سلال القمامة التقليدية تفاديا لإيذاء إحدى الحواس الخمس لمن يتصادف مروره فى ساعات الليل الأولى؟» . كان العم «إرمنس» يقول ، ومعه كل الحق ، إن مثل هذا الخطاب لا يكتبه إلا كاتب مثل «ثرفانتس» ، ومع ذلك ، فإن الذى سطره هو «إلوى نونيث» والدنيا لاتعطى الشهرة دائما لمن يستحقها .

كان عيسى يرفع عكازه القابل للالتناء ويقول مبتسما :

-إمش رويدا رويدا .

ذات مساء ، تنازع العجوزان بشدة وهما يستهلكان شعاع الشمس الأخير أمام حوائط «سان ألدیفونسو» . بدأ العجوز «إلوى» بالتأكيد على أن الجدية فى زمانهم كان لها شأن آخر وأن المشاكل الهامة كانت تحل بروية

وأنه يذكر أن مجلس البلدية ذاته اجتمع بكامل هيئته اثنا عشر اجتماعا فى ١٩٠٣ ليتخذ قرارا بسفلتة الميدان وأربعة عشر اجتماعا فى ١٩٠٤ ليقرر إنشاء الصرف الصحى . اشتكى عيسى بعد ذلك من شعوره بحزام من الألم بين المعدة والأمعاء أثناء عملية الهضم وعندئذ أوصاه العجوز «إلوى» بالتغوط مبكراً فى مكان كثيف بالحديقة لأن الطبيعة هى أفضل منظم، لكن صديقه عيسى رد هاتجا بلا، فهذا، مثل غيره من أشياء يتوقف على طبيعة الشخصية وأنه يذكر، دون الذهاب بعيداً، أن «أجوادو» كان يستريح على غبار الملفات القديمة التى كان يراجعها. ومن أمور إلى أخرى لفت عيسى نظره إلى أن رمانهم لم يكن به نساء مثل نساء اليوم وأشار له، أثناء قوله هذا، إلى فتاة سمراء تعبر الميدان، لكن العجوز «إلوى» انفعل انفعالاً شديداً لذكره بـ «لاباكيثا أوردونيث» فأسقط طاقم الأسنان من يده فاشتطأ غضبا. بعد أن زال عنهما الانفعال اتضح بجلاء أنهما لا يتكلمان ووقر فى خاطر كل منهما أن صداقته القديمة قد أصبحت فى ذمة التاريخ.

وبالرغم من ذلك فقد التقيا فى اليوم التالى مثل كل مساء تحت البواكي، بجوار مكتبة «أفروديسيو نينيو» ولم يتطرق أى منهما لنقاش الأمس بل تحدثا بصراحة، وبالتفصيل الممل عن مدرسة مدام «كاتروكس» الفرنسية، منذ خمسين سنة، ورحلات «بولدو پومبو» على الدراجة، وتشكيل هيئات المحلفين المختلطة، ودار الحمامات العامة، والشجار مع طلاب المدرسة الحربية وحفل تتويج الملك. قال عيسى وهو يبتسم للشمس وللحياة بأسنانه الذهبية الثلاثة :

- إمش رويدا رويدا.

أمسك العجوزان عن المسير بعد عشرين مترا. نظف العجوز «إلوى»
بآلية طرف أنفه وبحث عن وجه الشمس. قال صديقه عيسى وهو يجلد
الهواء بعكازه:

- (تعرف مين اللي تعبان حيتين؟).

رفع العجوز «إلوى» جفنيه اللدين والخانعين:

- من ؟

- «بينتادو»، بائع الحداثد.

- لقد بلغ أرزل العمر .

- ماشى فى الخامسة والسبعين ؛ لا أريده عاما واحدا.

فى الفضاء كانت تحلق شمس واهنة مستوية، تنشر بالكاد ظلالا فوق
الأسفلت.

أخفى المصور رأسه تحت القماشة السوداء وقال فى إنذار نهائى :

- التزما السكون لحظة .

أخذ «البيكانا» موقعة ، مستريحا؛ قدمه اليسرى متأخرة قليلاً، الذقن منتصبه، النظرة متحدية، اليدان مسترخيتان، فوق بعضهما فى مستوى الحوض . أما «لاديس» فكانت متخشبة، كعادتها عندما يصبوب نحوها شيء ، سواء كان عينا أو مسدسا .

نبه الصوت المكتوم للمصور تحت القماشة السواء :

- ابتسما، من فضلكما .

رسمت «لاديس» ابتسامة كاملة وتعاضم فلقها . لاحظ «البيكانا» اقتراب مررة من العساكر المستجدين فقال للمصور دون أن يغير من وضعه أو يحرك عضلة واحدة من الوجه ودون تحريك شفثيه تقريباً :

- أ . . . أسرع ، ياهذا .

كشف المصور حينئذ غطاء العدسة ثم رفع رأسه المحتقن قليلاً وقال :

- أربع بيزيتات ونصف .

فتش «البيكانا» قيعان جيوب السترة ، أخرج ثلاث بيزيتات وخمس عشرة قطعة فئة العشر سنتيمات وعددها واحدة واحدة .

- [. . . إلى اللقاء - قال .

اختفيا بداخل الحديقة التى كانت تسترخى عليها شمس شتوية ، فاترة وشاحبة . كان «البيكانا» يمشى بساقية المقوستين ، مجرجرا حذاءه . كانت

«لاديس» تحس بالبرد وهى ملفوفة فى السترة الصوفية المنقوشة بأحمر، لكن عفتها ورضاها الحميم كانا يدرانها.

لم تكد تمضى سوى بضعة أيام حتى عاد «البيكاثا» سيرته الأولى، بجرائه اللاذعة ولسانه البذئ وحيويته الطاغية وصوته الجميل. رجعا إلى المصور بعد فترة، وأمضيا بعض الوقت جالسين على مقعد يضحكان ويعلقان على الصورة :

- ياله من وجه هذا الذى التقطه لى الرجل الأبله؛ يبدو أى شىء ماعدا كونه وجها- كانت الفتاة تضرب فخذاها براحتها وتضحك مقهقهة: وأنت، أماء، منظرك لايسر عدواً ولا حبيباً

يوما الخميس والأحد كان «البيكاثا» ينتظر الفتاة فى الرابعة أمام بوابة البيت، مستطلعا مترينة محل «إميتريو» للساعات. إذا كان الجو جميلاً طافا بطرقات الحديقة، وفى المساء، يتجولان فى الشارع الرئيسى أو يظلان جالسين بجوار بعضهما فى ظلمة الحديقة. فى الحالة الأخيرة كان «البيكاثا» يغنى لها بصوت خفيض أغنية «الريليكاريو» أو «لماذا تملكنى الأحزان». لكن «لاديس» كانت تفضل التجول لخوفها من أن تضعف مقاومتها ظلمة الحديقة وإحساسها بلفح أنفاس «البيكاثا» وعذوبة صوته.

وعلى عكس هذا، فإن التجول يقيها هذا الخطر، بالرغم من أن «البيكاثا»، بجرائه المعهودة، لم يكن يكف عن إرسال لمسة أو قرصة متعمدتين. كانت تضحك :

- الزم الهدوء.

فيغمز لها بعينه:

- يا .. يا حلوة !

- يا قدر ! كانت تقول بدلال، وهى تدفعه بيديها.

غالباً ماكان يشتري لها لب عباد الشمس وبينما يتحدثان يتفان القشر على ظهور المارة .

كانا يتحدثان عن القرية، أو «لامارثي»، أو العريف «أرخيميرو»، أو عن المعسكر، أو يسترجعان موضوعات الأفلام. أحيانا كان «البيكاثا» يفقد رشدة أمام أى معلم من معالم المدينة: «ل... لو نقلوا هذا الميدان من مكانه هنا إلى القرية». فتوبخه «لاديس»: «هيا، إنس القرية؛ ألا يوجد فى العالم غيرها؟». إلى جوار البيكاثا كانت الفتاة تحس بالحوية والقيمة.

فى بعض الأحيان، كانت ترافقهما «لامارثي» والعريف أرخيميرو. لم يعجب «لامارثي» شكل «البيكاثا» وأخبرت «لاديس» بذلك فى أول فرصة: «أمه، يالها من رجلين؛ يمكن أن يمسق من بينهما كلب دون أن يدري». تملك «لاديس» الغضب، لكنها لم تجد الشجاعة الكافية لمواجهتها. ردت بصوت معتم: «كل واحد فيه عيوبه، يا «مارثي». تكوين «البيكاثا» الجسماني أصاب زميلاتنا بخيبة أمل، وأيام الأحاد عند الخروج من قداس الساعة السابعة فى «سان پدرو» كان على «لاديس» الاشتباك معهن فى جدال حامى الوطيس. ذات يوم قالت لها «لاتاسيا»، فجأة: «ياله من نموذج، لو بحثنا بقنديل فلن نجد له شبيها». اندفعت «لاديس» كالعمياء نحوها، لكن «لامارثي» حالت بينهما؛ وهذا لحسن الحظ لأن عيني «لاديس» الصغيرتين كانتا تلمعان بوميض قاتل.

غالباً ماكانت «لاديس» ترد بكلام غليظ وتظل هادئة: «حسد، لاشيء غير هذا، فمنذ أن مات أبوك لم يقترب منك رجل».

فى بعض الأمسيات كانا يتجولان بصحبة «لامارثى» والعريف «أرخيمىرو»، بالرغم من أن أشرطة العريف كانت تلقى الرعب فى قلب الفتاة. كانت ترهب سلطته، لكنها كانت تخاف أكثر من قيامه بممارستها ذات يوم يسيطر على «البيكانا» فيه الطابع السيء.

على خلاف هذا، كان «البيكانا» يسمح لنفسه بالمزاح مع العريف دون اعتبار لأشروطه.

فى إحدى المرات راد عن الحد فار تعدت «لاديس» فرقا من حدوث مشاجرة. ومع ذلك فإن العريف «أرخيمىرو»- الذى كان طويلاً كالمارد، وإن لم تستغل الفتاة هذا ضد «لامارثى»- كان رحب الصدر. ومع «البيكانا» لم يكن يفعل مايكدر الخاطر. رانهما «لاديس» عدة مرات يتغامزان ويضحكان أمام «ساترينة» «ليوكوندى» حيث تعرض سيقان عليها جوارب حريمية وتمائيل نصفية عليها سو تيانات حريرية.

فى تلك الأحوال، كان الفتيان لايتوقفان عن الغمز واللمز والضحك من خلف ظهرهما. ومع ذلك، فإن لامارثى، التى كانت تتمنى أن يفعلها معه العريف «أرخيمىرو» ذات يوم، انتهزتها فى إحدى الأمسيات :

-اسمعى، يا حلوة، يقول «أرخيمىرو» أن «البيكانا» هذا لو تجاوز الحد معه ذات يوم فسيفوقه ثابتاً فى الشارع لمدة نصف ساعة.

ارتعدت فرائص «لاديس». ومع ذلك فلم تجرؤ على إخبار «البيكانا». تصورته واقفاً بلا حراك بين الجموع محاصراً بالسخريات، وكانت على يقين من أن «البيكانا» لن يتحمل مثل هذه الإهانة. ودون الحاجة إلى الرجوع بالذاكرة كثيراً إلى الوراء، فإنها لازالت تذكر كيف قطع «البيكانا» أذن «البيلاو» فى حانة العم «بوتى»

بنفس الهدوء الذى يخلع به رجل من عليّة القوم قفازه. كان «البيلاو» سكرانا وقال «البيكاثا» أنه لا يمتلك الرجل لفعل ذلك فما كان من «البيكاثا» إلا أن وقف على قدميه، فتح المطواه وبضربة واحدة اجتزها له. يحدث هذا عندما يسيطر على «البيكاثا» الطبع الشرير، حسبما تقول «لاكولويكو»، خادمة القسيس، لكن المفزع فى الأمر أن هذا الطبع يمتلك «البيكاثا» دون سابق إنذار، ومن ثم فلا يمكن لأحد التكهن بالحالة النفسية التى هو عليها الآن.

عندما ما كان صبيّاً، وقت أن كانوا يسمونه «مانويل»، اصطاد عققعا من على شاطئ النهر ورباه بعناية وأعد له مذودا فى حظيرة صهره وجهره بكل وسائل الراحة المتخيلة. بعد أن كبر العققق كان يهبط ليأكل من فوق يده لدرجة أن الفتى علمه الكلام والصفير. كل مرة كان الطائر يراه فيها ينادى : «أ. . . أهلا لولو»، وكل صباح يطلق «البيكاثا» سراحه فيرجع مع المساء إلى الخطيرة، ومخالبه محملة بخمر وقطع زجاج ملونة يضعها فى المذود بعناية. كان «البيكاثا» ينتظره عند عودته ويقدم له قواقع وضفادع وديدان وثمرات برية. بعد أن تنتهى الوليمة، كان العققق ينام فى المذود على كنزه ويبسط جناحيه وكأنه يريد احتضانه.

حذره صهره، «السيستاس»، من الوثوق بالعقاقق، فهى متملفة مع الطيور الأقوى منها وشرسة مع الأقل قوة وضرب له مثلاً بالعقق الذى إقترن بزاع(*) وقتله غيلة أثناء نومه، لكن «البيكاثا» لم يحفل بتحذيره.

فى الربيع التالى اصطاد الغلام من على شجرة التين بالحظيرة عشا فيه أربعة أفراخ من الخضير ووضعهم فى قفص وكانت الأم تمر عليهم

* الزاغ: طائر من الطيور الجارحة-- المترجم.

باستمرار لتعظمهم من خلال القضبان . استيقظ «البيكاثا» ذات صباح على زقزقة محمومة وعندما نهض وجد أمخاخ الطيور الأربعة مشكوفة للهواء وأمهم ترقزق بجزع وترفرف بجناحيها فوق القفص .

لا أحد يعلم كيف ولا فى أى لحظة تغير طبع «البيكاثا» ، الذى كان صبياً وقتها، لكنه دون أن يتفوه بكلمة خلع قضيباً من القضبان الخشبية التى تستخدم كتعريشة للكريز فى السنوات التى تكثر فيها ثماره، أغلق على نفسه الحظيرة وعندما خرج كان وجهه مليئاً بالخدوش وفى يده اليمنى جثة العقعق الذى لم يكن سوى كومة من الريش الأبيض، الأخضر الأسود والأزرق . سأله صهره عما حدث، لكن الصبى ألقى بالجثة من فوق السور وتمتم باقتضاب : « أ . . . الملعون أصابته لوثة » .

نفذ بعد ذلك يدا بأخرى ولم يعد لفتح الموضوع ثانية :

لم تكن «لاديس» تطمئن لنوبات الغضب التى تعترى «البيكاثا» ؛ وترتعد فرائصها من التفكير فى احتمال تحوله إلى الطابع السيئ ، لو استغل «أرخيمىرو» سلطته عليه .

كانت «لامارثى» تفزعها فى المساء : «الأوامر العسكرية ليست مزاحاً يا حلوة؛ عليه أن يأخذ حذره، قولى له يأخذ حذره» . لم تقل الفتاة له شيئاً لخوفها من حدوث كارثة، لكنها كلما رأت أشرطة «أرخيمىرو» الحمراء غلى الدم فى عروقها . من جهة أخرى، فقد أعرب «البيكاثا» عن مشاعره الطيبة نحوها عندما حضر إلى البيت ومعه خاتم من الحديد الغير قابل للصدأ مرسوم عليه حرف «p» ، «D» متشابكين . كانت على وشك البكاء ، لبسته فى الإصبع السبابة، تأملته بحنان وقالت بصوت غاثم :

- أجننت ، يا «بيكاثا» . ما الداعى لهذه التكلفة ؟

- أ . . . أنت خطيبتى ، أليس كذلك ؟

- (اللى تشوفه).

- (طيب خلاص).

كلفه الخاتم سبع بيزينات وتسعون ستيما من كشك على باب المعسكر. طلب منه البائع تسع بيزينات وأصر هو على سبع وفى النهاية اقتسما الفرق. لارم الحظ «البيكاثا» عند دخوله الجيش، فبعد أن سمعه الشاويش يغنى الحقه بجمعية هواة الغناء ووعده بالمشاركة فى احتفالات «سانتا باربارا» وفى عرض المسيح الذى يقدمه رجال المدفعية فى أسبوع الآلام.

- إنهم لن يجدوا أفضل منك- علق «لاديس».

خلال نصف عام، ادخر «البيكاثا» فى القرية مايستطيع تبديده فى المدينة. أبهرت نفقاته «لاديس». إن لم يكن خاتم من حديد غير قابل للصدأ، فصورة فورية أو ست ريبالات من اللب، فلم يكن «البيكاثا» يوقر البيزينة.

أيام الاحاد كان يخرج من المعسكر فى زمرة من زملائه وإذا مرت فتاة جميلة كانوا ينهقون جميعا فى وقت واحد. ولاستهلاك الوقت، كانوا يذهبون فى أسراب متتالية مثنى وثلاث لرؤية سيقان وصدور ساترينة "ليوكوندى". كانت السيقان من الخشب لكنها حسنة التصوير مثل الصدور التى كانت تتوارى بحياء خلف السوتينات الحربية الشفافة. إذا كان يتجول بصحبة «لاديس» و «لامارثي» والعريف «أرخيميرو»، يكبح جماح نفسه، ويقتصر على وكز الأخير بكوعه والضحك المكبوت، أما إذا كان برفقة زملائه فإنه يقول، بعد تنهيدة مسرحية :

- آ.. آى، أماه! بجوار سيدة كتلك لا أبرح مكانى طوال فترة الجيش.

فيقول «ديميتريو»، القادم من «بياكبرالس»، بنظرة غائمة :

- إنها جميلة، إيه ؟

- و... ويا له من جمال !

كان الجنود يقفون واقفين بلا حراك أمام الماترينة، وأصابعهم السبابة معلقة بالحزام الأسود، بجوار الأبزيم، وكأنهم نسخة مكررة. بعد ذلك يذهبون لرؤية أفيشات السينما ويستمر الدوار المقلق والمثير. بعد ساعة تتحمل الخادومات النتيجة وهن عاجزات عن مجابهة الهجوم المتحمس. غالباً ما يأتى الجنود ويروحون فى موجات متلاطمة وضجيرة، مجرجرين أحذيتهم ويتحركون فى كتل كبيرة لا فى وحدات صغيرة. وفى تمام الرابعة يبدأ الانتشار، حيث لا يعدم أى منهم بوابة ينتظر أمامها. تعود «البيكاثا» أن يفعل هذا نظراً إلى ساعات «إميتريو»، أمام بيت العجوز «إلوى».

قال له أخ «دون أولييانو»، قائد وحدته، إنه إذا أنهى فترة التدريب وكان حسن السير والسلوك سيجعله سائق عربة نقل. وعندها سيزيد راتبه وربما اشترى ساعة مطلية بالذهب. ليس أمامه حالياً سوى الانتظار. أثناء انتظاره للفتاة، كان «البيكاثا» يعرض على سواك أومبسسم من البلاستيك. فى حالة المبسسم كان عليه أن يحترس حتى لا يعرض شفثيه كما فعل «الجورم»، القادم من «بالديكاسس». إذا لم يكن يمحس السواك أو المبسسم كان يقزقز، معتمداً على أسنانه ولسانه، لب عباد الشمس. المهم ألا يركن إلى الهدوء، كما تقول «لاديس». إذا أهديت إليه سيجارة فليس من المستحب إشعالها قبل الاحتفاظ بها عدة دقائق فوق أذنه.

تعلم فعل هذا من حفلات التعميد والزفاف فى قريته ولم تنسه المدينة هذه العادة. كانت هذه الأشياء تعجب «لاديس» وتعتبرها خصوصيات تزيد من جاذبية الفتى. لم تكن ترى ساقه المقوسة، ولا عينيه المتحدتين، ولا أنفه الأفطس.

عندما كان يمشى شارد الذهن يبصق قشر لب عباد الشمس، كانت تختلس النظرات إليه وتسرع ضربات قلبها الحساس. وإذا حدث ومر في تلك اللحظة من هو أعلى رتبة، خاصة لو كان جنرالاً، فإن الفتى كان يأخذ وضع الاستعداد بضربة من كعب حذاءه، النظرة معلقة في اللانهاى، الصدر مرتفع، الذقن منكمش واليد ثابتة على الصدغ، فتمتليء الفتاة رهواً وفي المساء تقول لصديقتها منتشية :

«مارثي، لم تشاهديه وهو يؤدي التحية، لم تشاهديه وهو يؤدي التحية، يبدو مثل صورة في ميدالية». كانت «لامارثي» تريح عليها عينها الشبيهتين بعيني سمك المرجان : «ما عليك أن تقولي له هو أن يأخذ حذره. لو زاد عن حده مع «الأرخيميرو» سيفعلها معه في الشارع».

خلال الأسبوع كان يزورها مرتين في البيت منتهزا فرصة خروج العجور للتجوال. كانت تجد رأسها شبه فارغة عندما ترى نفسها وحيدة معه في البيت الصامت. مقاومتها، في تلك الأحوال، كانت غريزية بحتة. كانت تقبل امتداد يد «البيكاثا» في حدود المعقول، فهو من أجل هذا خطيبها، لكن بين الانتقال من هذا إلى شيء آخر يوجد فرق. ومن ثم فإنها كانت تفضل القضاء على تجاوزات الفتى في مهدها:

- الزم الهدوء، يا «بيكاثا».

أو بصورة أكثر حسماً:

- إذا لم تسحب هذه اليد سأطملك على وجهك !

ذات مساء كان عليها أن تبوح بسرها لكي تكبح جماحه بالرغم من عدم إجادتها للقراءة :

- «بيكاثا»، أنا أعرف القراءة.

قرب مقعده من مقعد الفتاة التي بسطت الصحيفة المتسخة فوق الفرن:

- ل... لنرى - قال .

ظل فم الفتاة مغلقا لعدة ثوان وأخيراً نطقت :

- تق - ليد - فرا - نكو ...

أمسكت عن القراءة فجأة لتتنظر إلى الفتى باستياء مفتعل ودون أن ترفع إصبعها عن السطر أراحته بكتفها :

- الزم الهدوء، يا «بيكاثا» - نظرت إلى الصحيفة وتابعت - : و- سام ...

نظرت إليه الفتاة من جديد غاضبة :

- ألا تريد أن تلزم الهدوء مرة واحدة ؟

ابتسم «البيكاثا» بينما كان يغمز بعينه . تابعت فى إصرار :

- و - سام - إس - تحذق - من - الإك - وا - دور .

عندما انتهت نهضت واثبة :

- إن لم تلزم الهدوء سأطعمك على وجهك !

حاولت أن تبدو غاضبة لكنها شرعت ، فجأة ، فى ضحكات حمراء وفى التثنى والضرب على فخذيها براحة يدها ، بينما كان «البيكاثا» يدعوها إلى الجلوس بجواره من جديد وهي ، بين ضحكة وأخرى ، ترفض بإيماءة من رأسها .

عندما ذهب عنها الضحك ، روت له كيف تعلمت التمييز بين «P»، «Q» وسألته عما إذا كان قد تنبه مرة إلى أن الـ «I» فى (Picaza) تنزوى كالجبانة تحت كرش P الكبير . لكن «البيكاثا» كان فى واد آخر . قال :

- ب... بمناسبة الكروش ، أتعرفين أن «الكارابلانا» صنع واحدا لخطيبته «لاپرودن» الخريف الماضى ؟ ي... يقول أنه سيتزوجها بعد الانتهاء من الخدمة العسكرية ، لكن هذا لم أره يتحقق حتى يومنا هذا .

فى الأيام الأخيرة لاحظ العجوز «إلى» بريقاً جديداً فى عيني «لاديس» الحزبتين. لم يكن يعنى هذا أن الفتاة أصبحت جذابة أو أن وجهها ينم عن أقل القليل من الذكاء، لكن شخصيتها غدت تنضح فجأة بشبه حيوية متدفقة. خلال فترة الصباح، بينما ينزوى العجوز بجوار الفرن كانت الفتاة تترنم مبتهجة وتبتسم من داخلها وتبدو مسرورة وفى كل مرة توجه إليه الكلام لتسأله عن زوجته وعن تفصيلات علاقتهما فى الماضى :

- سيدى، لن تقل لى أن «لوثيتا» اسم حقيقي.

- لا، يا بنتى، كان إسمها «ماريا لوث» وكنا نقول لها «لوثيتا». أنت أيضاً، على ما أعتقد، ليس إسمك «ديسى» مجرداً.

كانت الفتاة ترقبه مندهشة :

- مرة أخرى أالم تقل أنك تعرف كل شىء ؟

- بالطبع، يابنتى. هذا مجرد تصغير ينم عن الود.

شرعت «لاديس» فى الضحك :

- تصب... ماذا قلت ؟

- تصغير، يابنتى.

- أو تقدر على ذلك !

كانت تضرب على فخذهما براحة يدها وتطلق ضحكة :

- لا تكف أبداً عن المزاح.

بعد أن ينهمكا في الحديث كانت الفتاة تسأل عن متى وكيف عرف زوجها، وماذا قال لها أول مرة، وعما إذا كانا قد تزوجا في المدينة وعن عدد المدعوين الذين حضروا حفل الزفاف. كان العجوز «إلوي» يسلم القيادة. طوال حياته ظل يسلم القيادة، لكن «لوثيتا»، امرأته، كان يغضبها في المرقص تخلفه عن حركة البداية: «الرقص معك مثل الرقص مع عصا»، كانت تقول له. فيحاول عندئذ تقويم حركاته، كانت تنهره:

«بالله عليك، لا تستفزني لأن خطواتي تختل». فيسترخي «إلوي» لكن، يارجل ألا تقول لك الموسيقى شيئاً، كانت تضيف. وعندئذ يعود إلى تنكب دور القائد، لكن «لوثيتا» كانت توبخه من جديد: «إذا لم تسترخ سيغمى علي. حالك هذا كفيل بقطع أنفاس أى إنسان، إيه؟».

في العادة كانت «لوثيتا»، زوجته، تشع دفئاً خشناً، لكنه مريح. لم يكن يشبه في قليل أو، كثير البخار الحار، الحيوانى بعض الشيء لانتونيا، ولا الدفء النباتى المريح للعم «إرمنس». مع «لوثيتا»، لم تفض طبيعته السلسة إلى نتائج طيبة أبداً. خلال فترة الخطوبة، كانت تتركه يقرر وحده كى يجعله بعد ذلك مسئولاً عن الفشل.

فى يوم سبت ذهباً إلى «روياتي» لسماع «لارويسنيورا»؛ لكن «لوثيتا» أظهرت تبرمها وقالت أن «لارويسنيورا» تنفع لتحسيس كتيبة فرسان وليس لها ماتفعله مع أصحاب الأذواق الرفيعة، فهي ممثلة تقول بجسدها أكثر مما تقوله بفمها. بعد أن تزوجا، استمرت «لوثيتا» على وفائها لهذا الطابع وإذا أشار هو بالذهاب للتمشية، أصرت هي على العودة متعللة بأنه لم يختر إلا أكثر الأمسيات برودة؛ وإذا أشار بالذهاب إلى المسرح فإنها تبطل قراره متعللة بأن المسرحية فى منتهى السخافة؛ وإذا أشار عليها بزيارة آل «كوبوس»، فإنها بمجرد أن ترى نفسها فى الشارع تذكره بأن عيسى ليس

قدّيسه الذى يتجه إليه بالصلوات وبالنسبة لأخته «لويى» فهى تافهة وفارغة مثل كومة من القش؛ وإذا حاول، ذات يوم، أن يشير دهشتها بلفت نظرها إلى عربات النظافة الجديدة أو مكائن الخلنج، كانت تشتت غضبا وتقول: «اترك القمامة فى حالها، يا «إلوي»، وإلا سيصيبني الجنون».

على أية حال، فقد كانت «لوثيتا» من معدن خاص تلح فى طلب المزيد من الحياة وعندما كان زوجها يخيب رجاءها، كانت تفرض عليه عقوبات صارمة فينفذها مطيعا لأنه يضع أمر الحفاظ على الدماء الأسرى فى المقام الأول. من جهة أخرى، لم تكن «لوثيتا»، امراته، تسمح لنفسها بالظهور أمام الناس إلا وهى فى كامل رونقها الصحى، ومن هنا فإنها كانت لاتفارق السرير أربعة أيام على الأقل كل شهر .

ويحدث نفس الشيء لو وجعها ضررس أو حملت. فى الحالة الأخيرة كان الوحيد الذى يقتحم خلوتها خلال التسعة أشهر وفترة النفاس هو العجوز «إلوي»، وإن كان يفعل هذا والشيش موارب. عادة ما كانت تقول له: «عدنى بأن تضع خمارا على وجهى بعد موتى حتى لايرانى أحد». فيقول: «حاضر». وتلح «لوثيتا»: «احلف لى على هذا». فيرد: «أحلف لك». تظل متشككة: «لكن احلف لى بشيء عزيز عليك». فيسأل: «مثل ماذا؟». فتمهد له الطريق: «بروح والديك، بالإنجيل أو بشيء مقدس». فيطيع، ولا يكاد يمضى أسبوع على هذا حتى تواجهه «لوثيتا» ثانية بحماسة مماثلة ويعود ليطيعها.

كانت «لاديس» تسأله فى شوق :

- ووضعت على وجهها الخمار، يا سيدى ؟

- فعلت ما وعدتها به .

- أماء، هذا يحتاج لشجاعة. أتعرف ماطلبه هناك فى قريتي رجل من جاره؟

- ماذا، يا بنتى؟

- طلب منه تمزيق سرايين معصميه قبل تكفينه حتى لايدفن حيا.

- يا للهول !

- وفعلها بقلب جامد، ولما علم العمدة أراد أن يزج به إلى السجن.

كانت غريبة تلك الثقة التى تجمع بين العجوز و «لاديس». كثير من ذكرياته التى احتفظ بها خلال سبعين عاما، يروح بها الآن، أمام تلك الفتاة البدائية الخشنة، دون أية مسجود وبلا أية ضغوط. كانت الفتاة تبدى نهمها:

- وماذا كنت تقول لها ؟ ماذا كنت تقول لها، يا سيدى، أثناء الخطوبة؟

- كنت أعيد على سمعها، يا بنتى، كل هذه الأشياء التى قيلت دائما، لكنها كانت فريدة من نوعها. كانت تقول : إلو، قولك لامرأة «حياتى أنا» يختلف عن قولك لها «أنت حياتى».

كانت الفتاة تنظر إليه مقطبة الجبين. نادرا ما كانت تفهم كلام سيدها وتشى عيناها بالمجهود الذى يبذله عقلها. لكن العجوز "إلو" لم يكن يكلف نفسه عناء توضيح النقاط المبهمة. أيضاً لم يصارحها مطلقاً بأن "لوثيتا"، امرأته، ماتت بسبب طمث مفاجئ ومتأخر جدا، فى الثانية والستين من العمر. لو أخبرها بهذا لكان بإمكانه أن يفتخر به وقتذاك مع عيسى: «أمر بديهى. لم تستطع تحمل هذا فى تلك السن المتأخرة. فلم يكن القلب ولا الشرايين مستعدان لذلك». كان يقول للفتاة:

- المهم، يا بنتى، هو تكوين أسرة.

فتفيض عينا "لاديس" الصغيرتين الرماديتين بالبريق:

- أليس هذا بحق؟ حسنا، لامارثى تفضل العنوسة على الزواج بالقرية.

- "لامارثى"؟

- صديقتى، التى تخدم بالطابق الثالث.

- آه، حسنا.

بجوار الفتاة، كان العجوز يحس بالطمأنينة والهدوء. لم يكن الانتظار يشغله ولم تكن تتملكه الرغبة فى الحصول من الحياة على شئ. الآن، يقرأ للفتاة كل صباح إعلان بيع الكاميرا «كونتاكس». بدا له أن الجريدة بذلك الإعلان القليل الأهمية، المكتوب بحروف صغيرة مستديرة، تحتوى على رسالة شخصية له وأن المدينة بكاملها ستلتقطها.

- أنظرى، يا بنتى - كان يقول-: «أبيع كونتاكس ٥X٣. كالجديدة موديل ما قبل الحرب. المخابرة مع إدارة الجريدة». يأتى فى مقدمة إعلانات اليوم.

أو على أكثر تقدير:

- فى الجزء العلوى يُرى أفضل. ألا تعتقدين ذلك، يا بنتى؟

عاود الذهاب صبيحة بعض الأيام إلى محل نظرات "باتشيكو"، لكن الأخير كان مشغولا جداً. كان يقول له طوال الوقت: «معذرة، دون إلولى». فيرد: «عذر معك، يا بنى». وفى انتظار عودته، كان يتسلى بالفرجة على العدسات والمناظير فى التارينة أو ينظر إلى الإعلانات الزاهية: «عدسات القرنية: فريدة، بسيطة، معبرة، نظيفة، ملائمة، متقاة. معلومات مستفيضة؛ جرّب دون أى التزام». «ريس الجديدة تحتوى على مقياس». «بوصلات، مجسمات، عدادات للمسافة ومقاييس للحرارة».

أحياناً، كان "باتشيكو" يتأخر في العودة أكثر من ساعة، وفي هذه الحالة، كان العجوز "إلوى" يأخذ راحته على الكرسي المجدول، يسند ظهره على عمود المرايا ويغطّ في النوم. في المحل كانت درجة الحرارة مناسبة. ذات يوم، انزلق العجوز "إلوى" وسقط على الأرض بالكرسي. حدث بعض الهرج والمرج، لكن عندما سأل "باتشيكو" عن حاله بعد السّقطة، قرأ العجوز في عدسات نظارته النظيفة أنه لم يعد يطيقه. من قبل، ناشده العجوز لإحياء نشاط جمعية التصوير، لدرجة أنه تطوّر بالقيام بالترتيبات التفصيلية، لكن "باتشيكو" رد قائلاً: «لا يوجد وقت. ليس لدى أحد اليوم وقت ليضيعه في التفاهات». في عين العجوز "إلوى" ارتسم الخذلان وعندئذ أضاف "باتشيكو": «فيما عداك، بالطبع». قال له العجوز "إلوى": «هل تعرف أن الورقة الحمراء طلعت لي في دفتر البفرة. إنه لنذير».

بعد سقطة المدوية، كان "باتشيكو" يستقبل العجوز في المخزن ويتركه هناك، بجوار الغلاية، حتى ساعة الانصراف. اعتاد العجوز أن يقول له: «أشتاق للحديث مع حضرتك يوماً بطوله». فيرد عليه "باتشيكو": «في وقت آخر، دون إلوى، فأنا اليوم مشغول». بهذه الطريقة أصبح العجوز يرجئ زيارته للمحل إلى أن انتهى بمقطاعته. في آخر زيارة للمحل سأل "باتشيكو" عما يمكن أن يطلبه ممن سيشتري "الكونتاكس" فقال له: «هذه الكاميرات لا سعر لها. ببساطة تساوى ما يدفعونه لك فيها».

عندها قرر عدم العودة إلى محل "باتشيكو"، قال العجوز للفتاة:

... إلى أين يريدون الذهاب مسرعين هكذا؟

... من هو الذى يسرع، يا سيدى؟

- الجميع، يا بنتى؛ يبدو وكأنهم يخشون عدم الوصول.

ظل ساكتا، ذراعاه معقوفان فوق المعدة، مفكرا فى حاله. لاحظت "لاديس" النقطة التى بدأت تتشكل فى طرف أنفه وقالت بإيماءة معبرة: «سيدى، المنديل». تنظف. بعد أن انتهى عاد لسكونه، وذراعاه فوق المعدة. كل مرة يظل فيها العجوز على هذه الحال، كانت الفتاة تتذكر "الأبولينار"، ابن عم "الأوترويو"، صهرها، الذى فقد عقله لأن القرية كانت تطبق على أنفاسه ولم يجد فى المدينة ما يناسبه. لكن "لاديس" فى تلك الآونة، لم تكن تهوى المماحكات وتنطلق دائما صوب ما تريد:

- صحيح، يا سيدى، أن الطفل يغير مجرى حياة الأم؟

وعندئذ يحكى لها العجوز عن "ليونثيتو" و"جويتو"، الصغير، الذى رحل فى الثانية والعشرين دون انتظار فى الردهة.. كان "ليونثيتو" يكبر أخاه بست سنوات، وعندما وُلد الأخير حاول الكبير خنقه برباط حذاء. كان "ليونثيتو" الأول على فصله، واعتاد العجوز أن يقول لزوجته وأصدقائه: «هذا الفتى سيصبح أعظم شأنا منى». الآن، عندما يصل لهذه النقطة، يقف وقفة معتمدة ويقول للفتاة:

- وكما ترين، يا بنتى، فهو الآن مسجل عقود فى مدريد ولايزال فى الثانية والأربعين.

- ياه! - كانت تقول بإعجاب مبهم، بقصد تشجيع العجوز على الإستمرار.

ويحكى لها العجوز أن "ليونثيتو" لكى يصل إلى وظيفته تلك فى الثانية والأربعين، فإنه قد تخلّى عن التبغ والقهوة وحذف التحلية من قائمة الطعام فى المساء. ويضيف:

- كان الفتى معتلاّ الصحة ولكى نقويه قررت أنا وأمه شراء لحم خنزير مجفف له. وفى كل مرة يقترب فيها أخوه من اللحم كان يجنّ جنونه.

كان العجوز يتنحى بافتعال ويمد يده فوق الصفيحة الساخنة. وبعد وقفة قصيرة، يضيف:

- "جويتو"، الصغير، كان معجوناً بماء عفاريت. لا توجد شيطنة لم تخطر له على بال. لم يستطع العجوز أن يجعل "جويتو" يكمل تعليمه. في المدرسة كان يحتل المركز الثامن والثلاثين فيسأله العجوز: «كم عددكم، يا بنى؟». «أربعون»، كان يرد فى شئ من العجرفة. لكنه لا يلبث أن يضيف: «هذا الأسبوع تغيب اثنان بسبب المرض». فى الثانية عشرة سرق "جويتو" عشرة بيزيتات من محفظة العجوز. انزعج العجوز "إلوى" كثير لدرجة أنه أرسل فى طلب "أوريستس"، صهره الذى يعمل فى البوليس، وانتهر "أوريستس" الصبى ووضع فى يده السلاسل وعلى ظهره لافتة مكتوب عليها: "انا لص" فى المساء وجدوا "جويتو" يتباهى فى الشارع أمام الاصدقاء بفعلته بينما لا يزال مقيد اليدين واللافتة على ظهره.

كانت "لوثيتا" تقول عن "جويتو" انه مخلوق لا يطاق وتسبب هذا فى تألم العجوز يومها، لكنه الآن على بعد السنين، كان يتسم متأثراً عند تذكره. على أية حال، فإن "لوثيتا"، زوجته، كانت تجبره - سواء كانت تلد لصاً او سمسار عقود - على تغطية وجهها بخمار أثناء الولادة وبعدها تنزل به العقاب القاسى لأنها كانت تقول أنه هو الذى يرتكب الجرم وليس من العدل ان تتحمل هى التكفير عنه، فلم يكن هذا الحدث الأسرى يمدها لا ببرودة او دفء وكان هو، على ما يبدو، الوحيد الذى يخرج منه بمنفعة ما. ومهما كانت الظروف، فإن "لوثيتا" نادراً ما كانت تظهر للعيان وإن لم يكن هذا لأجل صحتها، فمن أجل ملابسها الرثة أو حذائها وإذا صاح فى الشارع: «بومبو، أهلاً يا رجل»، فإنها كانت تستح: «لا تقف، يا إلوى، الحذاء ممزق». وإذا تعقدت الأمور ووجد نفسه مضطراً

للقوف، فإنها كانت تعقد له مجلس تأديب بمجرد وصولها إلى البيت. اتضح، أخيراً، أن "لوثيتا"، بالرغم من هيجان غرائزها، كانت امرأة كاملة الانوثة حتى الثانية والستين وإذا كانت قد ماتت في هذه السن فذلك يرجع ببساطة إلى افتقار قلبها وشرايينها للمرونة اللازمة لتحمل الطمث.

قالت "لاديس" :

- لا بد أن "جويتو" كان في منتهى الشقاوة.

مرر العجوز المندبل على طرف أنفه. ضربت الفتاة أذنها براحتها:

- دعك من هذا، يا بنتى، ستزيدين الطين بلة.

- لا تفعل شيئاً سوى الطنين؛ لا حياة فيها.

- دعيها وشأنها.

- ما أسهل الكلام!

عقف العجوز ذراعيه فوق المعدة. قال بعد وقفة:

- فى كل الأحوال، كان أبنائى أسعد منى حظاً: فقد كان لهم أب.

أما أنا فعندما وُلدت كان جثمان أبى مسجى أمامى؛ وكما يقال فإننى حتى لا أعرفه.

نظرت إليه الفتاة وقد علتها الدهشة:

- أو تقدر على مثل هذا الكلام!

- كما ذكرت لك من قبل، يا بنتى، فقد حدث لى نفس ما جرى

للملك. عندما ولد الملك كان عليهم أن يدثروه بملايس سوداء. هذا هو حال الدنيا. رجل يملك كل شئ، ومع ذلك ليس له أب.

اشتاطت الفتاة غضبا:

- لا تبدأ - قالت.

رفع حدقتيه المتآكلتين، الغير قادرتين تقريبا على تصوير استغرابه. قال
فى نغمة تشى بالامتعاض:

- بأى مناسبة لا أبدا؟ أنا لا أكذب، يا بنتى. ما أقوله لك حق مثل
ضوء النهار.

بعد ثمانية أيام من كتابة التاريخ، أنهت "لاديس" الخطاب لأختها "لاسليينا". كان أول خطاب تكتبه في حياتها وبما أنها كانت لاتزال تجهل كل ترهات الأبجدية والقواعد فقد قررت تدوين الكلمات حسب نطقها وبحروف كبيرة وهو ما تفهم فيه. الآن، عند مراجعتها للخطاب، تعاني من اختناقات جائرة، لم تكن تعلم إن كان ذلك بسبب التأثير من رؤية أحاسيسها مدونة لأول مرة أو لأنها قصيرة النفس كما كانت تدعى "لاكايا"، زوجة أبيها.

كان الخطاب يقول:

أختي أكتب لك هذه الكلمات لأقول لك أننا بخير والحمد لله. أختي وصلني السجق والدجاج. أختي اشترت لنفسى سترة من الصوف المشغول وعندما قابلت الپيكاثا علمت منه أن "الكاراپلانا" ذهب إلى المغرب. أختي لقد سمت وأصبح ورنى ٥٣ كيلو جرام. أختي عندما تكتبى إلى ابعتى بعنوان "لألفونسينا" فى "مادير". أختي قولى لى إذا كانت تمطر عندكم أو أن الجو بارد. أختي أبعث بتحياتى إلى الأهل وإلى العمة "لاكايا" وقولى لها أن ما فات قد مضى وانتهى. أختي إذا أردت شيئاً سأحضره لك.

ديس ساخوسيه

ملحوظة

أختي وصلني السجق والدجاج وفرحت بذلك. أختي أرسلى لى بعنوان "لألفونسينا" فى "مادير".

ديس ساخوسيه

عاودت قراءته وأحست برعشة محيرة. لم تكن تصدق أنها تمكنت من ملء هذه الورقة لوحدها وأن تلك الورقة بمجرد إدخالها المظروف ولصق طابع بشمانين ستتيما عليه ستحمل أفكارها لأختها دون الحاجة إلى وسيط. ظنت أن ما حدث معجزة وأن "لامارثي" يمكن أن تذهب إلى الجحيم وأنها لكي تدبر شئونها في هذا العالم لم تعد تحتاج إلى مساعدين.

منذ عشرة أيام مضت تشاجرت مع "لامارثي" واحتدت لأول مرة وأسمعتها عدة حقائق. كانت "لامارثي" قد استغلت موقفها الحرج علما بأنها حذرتها سابقا من الخوض فيما حدث ليلة رأس السنة مع العجوز لأن الپيكائا يمكن أن يتجه تفكيره لشيء لم يقع. لكن الرياح تأتي بما لا تشتهي السفن. إذا كان "الپيكائا" يرفع التكليف بينه وبين "الأرخيميرو" فإن الأمر في نهاية المطاف لا يعنيه من قريب أو بعيد. "الأرخيميرو" يتمتع بسلطة وإذا كان لم يقرر استخدامها مع "الپيكائا" فلديه دوافعه. من جهة أخرى فإن السلطة لا تخول لصاحبها إهانة الآخرين و"الأرخيميرو" لم يدفعه أحد ليقول للپيكائا ذلك، فإذا كان "الپيكائا" قصيرا، فإنه في المقابل طويل كالمارد. لكن "الأرخيميرو" كان يرى الشعرة في عين الآخر ولا يحس بالعظمة بين جفنيه وذات مساء قال للپيكائا دون مقدمات:

- اسمع يا فتى، أنت ضئيل الحجم وقصير.

تغير وجه "الپيكائا" وتقلصت أصابع يديه وخافت "لاديس" أن ينقلب مزاجه، لكن "الپيكائا"، لحسن الطالع، اكتفى بقوله:

- د... د. دعك من المزاح؛ قصير وكل شيء لكن لو دعا داع لبذل النفس فإني مستعد لبذلها ضد أي إنسان.

فى المساء، صعدت "لاديس" عند "لامارثى" وهى على استعداد
للتحدث معها بوضوح، لكن النظرة الكليلة لصديقتها، وإحساسها بالعلو
أوهنًا من عزيمتها. قالت لها "لامارثى" محتدة:

- "البيكاثا" هذا لا يفعل سوى توريط نفسه. لا تشعر الواحدة بالأمان
معه أبدا. لا يفعل سوى توريط نفسه.

انطفأت "لاديس" ومثل كل مرة تحس فيها بعدم القدرة على المقاومة
ظهر خط أفقى فى المساحة الضيقة التى تفصل بين الشعر والحاجبين.
ومع ذلك استطاعت أن تقول:

- لا أدعى أن الحق ليس معك، لكن "الأرخيمىرو" ما كان يجب أن
يقول ما قاله. اقتربت "لامارثى" منها والشرر يتطاير من عينيها. بدت فى
هياجها وكأنها تتميز غيظًا:

- (شوفى) يا حلوة، إفهمنى (بقه). "الأرخيمىرو" أعلى منه رتبة
ويجتهد كثيراً فى ضبط نفسه حتى لا يأمر "البيكاثا" بالوقوف ثابتا مثل
الصنم طوال المدة التى تستغرقها التمشية. فعلا، إنك لتعكرين صفو أية
واحدة بترهاتك. "البيكاثا" لا يفعل سوى توريط نفسه وذات يوم إذا لم
ياخذ حذره يكون قد سعى إلى حتفه بظلفه. إذا كان لا يستطيع تحمل
المزاح، فبأى حق يوجهه للآخرين؟ طأطأت "لاديس" رأسها. تمادت
الأخرى. وكرتها فى ذراعها وكررت:

- إيه، يا حلوة؟ بأى حق يوجهه للآخرين؟

لحسن الحظ لم يكن من طبع "البيكاثا" حمل الضغينة ويوم الأحد
التالى التقى أربعتهم وكان شيئاً لم يكن. ومع ذلك، فإن "لامارثى"،
عندما أخذوا طريقهم إلى البيت، سألت "البيكاثا"، بدون مناسبة، عما
إذا كانت "لاديس" قد حكّت له عن السهرة التى أمضتها مع المعجوز ليلة

رأس السنة وعن الضجيج الذى أحدثاه ليلتها لدرجة أن العجيران صعدوا إليهما حتى لا يأتى أعلى الدار سافلها. كان وقع الصدمة شديداً على "لاديس" فظلت فاقدة للنطق عدة ثوانٍ، غلى الدم فى رأسها وارتجفت شفتاها. تمتمت أخيراً:

- لا تصدقها، يا "بيكانا"؛ إنها تخرج.

رَمَّ "البيكانا" شفتيه وسمعت "لاديس" طقطقة تصدر من فمه مثل طقطقة حبة الفول السوداني. أخذته رعدة ظهرت جلياً عندما قال دون أن ينظر إليها: «... مع السلامة» ثم استدار ومضى لحال سبيله. نادى عليه "الأرخيمىرو": «انتظرا» وذهب معه وعندئذ صاحبت "لاديس"، التى كانت متوهجة مثل شقائق النعمان، فى "لامارنى" عند عتبة البيت أن ما فعلته ليس بالتصرف اللائق وما الذى ستجنيه من وراء ذلك، لكن "لامارنى" كانت تنظر إليها فى هدوء بعينيهما المائعتين وقالت لها: «هيا، يا حلوة، ألا تضخمين المسائل قليلاً؛ ما فعلت هذا إلا لصالحك». بالرغم من هبوط احتداد "لاديس" قليلاً إلا أنها أصرّت على أن مثل هذا لا يحدث بين الصديقات وعندئذ قالت "لامارنى" وهل كان ما يفعله فى القرية مع "لاماتيلدى" شئ يسر خاطر وأن من الأفضل إذكاء روح الغيرة قليلاً عند الرجال. لكن "لاديس"، الذى كان صرير صعود السلالم المتأكلة يطفئ من ثورتها شيئاً فشيئاً، قالت أن "البيكانا" ليس من هذا النوع الذى يحتاج لغيرة، غير أن "لامارنى" صرحت بأن جميع الرجال يحتاجون للغيرة لأنهم جميعاً سواء فقالت لها "لاديس"، التى بللت الدموع مآقيها، وإذا لم يرجع، فما العمل؟

لكن "البيكانا" صعد مساء اليوم التالى:

- هـ... هل صحيح ما روته "لامارنى"؟ - سأل.

انطفأت :

- على حسب- قالت وهى على وشك البكاء .

وفجأة توارى كل شئ:

- ا... ا... ا... تعرفين ما أريد أن أقول؟

- ماذا؟

- ا... ا... أن "مارنى" هذه ليست أكثر من قوالة .

اتجه نحوها بنظرة عكرة، مُجَوِّفًا فتحتى أنفه وفجأة، تأرمت الأمور:

- دعنى، يا "بيكاثا"، أنت تؤلمنى!

- ا... الآخرين لا يؤلمونك، أليس كذلك؟

تراكمت الدموع فى عيني الفتاة:

- لا يوجد آخرون، لكى تعرف .

-و... والعجور؟

شرعت "لاديس" فى البكاء:

- إذا كنت ستصدق كل ما يقال فاذهب ولا تعد!

كانت تنتحب بحرقة فتركها "البيكاثا" وظل واقفا، إبهاماه فى الحزام، على جانبى الإبريم، ينظر للفتاة وهى تجلس على الكرسي. ظنت "لاديس" أن الطابع السيئ يسيطر على "البيكاثا" فصاحت من جديد من خلال نحيبها:

-... إذهب ولا تعد؛ ألم تسمعنى؟

أمضت الفتاة ثلاثة أيام عصيبة، متوسلة إلى عذراء "لاجيا"، التي لا تكاد ترى صورتها من خلال الدموع، أن تعيد لها "البيكاثا". فى ذلك الوقت بالتحديد، قررت الاستقلال بمراسلاتها عن وصاية "لامارثى". كان همها كبيراً لدرجة أن سيدها لاحظته: «هل ألم بك مكروه، يا بتى؟»، سألها ذات صباح. أجابت فى انزواء: «لى أنا؟ ولأى سبب؟». لكن "البيكاثا" كان ينتظرها مساء الخميس وهو ينظر إلى ساعات "إميتريو"، والسواك بين أسنانه، أحست بدوران الأرض تحتها. فكرت فى عدم الخروج، لكنها ارتدت السترة الصوفية المنقوشة وعطرت أعلى صدرها بماء الورد ونزلت.

عند رؤية البيكاثا تظاهرت بالدهشة:

- آه، إنه أنت؟

- و... ومن سيكون غيرى؟

- لا أحد.

أمضيا أمسية لطيفة، بين قزقة اللب والتجول فى الممشى الرئيسى للمديقة متشابكى الأصابع. لم يتحدث "البيكاثا" عن العجوز ولم تشر هى من قريب أو بعيد إلى النقاش الأخير. بعد يومين، سألها الفتى عما إذا كان سيدها هو الذى كان يصعد السلم أثناء نزوله اليوم السابق فأطرقت موافقة:

- و... ولماذا يصعد السلم هكذا؟ يبدو مثل كلب.

- كما ترى، نوع من الهوس.

- لا... لا أدري لماذا أعتقد أن سيدك هذا به مسّ من جنون.

تنحنحت الفتاة:

- ظنك ليس فى محله؛ إنه فى كامل قواه العقلية.

كان "البيكاثا" يحمل فى يده كيساً أبيضاً وسألته "لاديس" عما فيه فأجاب بأنها ملابس متسخة وأن "ديمترى" أعطاه عنوان مغسلة.

خطفت منه الكيس:

- (ده اللى كان ناقص)، وما فائدتى هنا - كانت تنظر إليه متأثرة - بعد غد ستكون الملابس جاهزة.

خرجوا معاً يوم الأحد. كان الجو شتوياً لكنه ساكن وشفاف وتجولوا بالحديقة مدة طويلة. لأول مرة، اعترف لها أن ابن عم "دون أولييانو"، قائد وحدته، سيسلم له عربة نقل يوم تخرجه وبين هذا وما يخرج من عمل إضافى سيجد ما يكفيه. تصورت الفتاة أنه سيحدثها عن المستقبل لكن الفتى اقتصر قائلاً بأنه سيتمكن عندئذ من شراء ساعة مطلية بالذهب من بين ما يعرضه "إميتريو" فى الآترينة. بعد ذلك، عندما حل المساء، تبادلوا المزاح وقالت له "لاديس" أنه يمشى مثل عسكرى مستجد فسألها كيف تميز بين مشية العسكرى المستجد ومشية السادة فأجابت بأن العساكر المستجدين يمشون الطريق مرتين، مثل الكلاب، وأنهم يجرجرون نعال أحذيتهم.

- أفعل هذا لأن الحذاء كبير على - قال.

مضى كل شئ على ما يرام حتى الثلاثاء التالى والذى قام فيه "البيكاثا"، عندما كانت الفتاة تطوف به الشقة لتطلعه عليها، وبدون أية إمساء تكشف عن نواياه، بدفعها فوق سرير العجوز الواسع وارتمى عليها، وعيناه تبرقان كأن بهما حمى، وزعانف أنفه ترتعش. تم كل شئ بعتة، فقد وجدته "لاديس" ينسحب فوقها مثل وحش ضار، مشحوناً بالعتة والشرامة، فأحست بلفح الرجولة وعندئذ ركلته بكل قواها، أنشبت

فيه أظافرها وعصّت وجهه وسبّه بصوت عال. فى تلك اللحظة لم يكن هو "البيكاثا" الذى تعرفه ولم يكن من الصعب عليها صد الهجوم لأنها شعرت بغثيان قاتم عندما لفحها لهائه الخائق والمكتوم. تدحرجا فوق السرير، وأخيراً، نهض "البيكاثا" مهزوما.

أسدلت التّورة دون أن تجرؤ على رفع رأسها. لو سألت الفتاة لأقسمت بأنها رأت فى تلك اللحظات الرهيبة خلايا مخ البيكاثا من خلال فتحتى أنفه، تماماً مثلما كانت تدعى "لاكولويكو"، خادمة القس. أحست فى أعماقها بشعور جديد، مزيج من الكبرياء، النفور والحيرة. عندما رفعت عينيها، لاحظت أن البيكاثا ينزف من جبهته وخديّه. تملكته رغبة عارمة فى البكاء، أن تظل تبكى حياة بطولها حتى تُفرغ ما بداخلها. سمعت نفسها تقول أخيراً، بصوت أجش، كأنه صادر من ثايا الحوائط القرية.

- لو كنت تأتى لهذا الغرض، فاذهب إلى غير رجعة.

كان يوقف التزيف بكمّ المعطف. قال:

- تـ... تظنين نفسك أنسة محترمة.

- أنا بنت شريفة، ضع هذا حلقة فى أذنك.

- كـ... كلكن سواء، أليس كذلك؟

شرعت فى البكاء:

- لو اعتقدت أن الجميع مثل "لاماتيلدى" فأنت واهم. لست من هؤلاء.

تناول "البيكاثا" القبعة من على الأرض... بدا متحيراً. قال بفضفاضة وهو مطبق العينين:

- و... ومع لا تقولين لا، عجوز لكنّه من السادة، أليس كذلك؟

اتجهت نحوه يعميها الغضب ودفعته أمامها في الطريقة بكلتا يديها. لم يكف "البيكانا" عن سبها وهو يلتفت قليلاً نحوها:

- ت... تأتون إلى المدينة وكلكن سواء. وبعد أن تصلن إليها تتحولن إلى ساقطات. وعلى الفقراء الانتظار حتى يمل الأغنياء...

فتحت له الباب. كانت أسارير وجهها متغيرة. شيعته بالصباح وهو يهبط السلم:

- يمكن أن أرجع إلى القرية وهامتي مرفوعة، ضع هذا حلقة في أذنك! ضع هذا حلقة في أذنك يا "بيكانا"! ضع هذا حلقة في أذنك...!

صفقت الباب بعنف وأحست بالدموع تكتم أنفاسها. ظلت تبكي فوق سريرها البائس حتى المساء. نادى عليها العجوز لكي تأخذ الدرس فتعللت بالمرض.

أضاءت نور الغرفة بعد ذلك وأسرت لعذراء "لاجيا" بأنها على الرغم من كل ما حدث تتمنى عودة "البيكانا" لأن ما وقع في المساء كان مس من الشيطان وأنه سينسى كل شيء بمجرد زوال الطابع السيئ عنه.

تكوّرت بعد ذلك في السرير دون أن تخلع ملابسها وبدأت تصلى قائلة: «مع الله أنام، مع الله أستيقظ، مع عذراء "لاجيا" والروح القدس»، بكثير من التقوى والورع.

كانت تعد على أصابعها المرات التي تكرر فيها هذا حتى وصلت إلى ٦٣٧ مرة، ودن أن تعرف كيف ولا لماذا، استغرقت في نوم عميق.

فى النصف الثانى من فبراير بدأ العجوز "إلوى" يلاحظ زيادة عدد مرات التبول المصحوب بحرقان عارض وقال لنفسه: «إنها البروستاتا». عند الوصول إلى سن معينة، فمن المعروف أن «تنتهى الحياة أو تظهر البروستاتا»، بمعنى أن الحظ لازال يحالفه. اشتكى ليعسى: «أشعر بحرقان عند التبول»، لكن عيسى رد عليه قائلاً: «سيصل كلانا إلى المائة، فلا تشغل بالك». كان يتسم للشمس وللحياة بأسنانه الذهبية الثلاثة ويقول له مطوّحاً عكازه فى الهواء: «إمش رويدا رويدا». لكن العجوز كان يمشى متوجساً، مباعداً بين رجله، خشية تهيج آلامه الوليدة.

فى ظروف أخرى كان يمكنه الذهاب إلى الطبيب، لكنه الآن على قناعة تامة بأن موارده لا تسمح له بهذا الشرف. لقد باع مؤخراً الكاميرا «كونتاكس» بأربعمائة بيزيتة وسدّ بالمبلغ بعض الشقوق؛ ولا يحتمل الظرف الراهن البدء مرة أخرى. منطوياً على همّه، لم يلاحظ العجوز اكتشاف الفتاة. مضت الأصبحة فى صمت، كل منهما فى عالمه، دون نشاط ماعدا حركة "لاديس" فى المطبخ. كانت الفتاة مستمرة فى ابتهالاتها لعذراء "لاجيا" بعودة "البيكاثا"، لكنها كلما التقت بلامارنى تفاقم يأسها. قالت لها "لامارنى" ذات مساء: «رأيتك اليوم فى الشارع الرئيسى بصحبة "ديمترى"، القادم من "بياكبرالس" ومعهم فتاتان. إحداهما تسمى "لايايا"، ألا تعرفيها؟ القصيرة التى أهدوها ساعة نظير مرافقتها لطفل لمدة أسبوع. كانت "لامارنى" تحلق فيها بعينيها الماسختين. «لا أتذكرها»، ردت "لاديس". أضافت "لامارنى": «تلك التى يملأ النّمش وجهها، تلك الصغيرة التى لا تستقر فى بيت، إنها من "جاليشيا"، والتى تقول أن جدتها كانت تعمل حارسة مزلقان سكة حديد

فى "بىاكريدو". «لا أذكركها»، أكدت "لاديس"، بالرغم من أنها لم تكلف نفسها عناء تذكرها. فقد كان بالنسبة لها سواء هذه أو تلك. أحست بكثرة صغيرة تسد قناة تنفسها وسألت فى تناقل وكأن الأمر لا يعينها: «حدثينى، يا "مارثى"، كانت الفتاتان تمشيان معا أم أن كل واحد منهما كانت تمشى مع واحد؟». «كانت كل واحدة منهما تمشى مع واحد»، أجابت "لامارثى" دون تردد، فانسحبت "لاديس" بسرعة لكى تبكى على هواها، بمفردها فى غرفة النوم.

ذات صباح، بدا وكأن العجوز "إلوى" قد خرج من هاويته وسأل الفتاة:

- هل ألم بك مكروه، يا بنتى؟

أجابت باقتضاب:

- لى أنا؟ وما السبب!

الح العجوز:

- يخيّل إلى أن عينيك متورمتان، يا بنتى.

حاولت الابتسام فلم تظفر إلا بتعويجة فم مبهمة:

- ربما كان هذا من قلة النوم- قالت.

خلال الأمسيات، لم يكن عيسى يسمعه، وفى المقابل، كان يريد أن يحيطه علما بما ألمّ به من تغيرات. فقد كان عيسى يشكو مؤخراً من الدوار وسأله العجوز عما إذا كانت بطنه تعمل بدقة فاعترف له عيسى بأنها عادية ومن هنا أوصاه العجوز بالمرور بالحديقة العامة صباحاً، لأن الطبيعة هى أفضل منظم. فيرفض عيسى، ويحتج بأن هذا، مثل كل الأشياء، يتوقف على طبيعة الشخصية وأن "أجوادو"، دون الذهاب بعيداً، كان يتعرض للتيار وهو يراجع الملفات القديمة وكان يقول أن ذلك راجع للغبار، لكن أحداً لا يمكنه معرفة السبب.

فى المساء التالى؁ لم يحضر عيسى الى البواكى كعادته؁ بجوار مكتبه "أفروديسيونينو" والعجوز "إلوى" بعد انتظاره نصف ساعة دون جدوى؁ قرر الذهاب الى بيته. وجد أخته الصغيرة "أوريا" تبكى بصوت خافت فى المدخل. كلما سألها ردت عليه:

- آى؁ إلوى؁ يا للمصيبة التى حلت بنا!

وتعصّ على منديل صغير شُغلت حوافه بالدانتيل. لم توفق فى إيضاح الأمر له؛ وسرعان ما خرجت "لوى"؁ الكبيرة التى كانت تجرى وراء "بولدو پومبو" حسبما كان يُشاع فى النادى؁ وقالت له أن عيسى أصيب باحتقان وأن حالته سيئة للغاية. وجد العجوز "إلوى" صديقه متكوراً مُنهك الوجه؁ وقد شقّ فمه عن ابتسامة مخيفة. اقترب منه على أطراف أصابعه وجلس على المشاية؁ بجوار الوسادة؁ وناداه فى أذنه ثلاث مرات؁ رافعا صوته كل مرة أشدّ من سابقتها:

- عيسى؁ إنه أنا؁ إلوى؁ هل تسمعنى؟

كان عيسى يشخّر بصوت عميق ومنتظم؛ و"لوى" تنظر إليه؁ منتصبة عند رجلى السرير؁ طويلة وجافة؁ وذراعاها معقوفان فوق صدرها. مرّر العجوز "إلوى" المنديل على طرف أنفه وكرر النداء ثلاث مرات أخرى:

- عيسى؁ عيسى! ألا تسمعنى؟ إنه أنا؁ إلوى!

أحس بعجزه وكأنه يناديه من كوكب آخر؁ وأحس؁ فى نفس الوقت؁ بضياع هائل وكأنه طفل يرى أمه تضيع منه فى غابة كثيفة. فجأة؁ رفع عيسى ذراعه الأيمن وبحركة خرقاء أشار على نفسه بعلامة الصليب. قال العجوز وهو ينظر إلى "لوى" مندهشاً:

- إنه يشير بعلامة الصليب على نفسه.

- نعم - ردت "لوى" ببرود- إنه الشئ الوحيد الذى يفعله .

حينئذ سألها العجوز عن تشخيص الطبيب فأجابت بأنه لو عاش سيظل كسيحاً، مشلولاً، أبلها أو أخرساً وأن الموت أفضل من البقاء على قيد الحياة فى أى حالة من الحالات المذكورة، لكن العجوز "لوى" ردّ بلا، فالمهم هو بقاء عيسى حيّاً وأنه شخصياً سيخرجه فى عربة صغيرة للشمس إذا لم يستطع الاعتماد على نفسه وسيحدثه بطريقة ما لو ظل أخرساً، لكن الموت لا تنفع معه حيلة ولا تشفع فيه وسيلة. ظل بعد هذا منتظراً لإجابة "لوى" متشوقاً، وكان حياة صديقه تتوقف عليها، لكن "لوى" لم تنس ببنت شفة. جلس العجوز "لوى" على المشاية وبقي فى موضعه حتى أطبق الظلام على الشرفة. وفى كل مرة يصلّب فيها صديقه على نفسه، كان العجوز "لوى" ينظر إليه بالحاح، محاولاً اقتحام العالم المبهم الذى يجوبه عيسى الآن ويقول لنفسه: «إنه يرى شيئاً، ولذلك لا يسمعى». وضع بعد ذلك قماشة بين الوسادة ووجنته فأمسك صديقه عن الشخير ثم أخبر "لوى" بأنه سيذهب ليحيط الفتاة علماً وسيعود لتمضية المساء معهم.

عندما عرض الأمر على "لاديس" امتنع لونها وتخيلت "لاأديانا"، جامعة الصمغ، وموسى الذى احترق وجهه فى فرن الهندباء، وأخبرته أنها تفضل الذهاب معه وسألته عما حدث للسيد عيسى. فشرح لها حالته.

قالت الفتاة أثناء نزولها السلم:

- المربع هو مستقر العجائز، كما هو معروف.

- المربع؟

ابتسمت:

- الحفرة التي تُعدّ للدفن، لكي أوضح الأمر.

أوضحت في الحال استعدادها لتقديم العون في كل ما يلزم، لكن على العجور ألا يضع في اعتباره مسألة دخولها على السيد عيسى لأنها لا تستطيع النظر إلى الأموات ولا إلى ذوى الأمراض الخطيرة وخاصة أولئك الذين تنبعث منهم رائحة.

- تنبعث منهم رائحة؟

- هيا. لا تدعى الجهل. المريض المتأخر تنبعث منه رائحة الموت.

في المدخل، أبلغته "لوى" أن الطبيب قال إذا رادت عليه الحمى فلا أمل. كان المكان ينضح برائحة العقاقير الطيبة ورمق العجور إلى "لاديس" بعينه خلسة فأومأت الفتاة برأسها ثم جلس إلى جوار صديقه منتظرا وصول الراهبة. فى الحقيقة، لم يكن الموت كظاهرة يفزع العجور "إلى"، وإن كانت صرامته ولوارمه الحدادية تُشعل منه الرأس شيئا. وعلى خلاف هذا، كانت تفزعه سكرة عيسى هذه، أن تكون له رجل هنا والثانية فى العالم الآخر دون أن ينحار كلية إلى مكان أو إلى آخر. وكان يفزعه، على وجه الخصوص، إصراره على الإشارة إلى نفسه بعلامة الصليب وكأنه يود طرد شئ ما أو الحصول على رضا أحد بعينه. منذ سنوات عدة، كان صديقه عيسى قد تَنَصَّل من كل اهتمام ديني ونفس الشئ جرى للعجور "إلى" باستثناء قداس الأحد. تَصَرَّف صديقه، فى سكرته، لرُزُل كيانه الداخلى. حاول، من جديد، النداء عليه، دون جدوى. كان العجور "إلى" يقول لنفسه: «إنه يرى شيئا لكنه لا يسمعى. ما يراه عيسى الآن ينتسب للعالم الآخر». صعد كُرب غادر لأعلى حنجرته، وكان عليه أن يتنحى حتى لا يختنق. قبل أن تصل الراهبة بعدة دقائق، وضع له الترمومتر. خرج من الحجرة متحمسا:

- سبع وثلاثون درجة ونصف؛ ليست حمى. من دفء السرير يمكن أن تزيد الحرارة بضعة أعشار. أليس كذلك، يا "لوى"؟

كانت "لوى" تضع إصبعها تحت عنقها وكأنها تريد أن تخفف من حدة لهاثها. لم يفلح ثلاثتهم في تخفيف فزع "أوريا" التى كانت تصر على رؤيتها للموت متخفيا وأنهم لو دققوا النظر لرأوا طرف المنجل الكبير فوق الستائر. أعطوها مهدئا وأدخلوها السرير. فى كل مرة كانت تسمع فيها "لاديس" ما تقوله "أوريا" عن الموت والمنجل الكبير، كانت تنظر إليها فزعة وتقول: «هيا، يا آنسة، دعك من هذا الموشع».

أمضى العجوز المساء بين الصالة وغرفة المريض. ظلت "لوى" معه وفى الخلوة الودية التى أشاعها الهزيع الأخير من الليل ومكان الجلوس والعاطفة المشتركة نحو عيسى اعترف لها العجوز "إلوى" بأن الورقة الحمراء طلعت له فى دفتر البفرة. لكن "لوى" لم تفهمه وصرحت له بهذا فأراد أن يشرح لها بأن هذا مثل النذير وأن الحياة، فى حقيقتها، ليست سوى صالة انتظار، لكنها أصرت على عدم فهمها له فاحتتم العجوز كلامه قائلا فى ارتباك أن الأمر ليس على قدر كبير من الأهمية وأنه مجرد مثل. تحدثا بعد ذلك عن أيامهم الخوالى وقال لها العجوز "إلوى" أن الأربعة "بومبو"، "بائكيت"، "عيسى" و"هو"، عندما كانوا يجتمعون كان "بولدوبوميو" يبهجه التساؤل عن الأطول عمرا بينهم. كان هذا حماقة منه لأن "لوى" فحصته بعمق وكأنها تقول له أنه الوحيد الباقى منهم لكن نظرتها كانت شديدة الوطأة فبدت وكأنها تتهمه بشئ ما. ولإزالة التوتر، حكى لها العجوز "إلوى" كيف أن "بيين بائكيت"، فى أوقات اكتسابه، كان يتغوط فى البحيرة بقصد قتل الأسماك الملونة ردت عليه بأنها لم تكن تعرف للغائط مثل هذه الخواص، ودون مناسبة، قال أن "بومبو" كان متفتحا للغاية ورياضيا عظيما. عندما تحدثت عن "بومبو"

شاعت الحيوية فى وجهها العبوس والضامر لدرجة أنه رسم ابتسامة عابرة عندما ذكر اليوم الذى أهذى لها فيه "بولدو" ببغاء فى عام ١٩٠٥. تحدثنا بعد ذلك عن الشجار مع تلاميذ المدرسة الحربية، و"لاباكيستا أوردونيث"، واحتفالات تنصيب الملك، والسيدة "پورا كاتروكس"، والبنك التعاونى، وعندما بدأ يرتفع على جراج "إسماعيل أبريل" ضوء لبنى قالت "لوى"، فى عودة لأرض الواقع، لقد حانت ساعة الاطمئنان على المريض، فنهض العجوز "إلوى" وعاد بعد فترة قصيرة ليقول أن سبعا وثلاثين درجة ونصف ليست حمى وأن النصف درجة الزيادة نتيجة سخونة السرير. بعد ذلك ذهب العجوز "إلوى" إلى بيته لينعم ببعض الراحة. عندما عاد لبیت صديقه عيسى كان المساء يمسك بتلابيب النهار وفى المدخل وجد "أوريا"، الصغيرة، وقد بدا عليها الهدوء فقال لها العجوز "إلوى"، بوجه يكسوه الأسى، أن الحياة مثل صالة انتظار والكل قابع فيها، وبين الحين والحين ينادى مناد: «التالى» وبهذه الطريقة يتجدد العالم شيئاً فشيئاً، لأن البعض يدخل بينما يخرج آخرون، لكن طال الزمن أم قصر فإن الدور سيأتى على الجميع. كانت هذه حماقة أخرى منه لأن عيني "أوريا"، الصغيرة، أخذتا فى الخروج من محجريهما والتحول إلى البياض كلما تابع الكلام، وأخيراً، رفعت يديها إلى أذنيها وشرعت فى الصياح والتوسل إليه بعدم الخوض فى تلك المسائل المرعبة لأن هذا يعنى أن الدور عليها الآن، لأنها الكبيرة، ولن تنتظر خانعة حتى ينادى عليها المنادى: «التالية» وعندئذ ظهرت "لوى"، الكبيرة، وسألت عما حدث فأخبرها العجوز "إلوى" بأن مرض عيسى قد أثر فى أختها وأن الأفضل لها أن تنام.

ظل عيسى بلا حراك، يتنفس بمشقة من فمه الموارب وعندما نادى عليه العجوز بصوت مترع بالشوق لم يحفل به، وعلى خلاف هذا، فقد

كان يُصَلِّب على نفسه باستمرار، وعندما ينتهى كان يترك ذراعه يسقط حاملاً فوق ملابسه.

أمضى العجور "إلوى" المساء إلى جوار "لوى" وحادثها عن "ليونثيتو" وأنه كان يقول لزوجته منذ صغره: «هذا الصبي سيكون أعلى منى منزلة»، ثم يضيف بعد ذلك: «وكما ترين، يا "لوى"، فهو الآن مسجل عقود في مدريد ولم يتجاوز الثانية والأربعين». عند الفجر وضع الترمومتر لعيسى وخرج ليقول أن ثمان وثلاثين درجة ليست بالشئ الذى يثير الفزع وأن البنسلين يعمل المعجزات هذه الأيام.

فى صبيحة اليوم التالى ذهب لينام فى بيته. نام بعمق، وعندما استيقظ أحس بصوت فى المطبخ فخرج مستدثراً بالرؤوب ووجد "لاديس" تتحدث مع عسكري مستجد وقف على قدميه بمجرد دخوله فقالت "لاديس"، منطفأة، بعد عدة ثوان من الحيرة:

- هذا، سيدى، وهذا، صديق.

قال العجور "إلوى":

- اجلس، اجلس، يا بنى.

وعندما جلس الجندى على الكرسي المستدير، أضافت "لاديس" مبتهجة:

- إنه من قريتى.

حدث كل شئ دون سابق إنذار. عندما سمعت الفتاة النداء على الباب لم تتوقع أن يكون "البيكانا" هو الطارق، لكنه قال عندما فتحت الباب، وكأن شيئاً لم يكن: «... ماذا تقول الجاهلة الأكثر جهالة من كل الجاهلات؟». وعندئذ، صاحبت مستأثرة: «بيكانا!»، وظلت لحظة تتأمله. لم تستطع الفتاة التغلب على ذهولها. قالت أخيراً: «هيا، ادخل، لا تظل واقفاً هكذا مثل الصنم». دخل وسلمها الكيس بالملابس المتسخة.

فى اليوم الخامس؁ فتح عيسى عينين غائرتين؁ دهشتين وخاليتين من الحياة.

عندما وصل العجور "إلوى" أخبرته "لوى" بهذا وعندئذ جلس العجور على المشاية وظل يناديه بإسمه مرة بعد أخرى لمدة ربع ساعة. لكن عيسى لم يرد؁ كان يرفع ذراعه فقط؁ بين الحين والحين؁ للتصليب. توفى الخامسة صباحا. أمضى العجور "إلوى" الأربع والعشرين ساعة التالية وكأنه إنسان آلى. كان يعرف جميع الخطوات التى يجب اتباعها وأتمها بكل دقة؛ مؤسسة تكفين الموتى ودفنهم؁ السجل المدنى؁ الجريدة والكنيسة. كان يحس وكأن سحابة بداخل رأسه وبدا له أنه يعيش حلما مرعبا. عندما حضر صبيان "فلورا مارتين" بالتأبوت ساعد "لوى" فى تكفين صديقه؁ ودقائق بعد ذلك؁ اقتاد "دون رود ريجو بالمينو"؁ طبيب المركز الصحى؁ لرؤية الجنة وتوقيع شهادة الوفاة. طلبت منه "لوى" بعد ذلك مباشرة أن تحلق ذقن أخيها قبل تغطية وجهه بالمنديل. نادى العجور "إلوى" على "مامس"؁ الذى يحلق له ولعيسى منذ عشرين عاما؁ ولما انتهى "مامس" طلب ٣٥ بيزيتة. تشاجرت "لوى" مع الحلاق ووقف العجور فى صفها قائلا للحلاق أنه كان يقبض فى حلقته حيا أقل من ٥ بيزينات فرد عليه "المامس" حينئذ بأن الأمر لا يحتمل المقارنة. فسأله العجور:

- لكن؁ يا بنى؁ هل يزيد الميت على الحى شيئا؟

أما "لوى" فلم تكن تفعل سوى تكرار:

- وهو ميت تفعل به ما تريد؁ إذا جرحته لا يحتج؁ فلماذا يدفع الميت ما يدفعه سبعة أحياء؟

لكن "الماس" أصرّ على أن الأمر لا يحتمل المقارنة، وأن "دون أيليو"، مُعلّمه، كان يقول أن الحاجة الشديدة هي التي تضطر صاحبها للحلاقة لميت وأنه إذا كان قد فعل ذلك فإنما فعله اعتباراً لما مضى. وأخيراً، أعطته "لوبي" ٣٠ بيزيتة فأخذها وهبط السلم وهو يدمدم. كانت "أويا"، الصغيرة، شديدة الفزع وتردد فقط، بينما تعضّ المنديل المشغول بالدانتيل: «آى، يا إلهى، آى، يا إلهى...». من حين لآخر كان العجوز "إلوى" يذهب إلى الجثمان ويحدثه بصوت خافت. عندما حلّ الليل ذهب إلى بيته ومعه "لاديس". أثناء الطريق، كانت الفتاة تكلّمة مستخدمة الكثير من الإيماءات، ولما لاحظت سلبية العجوز المطلقة، قالت له:

- هيا، إنه ليس من بقية أهلك حتى تفعل بنفسك كل هذا!

نظر إليها برهة بعينين داميتين، يكسوهما الكرب. بدا وكأنه يستعد للكلام، لكنه لم يقل شيئاً. استمر في السير كأنسان آلى مطرّق الرأس. كان من الصعب عليه إفهام الفتاة أنه لم يكن مجرد صديق، بل مصدراً للدفء، وأنه لم يكن مجرد رجل هذا الذى يرقد فى التابوت، بل مدام "كاتروكس" الفرنسية ومدرستها الابتدائية، و"بولدو پومبو" ورحلاته على الدراجة وكرات الدكتور "ساندون" للجம்பاز، وأخته "إيلينا"، "لأنتونيا"، والعم "أليخو" وذراعه القصيران؛ و"لاروسينا" والعمم "إرمس" والبنك التعاونى؛ و"بيين پائكيث" و"لاپاكيثا أوردونيث" ودار الحمامات العامة؛ و"لوثيتا" و"جويتو"، ابنه الصغير، وحياة بأكملها. كان فى منتهى التعقيد محاولة التوضيح للفتاة بأن الإنسان يحتاج لدفء داخلى وآخر خارجى وأن الأمور كانت على ما يرام عندما اخترعت النار، لأن الناس كانوا يتحلقون حولها فتشيع بينهم المودة الصادرة من ألسنة اللهب ذاتها، لكن بعد أن جاء التقدم وجمع الدفء

فى مواسير؁ تناثر عقء الموءة؁ فمن العبء الاسءفاءة بنار ءخلو من ءخان. كان كل شئ فى غاية العقءاء لءرءة أنه نفسه لم يكن يعلم إلى أين سىءتهى لو بءأ فى الكلام. لذلك فضّل الصمء والاسءمرار فى المشى وعنءما وضعت الفتاة أمامه؁ فى البىء؁ كوب اللبن وقاءت له لا ءأخذ الأمور مأخذ الجء لأنه لن يُقءم بءلك شئاً ولن يؤخر؁ رفض بإصرار من رأسه:

- ءعك من هءا؁ يا بءى؁ فلىسء لى شهية.

كان العجوز "إلوى" يعرف أن الإنسان حيوان قصير العمر مهما طالت به الحياة. لقد أجرى وهو فتى بعض العمليات الحسابية وعرف أن متوسط عمر الإنسان العادى يصل إلى : ٢٥٠٠٠ يوم، أى أكثر قليلاً من نصف مليون ساعة. الآن، يحسب العجوز "إلوى" الأيام التى يعيشها رجل يموت فى الخامسة والسبعين وعرف أن الرقم يصل إلى حوالى ٢٧٣٧٥ يوماً، أى ٦٥٧٠٠٠ ساعة، أو ٣٩٤٢٠٠٠٠ دقيقة، أو ٢٣٦٥٢٠٠٠٠ ثانية. لكن إذا أخذ فى الاعتبار أن الإنسان ينام فى المتوسط ثمان ساعات يومياً، وهى فترة الموت الأصغر، يتضح أن الذى يموت فى الخامسة والسبعين يكون قد عاش فقط ١٨٢٥٠ يوماً، أى ٤٣٨٠٠٠ ساعة، أو ٢٦٢٨٠٠٠٠ دقيقة، أو ١٥٧٦٨٠٠٠٠٠ ثانية. أما إذا خُصّمت الأيام والساعات والدقائق والثوانى التى يقضيها الإنسان فى غفلة الطفولة الأولى، فإن الحياة الواعية لرجل يعيش خمسة وسبعين عاماً تتضاءل إلى ١٥٦٩٥ يوماً، أى ٣٧٦٦٨٠ ساعة، أو ٣٣٦٠٠٨٠٠ دقيقة، أو ١٣٥٦٠٤٨٠٠٠ ثانية. وبالتوقف عند حالته الخاصة، توصل العجوز "إلوى" إلى أنه لو عاش حتى الخامسة والسبعين، يكون قد بقى له ١٢٢٠ يوماً، أى ٢٩٢٨٠ ساعة، أو ١٧٥٦٨٠٠ دقيقة، أو ١٠٥٤٠٨٠٠٠ ثانية. وهو شئ ليس بالكثير فى أحسن الأحوال. رآته الفتاة وهو يعرض طرف القلم ويدون الأرقام فى رباطة جأش. سألته:

- ماذا تفعل، إن كان هذا يمكن معرفته؟

- عمليات حسابية، يا بنتى.

- هل الحساب صعب، يا سيدى؟
- بالرغم من أن الأرقام يمكن أن تكون واحدة، إلا أن بعض العمليات الحسابية أكثر تعقيداً من البعض الآخر؛ يا لها من أشياء!
- جعدت "لاديس" جبهتها تعجيدة واحدة، عميقة وأفقية. اختزلت، بعدها، ابتسامة خشنة:
- أر... ماذا قلت؟
- أرقام، يا "ديس".
- حركت الفتاة رأسها حركة خاطرة:
- لازالت هناك أشياء لم أتعلمها بعد.
- لم يجب العجوز "إلوى". حاولت الفتاة إثارة حماسه، دون جدوى. أمضى ساعتين مُحدِّقاً من النافذة في البيت المقابل. بعد ذلك، وفي الثانية عشرة والنصف إنهمك في العمليات الحسابية ولم يستطع منها فكاكاً. من حين لآخر كان يُخرج المنديل من جيب دثاره الذابل ويممره على طرف أنفه.
- في اليوم السابق حضر مراسم دفن صديقه عيسى وشاهدت الفتاة ومعها "البيكاثا" العرض الجنائزى وهما يقفان داخل إحدى البوابات. قالت للعجوز في المساء:
- ظننت أن السيد عيسى يمتلك ثروة.
- سلط عليها العجوز عينين غائرتين:
- لماذا تعتقدين هذا، يا بنتى؟
- كشفت عن أسنانها الصفراء الغير متناسقة وقالت:

- كانت لديه ثلاث قطع ذهبية هنا.

نظرت إلى العجوز، وبما أنه لم يجب، فقد أضافت قائلة بأن التابوت كان رخيصاً وعليه إكليل واحد وأن العربية كان يجرها فقط جوادان هزيلان، لكن سيدها ظل أخرسا، وكأنها لا تتحدث إليه. حينئذ سألتها الفتاة عما إذا كانوا قد خلعوا منه الأسنان الذهبية قبل دفنه لأن ثلاثة أسنان ذهبية تعتبر ثروة في عالم اليوم، لكنها إزاء تعبير الفزع الذى ارتسم على وجه العجوز قررت غلق فمها. أعدت له بعدها كوب اللبن فقال سيدها.

- دحك من هذا، يا بنتى، ليست لى شهية.

قالت له عندئذ:

- تعالى على نفسك واشرب. ستظهر عظامك من الهزال.

لكنه لم يأت بأى حركة. حينئذ هاجت "لاديس":

- إذا كنت تفعل هذا من أجل صديق، فماذا تركت لفرد من عائلتك؟

رفع العجوز عينيه وفحصها بنظرة شاردة. قال: «إنها الليلة الأولى له»، وعندئذ لاحظت فى حدقتيه ذلك الشرود الذى كان يلازم "الأبولينار"، ابن عم "الأوترويو"، زوج أختها، فقالت:

- كل، كل، لا تستسلم للأحزان؛ مافيش عندنا بكرة شئ نبكى عليه.

تصدّر العجوز "إلوى" مراسم دفن صديقه ومعه "فيلينوكريسيو"، صاحب الوكالة الإدارية. ابتاع العجوز يومها إكليلا بسيطا، بشرط أسود مدونة عليه حروف مذهبة تقول: «من صديقك إلوى». بعد ذلك وعلى باب الكنيسة غالبه النعاس وفى دقائق قليلة بقى وحيدا مع "فيلينو كريسپو"، الذى أخبره بأنه استأجر تاكسيًا والعجوز، دون تفكير، دلف

إلى جواره في العربة. كانت العربة الكارو السوداء، وعلى جانبيها الملائكة المذهبة، تتقدمها مُصدرة دويًا وأفرغ أحد الجوادين، عند المرور بمبنى المحكمة، ما في جوفه بحرية تامة وترك فوق الأسفلت عقدًا من الروث.

كان للمساء لون رمادي مراوغ وبعد أن صلى القسيس صلاته الغير مفهومة أمام المصلّي الصغير، أخبر "فيلينو كريسيو" العجور بأنه ينوي العودة سريعاً لأن هناك من ينتظره وسأله إذا كانت لديه وسيلة ليعود بها، لكن العجور "إلوي" طلب منه ألا يشغل نفسه لأنه سيتصرف ساعته. في المقابر الصامتة أحس بمرور الهواء بين الأفرع الداكنة لأشجار السرو. كان أحد الرجال يدفع العربة الكارو وفوقها التابوت بين صرير إحدى العجلات الخلفية. حمل التابوت، بعد ذلك، أربعة رجال وأنزلوه قاع الحفرة بنفس البرود الذي يودع به فلاح بذرة في قاع شقّ. فجأة وجد العجور "إلوي" نفسه وحيداً في المكان الشاسع المفزع، في حراسة أشجار السرو الشجية وعندئذ استدار فوقعت عيناه على شاهد قبر: «آمن وانتظرا ملك "دييجو بلانكو فانخول"». "دييجو بلانكو" لم يتخل عن غريزة حب التملك حتى بعد موته. قُتل "دييجو بلانكو" في مبارزة بالسيف على يد "رودريجيث دي يانو"، لأن "دييجو بلانكو" لم يقبل حكم هيئة التحكيم في معركة "دي فلورس" عام ١٩٠٥ وتوجه حينئذ إلى المنصة وصرخ "رودريجيث دي يانو" أمام الحاضرين وقال له أنه دافع عن مركبة "ثياريو جايثان" لأن ابنة عشيقته كانت فيها. عندئذ تحدّاه "رودريجيث" في مبارزة، لكن "دييجو بلانكو" كان يقول وقتها في النادى: «سأطعن هذا الخنزير حتى الموت». لكن بمجرد أن أعطى قاضى المبارزة إشارة البدء وقال: «إلى الأمام، أيها السادة» وبعد كُرّة شرسة ثم أخرى، سقط "دييجو بلانكو" وقد اخترق السيف رثته. خلف كنيسة "بلانكو" الصغيرة توجد

مقبرة "بيبين باثكيث"، تغطيتها الحشائش وعليها شاهد يقول: «هنا يرقد خوسيه ماريا بالوميريو - ١٠/٤/١٩٢٢- فى سلام». لكن الشاهد لم يذكر شيئاً عن الغائط، ولا عن أسماك البحيرة الملونة، ولا عن موته دون انتظار فى الردهة. ولم يتحدث أيضاً شاهد مقبرة "دورو بينيا" عن موهبته، ولا عن رئاسته لاتحاد طلاب الطب الذى أجبر الوزير على إلغاء قانون ٣١ يوليو لسنة ١٩٠٦، ولا عن إعلانه الإضراب عن الطعام حتى يُنفذ مطلبه. ولم يتحدث شاهد مقبرة الصبية "توماسيتا إسيو" - «ابنتنا، لن ينساك أبوك أبداً»- عن فزعها أثناء الليل، ولا عن شقها لنفسها فى شجرة بلوط بتاريخ ١٥ مايو ١٩١٠ حتى لا تشاهد الاصطدام الرهيب للأرض بالنجم "هاللى" والذى تنبأت الصحف بحدوثه يوم ١٨ مايو لنفس العام. ولم يتحدث شاهد مقبرة مروض البراغيث - «رحمتك، يا رب»- "توفون لاسايى جونثال" - ٣/٣/١٩٢١- عن مهارته، ولا عن دعوته الرتيبة: «تعالى وشوف العجب، البرغوث أبو رجل من ذهب. طريق للداخلين، طريق للداخلين». ولا عن الناس التى كانت تتدافع لرؤية البراغيث المدربة من خلال عدسات مكبرة وهى تجر عربة صغيرة متعددة الألوان.

ولم يقل شاهد مقبرة "إيليو دورو روخاس" - «أعلى الذكريات من أبنائك»- شيئاً عن إعادته سبك جرس "سان بينيتو" الذى يصل وزن غطائه إلى ٧٢ رطلا صافيا. ولم يذكر شاهد "فرناندو مارين" - ١٢/٢/١٩٣٣- أنه أفلس لمتابعته "جايتو" مصارع الثيران، وأنه كان أول مواطن بمدينتهم يحضر مباراة مسائية لمصارعة الثيران جرت فى برشلونة بتاريخ ٢٤ يونيو ١٩٠٣ والتى شارك فيها، بالإضافة إلى "جايتو"، كل من "ماتشاكيتى" و"مورينيتو دى الخيثيراس". ولم يذكر شاهد مقبرة "خينيروسو جونثال پراث" - «عفوك، يا رب، عفوك»-

شيئاً عن وكالته للتوزيع: «سيدات وأنسات ثريّات، محترمات وشريفات من العاصمة ومعظم المحافظات يرغبن في الزواج المشروع؛ المهر من ٥ آلاف بيزيتة إلى ٢٥ ألف. تَوَجَّه بالطلب وعليه التوقيع إلى المُفَوَّض "خينيروسو جونثالث پرات"، ٨ شارع "دى لاسوتا"، مدريد». وشاهد قبر "دون بوينا بتورا سالجادو"، قسيس "سان خينيس" - «خَدَمَك في الأرض، يا إلهي، فأنعم عليه بالراحة السرمدية» - لم يذكر كلمة عن غيرته الدينية، ولا عن اعتراضه الحاسم على توسيع شارع بالمدينة على حساب هدم كنيسته، ولا عن كلماته الشهيرة التي بعث بها إلى فخامة كبير الأساقفة والتي أدت إلى إثارة المشكلة أمام القضاء عام ١٩٠٠: «فخامة كبير الأساقفة، ليس من الإنصاف أن يختفى بيت من بيوت الله من أجل رفاهية العباد». ولم يذكر شاهد مقبرة "دونيا پورا كاتروكس" - «هنا ترقد» - شيئاً عن وسائلها التعليمية، ولا عن التلميذ "إلوى نونيث" الذي تربى في مدرستها. ولم يقل شاهد مقبرة "أوتيكيو جوميرو"، والتي تبعد قليلاً، - «هنا يرقد في حوى الرب» - أنه مخترع اللائى اللامعة من "البورون" (*) و"الأورالينا"، المعدن الجديد، الذى يتكون من خلط الذهب الخالص بالبرونز والألومنيوم. وأخيراً، لم يذكر شاهد قبر "دون نيكوميدس فرناندث بينيا"، أنه كان العملة الشريف والمُدَقَّق والذى قَبْل أن يقرر سفلتة الميدان اجتمع بمجلس المدينة اثنتى عشرة مرة فى ١٩٠٣، وست عشرة مرة فى ١٩٠٤ ليميط اللثام عن موضوع المجارى.

عندما دق جرس المقابر، رفع العجوز "إلوى" رأسه ودار حول نفسه دورتين قبل أن يعود إلى أرض الواقع. وهو يتنقل من مقبرة إلى مقبرة، ومن ذكرى إلى ذكرى، داهمه مغيب الشمس. كانت أشجار السرو تَسودّ فوق رأسه على خلفية السماء الضبابية. فك أزرار الباطو بحركة خرقاء،

* البورون: مادة كيميائية - المترجم.

أخرج المنديل ونظف طرف أنفه . كانت يده الزرقاوان ترتعشان وبعد أن حفظ المنديل ظل متردداً لعدة ثوان . لم يكذب يهتدى لمعرفة ما إذا كان شاباً أو شيخاً أو إلى الدّاعى من تواجده هناك . فجأة تذكر عيسى فالتفت نحو مُجمّع الصليبان التى تتلاشى على البعد وتمتم :

- أترك لكم عيسى هناك ، راعوه ؛ إنها أول ليلة له .

عند البوابة عثر على قسيس المقابر . كان يرتدى جبّة متآكلة ويتمتع بعينين دهشتين ، وفم خالٍ من الأسنان . إلى جواره كانت توجد عربة جنازية وقال له الحوذى :

- هيا "دون هابيل" ، الوقت تأخر علينا .

نظر القسيس بإشفاق نحو العجوز :

- هل لديك وسيلة مواصلات تعود بها؟

أنكر العجوز برأسه .

- اركب إذن ، يا أخى - قال له القسيس .

والعجوز "إلوى" ، دون أن يفطن جيداً لما يفعل ، اعتمد على الرّفرف وصعد العربة . شمّر القسيس الجبّة وصعد خلفه بسرعة ، ثم التفت إلى الورااء قليلاً :

- هيا بنا ، يا "پاستور" .

سأط الحوذى الجياد والعجوز "إلوى" ، وهو جالس على السنوء المستطيل الذى توضع الثوابيت فوقه قال للقسيس أنها المرة الأولى التى يركب فيها عربة مثل هذه فابتسم القسيس بلثية ليرد عليه : "ولن تكون الأخيرة" . حينئذ قال له العجوز فى مرارة ، وهو يشير بإصبعه إلى أسوار

المقابر، لدىّ داخلها أصدقاء أكثر بكثير مما لدىّ خارجها فقال له القسيس أن هذا هو قانون الحياة ثم أضاف قائلاً، دون مناسبة، أنه لم يعلم طوال حياته المهنة عملاً أفضل من الحالى. كانت العربية تثب المطبات فأمسك العجوز بأحد الأعمدة الحلزونية السوداء وقال له أنه كان يعتقد أنها مهنة كثيفة، لكن القسيس أجاب بأن تسليم الأرواح للعالم الآخر هي المهمة الأجلّ شأنًا التي يمكن أن يصبو إليها قسيس. سأله العجوز "إلوى" فجأة عما إذا يعرف عدد الايام التي يعيشها رجل يموت فى الخامسة والسبعين، ورد القسيس بالنفى، فقال له العجوز أنها تريد قليلاً عن الخمسة والعشرين ألفاً دون حذف ساعات النوم، وعندئذ أضاف القسيس قائلاً بأن الحياة حلم قصير، لكن الناس يملؤهم الجشع كما لو كانوا سيُخلّدون فيها.

بعد أن انتهى ممر أشجار السَّرو دخلت العربية، بالجياد الجوعى التى تسير خَبَّياً، الضواحي القريبة من المدينة. بين الأكواخ كانت تلمع الأنوار الضاربة إلى الصفرة والصبية فى الأسماط البالية يلعبون فى الأراضى الفضاء. لاحظ القسيس حيرة العجوز "إلوى". التفت نحوه مرتين ثم عاد مرتين لوضعه المتحجر الذى كان عليه فى البداية. نظف أنفه بالمنديل فى عصبية. أخيراً، وبعد حركة مباغتة، سأله عما يمكن أن يراه إنسان فى غيبوبة، وهو فاقد للحواس، ودون حراك تقريباً، حتى يُصلَّب على نفسه فى كل آن، فأجاب القسيس بعد أن تستنح، بأنه يمكن أن يكون الرب الذى ينتظره للحساب، وعندئذ انكمش العجوز فوق معدته، وكأنه تلقى ضربة فيها، وطلب منه الاعتراف.

"لاديس"، الفتاة، تراه الآن وهو ممسك بالقلم الرصاص وسألته:

- أيمكن معرفة ما تكتبه؟

- عمليات حسابية ، يا بنتى .
- دعك من العمليات الحسابية . سينصهر مخك بسبب هذا .
- لم يحفل بها . حسب عدد الجنازات التى شيّعها منذ شبابه فانضح له أن الرقم يصل إلى سبعة آلاف وخمسمائة ، بالرغم من أن الرقم لازال تقريباً .
- تناول القلم من جديد ودوّن أرقاماً أخرى . بعد أن انتهى ، راجعها ووجه بصره نحو الفتاة قال لها فى مشروع ابتسامة :
- أتعرفين ، يا بنتى ، عدد الأيام التى أتقدمك بها؟
- تتقدمنى إلى أين؟
- أتقدمك فى العمر .
- فكّرت "لاديس" لحظة . قالت أخيراً :
- دعك من هذا الموشّح !
- ألم تفهمينى ، يا بنتى؟
- لمحت الفتاة عينيه الذاهلتين ، الراحلتين ، وأصابها الذعر . أمسك العجوز عن الخوض فى هذا الجانب . ومع ذلك ، فقد هاجم من زاوية أخرى :
- أتعرفين ، يا بنتى ، عدد الأيام التى يعيشها الإنسان؟
- لنرى . . . هذا لا يمكن معرفته .
- بالتقريب .
- هزت الفتاة كتفيها لكنها نظرت إليه باهتمام . أضاف :
- خمسة عشر ألفاً .

فتحت "لاديس" عينيْن مستديرتين مثل طبقين وحكّت إصبعها بآخر
محدثّة صوتاً:

- ياه!

- أتبدو لك كثيرة، يا بنتى؟

- ألا تبدو لك أيضاً كذلك؟ الواحدة منا تجد فى وقت كهذا مُتَّسَعاً
للضجر. يا للعدراء!

بعد ان لاحظت "لاديس" ثبات طبع "البيكانا" برغم مرور أيام كثيرة ظنت ان الجيش قد تمكن منه. لكن "مارثى" لم تكن معها فى هذا:

بينما تغسلين له الثياب، سيمضى كل شئ على ما يرام- كانت تقول. لم تكن "لاديس" تفهم ما تريد أن تصل إليه صديقتها. الأحد الماضى ذهب أربعتهم للرقص فى "البابى باى" واضطرت "لامارثى" فى النهاية إلى الجلوس على خشبة الموسقيين وخلع حذاءها. اعترفت لها اثناء العودة أن كعبها مسلوخان. فى اليوم التالى، سألتها "لاديس" من مسقط النور المشثوم عن قدميها، لكن "لاتاسيا" تدخلت وصاحت فيها قائلة أنها تعرف أن صديق العجور قد مات وأن سيدها سيلحق به فى يوم ليس على المخاطر أو الحسبان لأنه، والحق يقال، لم يعد يتحمل (الشقاوة) الزائدة. وعندئذ ثارت نائرة "لاديس" ووصفتها بالحقارة والدناءة ونهت عليها بعدم التدخل فيما لا يَخِيها، ولكن "مارثى"، دون اكتراث بالمشادة، أخبرتها بأن قدمها اليمنى بها جرح ولن تخرج الخميس القادم لأنها لن تتحمل الحذاء.

وبهذا الشكل خرجت هى و"البيكانا" وحدهما يوم الخميس. ظلاً فى "البابى باى" إلى أن هبط الليل والفتى، الذى بدأ بكثير من المراعاة واضعاً منديلاً على قفاه حتى لاتسخ السترة الصوفية من العرق، فقد وقاره فى النهاية والتصق بها أكثر. نهفته الفتاة وعندما تذكرت ما جرى بين سيدها وزوجته، نهت عليه ألا يلتصق بها لأنه يكاد يقطع أنفاسها وأنه إذا لم يسترخ قليلاً سيغى عليها. بعد خروجهما، كان "البيكانا" يدفعها نحو الحديقة وهى تقول له يالك من فطن، تجاه الظلام لا. "تف... تف... تفعلين هذا وكأننى سألك".

- من باب الاحتياط .
- قرصها بجرأة .
- لا تبدأ يا "بيكاثا" .
- أ. . . ألسنا مخطوبين؟
- (شوف) أنت .
- أ. . . ألسن نتزوج؟
- تغير لون الفتاة:
- "بيكاثا" ، هل هذا ما تنوى عليه؟
- ه. . . هل تظنين شيئا غير هذا؟
- كان يدفعها نحو الظلام ولم تكن متنبهه لنواياه:
- ومتى سيحدث هذا؟- سألته وهي فى شبه غيبوبة .
- ب. . . بعد الانتهاء من الجيش . ق. . . قائد وحدتى وعدنى بعربة نقل
بمجرد إنهاء الخدمة العسكرية .
- جلسا علي مقعد فى الظل . عبثٌ يديه العنيد والعصبى حبس أنفاسها ،
خارت قواها اللارمة لصدده . قالت بصوت مخنوق:
- وسنعيش فى المدينة ، يا "بيكاثا"؟
- خرج صوت "البيكاثا" ، مكتوما وكأنه مكتم الفم:
- أ. . . أفضل من العيش فى القرية ، أليس كذلك؟
- والغناء؟

- ل... لقد انتهى زمانه .

- ألا تفكر فى العودة إلى الغناء؟

- لا... لا أقول هذا. لكن إذا كان هناك ما يستحق فلا يوجد مانع .

خيم الصمت . صدرت من المقاعد القريبة همسات باهتة دقيقة .
جفلت الفتاة:

- أما هذا فلا، اسحب يدك يا "بيكاثا" !

- (ك... كويس كده)، ألن نتزوج؟

- انتظر إذن لوقتها. لقد قطعت لى رراً من السترة، لكى تعرف. ثابت
الفتاة الآن إلى رشدھا لكى تدافع عن شرفھا. لن تحمل ابنة أمى إلى
المذبح وهى مسلوبة الشرف. ضع هذا نصب عينك، يا "بيكاثا" .

تراشقا لفترة بالكلمات، وأخيراً نهض الفتى متبرماً:

- هـ... هيا نعود .

بعد تلك المشادة ظنت "لاديس" أن "البيكاثا" لن يعود، لكنه حضر
السبت ومعه كيس الملابس المستسخة وكأن شيئاً لم يكن. كان سيدها
موجوداً واعتري "لاديس" الكدر لأن بيكاثا وسيدها لم يتبادلا كلمة ولو
واحدة. انصرف "البيكاثا" سريعاً وقال لها من على الباب أنه سينظرها
الأحد القادم فى تمام الرابعة، كما هى العادة.

أخبرت "لامارثى"، والارتباك يطوقها، بعرض "البيكاثا" للزواج بها.
راغت عينا لامارثى: "هل قال لك هذا؟- سألت-: لا تثقى بكلمة يقولها
الرجال، هذا هو رأى". لكن "لاديس" أوضحت بأنهما سيتزوجان
بمجرد أن ينتهى من الجيش وأجابت "لامارثى" بأن هذا لا يزال فى علم

الغيب. "ليس كل الرجال سواء، يامارثي"، قالت "لاديس". لكن "لامارثي" صوّت نحوها إصبعها الرّخو، زَمَت شفّتها، وأطبقت جفنيها وقالت: "ثقي كما يحلو لك".

أما بالنسبة للعجوز، فإن "لاديس" لم يدهشها صمته مع "البيكاثا". فخلال الأسبوع الأخير، ومنذ موت السيد عيسى، لم ينطق العجوز بكلمة تقريباً. في الصباح، كان يجلس على الكرسي المستدير، ظهره مقوس، ذراعه معقوفان فوق معدته، متمثلاً بشكل غريزي وضع الجنين في بطن أمه. وهكذا، وهو بلا حراك، كان يمضي الساعات متأملاً البيت المقابل. إذا جرجرته من لسانه وسألته عن الملك، أو عن زوجته، أو "جويتو"، ابنه الصغير، فإنه كان يرد بالكاد من خلال مقاطع صغيرة.

بدا مثل تمثال وإذا تحرك فمن أجل تنظيف أنفه أو لإجراء عمليات حسابية معقدة على حواشي الجريدة. في هذه الحالة كان ينتعش قليلاً ويقول للفتاة:

"أتعرفين، يا بنتي، عدد الدقائق التي عاشها صديقي عيسى؟". أو:
"أتعرفين، يا ابنتي، عدد من اختفوا من المدينة منذ مولودي؟". أو:
"أتعرفين، يا بنتي، عدد الثوانى التي مرت منذ وفاة عيسى، الثوانى التي لم يعيشها حتى الآن؟". لم تكن الفتاة تجيبه لأنها لم تكن، أساساً، تفهمه. ذات صباح سألها العجوز دون سابق إنذار: "هل تعترفين في الكنيسة، يا بنتي؟"

"طبعاً، أعترف عما يخصني"، أجابت الفتاة. أضاف بعد وقفة قصيرة: "الاعتراف يهون الإنتظار". نظرت إليه بدهشة: "الإنتظار، انتظار من؟". لكن بالرغم من انتظار الفتاة لإجابته بلهفة واضحة إلا أنه لم يفتح فمه.

وفجأة أصبح سيدها، أحد الأيام، متغيراً، مسروراً ومنشرح الصدر، مثلما كان فى الأوقات الهنيئة. قال لها العجوز أنه قرر الذهاب إلى مدريد وأنه أرسل خطاباً بهذا إلى ابنه. تراءت للفتاة فى الحال صورة "لأدريانا"، جامعة الصمغ، التى مزقوها إرباً ذات ليلة عند مدخل الجبل، وصورة موسى، الفتى الذى احترق وجهه فى فرن الهندباء وفى الليلية التى كانت تدق فيها الأجراس للتذكير بأرواح الموتى، كان يطوف بشوارع ملفوفاً فى ملاءة ليخيف الفتيات وسألت العجوز عما ينوى عمله معها فأخبرها بأنه سيدفع لها أجرها كاملاً علاوة على الطعام كما لو كانت تعمل، وعندئذ أوضحت "لاديس" بأنها قصدت بسؤالها الإشارة إلى أنها قصيرة النفس وتخاف البقاء بمفردها، لكنها سرعان ما تذكرت "مارثى" فأخبرته بالآ بسغل باله لأنها ستصرف.

أمضى العجوز يومين مشغولاً بإعداد لوازمه، تسيطر عليه الشكوك والحيرة: "سيدى، إلى أين أنت ذاهب بفرشاة الأحذية، ألا يوجد عند ابنك فرشاة؟" كانت تسأله. فيجيب: "من باب الاحتياط، يا بنتى". فى مرات أخرى كان يعطيها النصائح: "من أجلك فقط ليس من الضرورى تشغيل التدفئة، فبعد أربعة أيام لن يكون الجو بارداً". لم يستطع الركون إلى الهدوء، كان يضع ثم يخرج أشياء من الحقيبة. وفجأة يقطع عمله: "لوجاء أحد من جماعة التصوير قولى له أننى انسحبت. قولى له... أو من الأفضل ألا تشرحى له الأسباب، أخبريه فقط بانسحابى". كانت الفتاة تتبعه إلى حيث ذهب، وكأنها كلب صغير يلازم صاحبه: "حسناً، لا تشغل بالك"، كانت الفتاة ترد عليه وهى متدرة بالصبر.

يوم السفر، نهض من السرير السابعة والنصف صباحاً. أشارت الفتاة على نفسها بعلامة الصليب:

- يا للعداء! أيمكن معرفة إلى أين أنت ذاهب فى هذه الساعة المبكرة من الصباح؟

كان العجوز يمشى مضطرباً. إنها المرة الثانية التي يعود فيها لركوب قطار بعد المرة التي جرت قبل عشر سنوات وكانت وقت زفاف "ليونثيتو".

- دعيني، يا بنتي، فهناك الكثير من الأشياء يجب أن أفكر فيها.

- ألن يقوم القطار في الخامسة مساءً؟

لم يجب. أمضى الصباح بطوله بين الذهاب والمجيئ من مكان لآخر. وبين الفينة والفينة كان ينادى على الفتاة: "أقول، يابنتي، أنه من أجلك فقط ليس من الضروري تشغيل التدفئة هذه الأيام. فالجو لم يعد بارداً". "حسناً، لا تشغل بالك". وبعد فترة: "ديسى" لو جاء أحد من جماعة التصوير قولى له أننى انسحبت. قولى له أن كل شئ ارتفع ثمنه هذه الأيام... أو من الأفضل ألا تشرحي له الأسباب، أخبريه فقط بانسحابي". "حسناً، لا تشغل بالك"، كانت ترد عليه.

في الثانية عشرة طلب منها تقديم الغداء الذي لم يتذوقه. كان ينظر إلى الساعة طوال الوقت:

- لكن، ياسيدي، ألن يقوم القطار في الخامسة مساءً؟

- لا تنظني أن الوقت كافٍ، يابنتي.

ذهب إلى حيث توجد الحقيبة، لكنه تذكر شيئاً فجأة لأنه رجع من منتصف الطريق إلى المطبخ:

-أقول، يابنتي، أن الفتى ربما تمسك بي ولم يتركني أعود. في تلك الحالة، سأرسل لك خطاباً.

هزت الفتاة كتفيها:

- (مُشْ باين) لأنه لم يفتكرك حتى الآن إلا قليلاً.

لكن العجوز لم يكن يسمعها. في الثالثة، أعطى الأمر بالرحيل. كانت الفتاة تميل إلى جانب من فرط ثقل الحقيبة.

- ثقيلة ، يا بنتى؟
- مثل ميت- ردت الفتاة وهى تبعد عن جبهتها خصلة من الشعر بظهر يدها التى يبللها العرق.
- توقفت أمام لافتة أحد المحلات.
- قالت متعكرة المزاج: ماذا تقول اللافتة؟ أقدم إصبعين من يدى نظير قراءتها دفعة واحدة.
- "ديسى" ! -نادى العجوز وهو يلف الملفعة حول عنقه.
- ماذا تريد؟ إذا أبعدتنى عن الحروف الكبيرة فى الجريدة أقع فى بحر من الحيرة.
- اللافتة تقول -تكلم العجوز-: "قصر الأسيرة" ، وتحتها: "المتجر الذى يبيع الأفضل ، والأرخص".
- رلت قدمها فوضعت الحقيبة على الأرض. مررت من جديد ظهر يدها بالجبهة.
- قالت للعجوز فجأة:
- سأشتري الحشيشة من هنا يوم رفافى.
- ألك خطيب ، يا "ديسى"؟
- احتقن وجه الفتاة:
- (شوف أنت).
- ذلك الجندى؟
- بعينه .

- لا يبدو سيئا يابتي .
- أمّنت على كلامه برأسها، ثم قالت :
- عيبه الوحيد، العرق السيئ .
- العرق السيئ؟
- نوبات الغضب التي تعتريه أحياناً .
- كان العجوز يتململ :
- هيا بنا، يا بنتى . إذا وصلنا فى الوقت المناسب سنكمل الحديث فى المحطة .
- كان ثقل الحقيقة يبرز صدرها وحول بشرة وجهها بعض الشئ إلى اللون البنفسجى . عند صعودها الرصيف تراخت ركبتها وكان عليها بذل المزيد من الجهد حتى تحفظ توازنها .
- "ديسى" - نادى عليها العجوز .
- والفتاة تحت ثقل الحقيقة الباهظ، أخرجت صوتاً خافتاً :
- إذا جاء أحد من جماعة التصوير قولى له اننى انسحبت . الأفضل ألا تشرحنى له الأسباب، يابتي، أخبريه فقط بانسحابى .
- تركت الفتاة الحقيقة على الأرض مرة واحدة . نشفت العرق وابتسمت ابتسامة خشنة :
- حقيقة اننى لا أستطيع مهما حشدت من قوة .
- انحنى العجوز على الحقيقة :
- سأساعدك .

- حضرتك؟
- نعم، يابتي.
- دعك من هذا، إنها ثقيلة.
- لقد تأخرنا، هيا.
- رفعت الحقيبة من جانبها:
- ألن يقوم القطار فى الخامسة؟
- كان العجوز يتأرجح تحت الثقل الكبير للحقيبة. مرّ جنديان مستجدان واتجهت العيون الأربعة إلى ساقى "لاديس".
- ياسمراء، ألا تريدين مساعدة؟
- ألقت الفتاة بنظرة مشوشة من جراء الغضب والتعب:
- (روح) ساعد أمك، يا منبغ القدارة! -صاحت.
- قال العجوز:
- "ديسى"، يابتي، حسنى الفاظك.
- (بقى ده كلام)، تعرف بما فيه الكفاية ما يقصده هذان .
- نظرا لعدم التوازن بين جهديهما عثر العجوز وترك الحقيبة فجأة فانتقل الثقل كله ناحية الفتاة:
- إبقى نبّه! -رغقت ثائرة-: كنت على وشك السقوط على وجهى.
- كانت ساعة المحطة تشير إلى الرابعة إلا خمسا وعشرين دقيقة وقال العجوز للفتاة أن بإمكانها العودة، لكن "لاديس" كان يسليها الآن تأمل ذلك النشاط غير المألوف لديها!

ظلت الفتاة إلى جواره صامتة تتأمل بانتباه مناورات القطارات والرجال ذوي القبعات المستديرة والبيارق الحمراء والعربات الصغيرة المحملة بالطرود. ومع هذا فقد كانت تؤلمها رائحة الفحم التي ترتبط عندها بالوداع والفراق.

قالت:

- يلزم كثير من الشجاعة للذهاب إلي مكان بعيد جدا.

- مدريد ليست بعيدة، يا بنتي.

- ألا تبعد أكثر من خمسة فراسخ.

- في هذا عندك حق، يابتي، فهي في الحقيقة تبعد كثيرا عن ذلك.

- وتقول أنها ليست بعيدة؟

كان العجوز عصيبا وانهمكت في تهجى يافطة مكتوبة بالأبيض والأسود: "لر- جال...". التفت إليها سيدها فجأة، وقال بينما كان ينظف أنفه:

- إذا تمسك بى الفتى ولم يتركنى أعود سأرسل لك خطابا- ابتسم- من المحتمل جدا ألا يتركنى "ليونثيتو" أعود.

أطلق القطار صافرة فشحب لون الفتاة، وعندما انتهت الصافرة ضربت أذنها بكفها. قال العجوز:

- اتركى أذنك وشأنها، يابتي.

- الملعون هذا افقدنى السمع- رفعت يدها اليمنى وظهر تعبير الألم على وجهها- يدى (إستوت)، لأعرف ما إذا كانت يدى أم يد الغير.

نظر إليها العجوز بحنان:

- من الحقيبة، يابنتى؟
- (شوف) أنت.
- تمايل العجوز. فكّ أزرار البالطو وأخرج حافظة النقود، وبعد أن فتّش بين محتوياتها، مد يده إلى الفتاة وبها ورقة مالية فئة البيزيتة:
- خدى، يا بنتى، تستحقينها.
- (بلاش كده، ده اللى كان ناقص).
لكن العجوز أصر فمدت الفتاة، فى النهاية، يدا قصيرة وضاربة إلى الحمرة:
- شكرا جزيلا- قالت وهى تخفى الورقة فى صدرها. ثم أضافت بطيبة قلب: إذا كان من السهل كسب بيزيتة لما وجد فقراء فى هذا العالم، أليس كذلك، يا سيدى؟

عندما وجد نفسه فى مدريد، فى الشوارع الجديدة، أمام آفاق غير معهودة وكأنها اغتسلت حديثا، ظن العجوز "إلوى" أن بوسعه الاستقرار، وحتى البدء من جديد.

كان العجوز يتصور- خاصة ساعة الإفطار فى الحديقة الصغيرة المغتسلة بالشمس الوليدة الناعمة- أن الانتظار لم يكن عبثا وأن الحرقان وكثرة التبول يمكن أن يكونا مجرد حدث ربيعى. لم يكن الربيع يمضى بعيدا وهاهى مدريد، تبدو بشمسها وكأنها تبشّر بقدومه. كان العجوز يجتهد فى نسيان كل شئ ولا يفكر إلا فى التّعم بتواجد "ليونثيتو" إلى جواره. كانت تلك الساعات الأولى من النهار، التى تتركهما فيها "شوثيسو" وحدهما لأنها تعانى من حساسية الشمس الصباحية، تذكره بالأيام الخوالى. وبالرغم من كل هذا فقد كان يسيطر على العجوز "إلوى" هم جديد: انطفاء "ليونثيتو" المبكر. انعقد علي طرف لسانه ثلاثة أصبحه متتالية ما كان يود أن يروي له عن تفاصيل إحالته إلى المعاش فى حضور عمدة المدينة حتى انه، عندما استيقظ، وضع الميدالية فى جيبه بقصد عرضها عليه، لكن الفتى كان ذاهلا ولم يتجاوب معه. كل مرة كان العجوز يحاول فيها هذا كان "ليونثيتو" يقول، مقاطعا له:

- عندما أستيقظ أشعر وكأن سحابة بداخل رأسى. إنه شعور غريب... بعدم الاستقرار، هذه هي الكلمة المناسبة... يبدو لى انه سيغنى على فى أى لحظة. ينتقل هذا الشئ بعد ذلك ليعض هنا، فى فم المعدة- تظهر على وجهه أمارات الاشمئزاز- لا أعرف ما هو.

كانا يتناولان فطورهما سويا ويجهدها العجوز "إلوى" فى التسرية عنه .
الآن يفهم العجوز لماذا لم يذهب الفتى لانتظاره فى المحطة . وهو شئ
لم تفعله أيضاً "سوئيسو" بسيارتها الصغيرة ، لكن "سوئيسو" ، زوجة
ابنه ، تبدو مشغولة جداً . ومع ذلك ، فقد قَبَّله "ليونثيتو" عندما وصل ،
ربما لأن العجوز كان قد ألقى بنفسه بين ذراعيه دون مقدمات . وعلي
خلاف هذا ، فإن "سوئيسو" قد مدتْ بالكاد يدها ونادته بإسمه مجردا
بدل أن تقول يا أبى . لقد ظل يحلم دائماً -ربما لأنه لم يُرزق ببنت- أن
تناديه فتاة جميلة بكلمة أبى .

الآن ينحنى على "ليونثيتو" ليخبره بأن عيسى ، صديقه القديم ، قد
مات لكن "ليونثيتو" قَطَّبَ جبينه وسأله مشوّشا :

- عيسى ، من عيسى هذا؟

- صاحب الوكالة الإدارية ، يا بنى ، ستتذكره ، رجل سريع
الانفعال ، لا يفارقه العكار ويهوى أربطة العنق اللافتة للنظر . لقد رايتنى
كثيراً معه .

هز "ليونثيتو" كتفيه :

- حسنا ، لأبد وأنه كان طاعنا فى السن .

- أكمل الثانية والسبعين حديثا .

- فى مثل هذه السن كل شئ وارد .

تقطب وجهه فجأة . سأله العجوز فزعا :

- أتشكو من شئ يا بنى؟

- قفاى ، أشعر بوخزات فيه ، لقد أصبحت مَوْطنا للرايا .

بعد الإفطار فى الحديقة، كان "ليونشيتو" يقرأ الصحف، وعندما ينتهى، يعمل بجد خلال بعض الوقت إلى أن تبدأ حبات العرق الأولى فى التساقط، وعندئذ يدخل الحمام ويغلق بابه عليه حتى يأتى موعد الغداء.

سأله العجوز "إلوى" ذات صباح عن مكتب التوثيق:

- لست من أصحاب المكاتب. أعتقد أحيانا أن الجهد الذى بذله الواحد لاجتياز اختبار الوظيفة لا يفارقه أثره مدى الحياة. إنه اختبار يزهق الأرواح. راهق للأرواح، هذا هو التعبير المناسب.

كانت مآزق العجوز "إلوى" تبدأ مع الغداء. فلم يخلق لمثل هذه العادات. وعندما كان السُّفْرَجى يقرب منه الصوانى، كان يقول لزوجة ابنه: «لو سمحت، يا بنتى، إغرفى لى أنت». كانت "سوئيسو" تنكمش كلما ناداها بابنتى وكأنه يصق على وجهها.

فتنادى على السُّفْرَجى، "بييتو"، وعندئذ يؤكد "ليونشيتو" بأن نظام خدمة المائدة، الإيطالى الأصل، من أفضل مكاسب الحضارة الحديثة. ومع هذا فإن تواجد هذا الرجل كان يزعج العجوز ويثير أعصابه. فلم يكن يعجبه أن يراه أحد وهو (يُعافر) مع أدوات المائدة التى لم يتوصل أبدا إلى استخدامها بسلاسة. بيد أن "سوئيسو"، زوجة ابنه، إذا لم تكن تتحدث مع زوجها عن السيارات، فإنها تتحدث مع "بييتو"، السُّفْرَجى، وتسخر منه وتضحك على قوله بأنه لم يشاهد ميتا طوال حياته أو أن الفزع يتناهه عندما يتحدث الرجال بطريقة غير مهذبة. كان العجوز يجتهد فى التقرب من "سوئيسو"، لكنها كانت تتحرك فى عالم آخر.

كانت تقول:

"ليو"، فى الطريق إلى مدريد اختنقت السيارة ولما أردت استخدام السرعة الأولى رعى الفتيس بطريقة جعلتنى أراجع وعندئذ توقف المحرك.

كان "ليونثيتو" ينصحها بأن تقوم فى مثل تلك الحالات بالضغط على دواسة الدبرياج مرتين، وتدوس على البنزين خلالهما، و"سوئيو" تنصت إليه بانتباه وكأنه يقرأ لها الانجيل. فى مرات أخرى كانت تؤرقها مشكلة ما، و"ليونثيتو" يحلها لها ببساطة. كان العجور "إلوى" يرمقه بمزيج من الفخر والتواضع:

-إذا نفث الكاربوراتور- كان "ليونثيتو" يؤكد- فالسبب يرجع ، كما هو معروف، إلي مجموعة رأس الإسطوانة أو الصمامات.

كانت زوجة ابنه لا تستلطفه ويلغ الظن بالعجور انه يمثل عائقاً لها. سمعها تقول لابنه ذات مساء: "لماذا لا يستحم العجائز يا "ليو" رائحة أبيك هى تلك الرائحة التي تميز البسطاء من الناس". لكن "ليو" ثئاب دون أن يعيرها اهتماما وصعد العجور إلى غرفته ثم هبط ثانية بقصد إستهلاك بعض الوقت حتى لا تلاحظ "سوئيو" أنه سمعها. عادة ما كان العجور ينزوى وينكمش ولا يجرؤ على النطق بكلمة إذا كانت نظرة "سوئيو" أو "بييتو" مسلطة عليه.

فى بعض الأيام، على المائدة، كانت "سوئيو" تحدث "ليونثيتو" بالفرنسية وذات مساء، بعد أن تكلمت معه كثيرا بالفرنسية، قال "ليونثيتو" لوالده أنهما ينتظران هذا المساء بعض الأصدقاء وعليه أن ينام مبكرا لأن السهر لايناسب صحته. لمعت نظرة العجور:

-حفلى؟

-حسنا، لاتسميه هكذا، ليسوا سوى أربعة من الأصدقاء.

خطر للعجور "إلوى" أن السهرة يمكن أن تبدد كآبة "ليونثيتو" ففال له عليك بالاستمتاع ما استطعت وأنه سيأوى للفراش حسب رغبتهما،

لكنه لم ينم بل انزوى فى حجرته وعندما أحس بالأصوات والضوضاء تحت أطل بحذر من أعلى السلم لكى يرى "ليونثيتو" وهو يتسم، لكنه لمح أولا "بييتو" وهو يحمل صينية من الفضة وعليها كتوس ثم الرجال الذين يرتدون الملابس الغامقة ثم "سوئيو" وهى تنتقل من لمة إلى أخرى. وسمع الموسيقى، سمع صوت "سوئيو" يعلو على بقية الأصوات: "وقلت له يا قذر". فرد على، حيثذ: "أعرفين أنك سليطة اللسان، يا اختاه؟" وضحكت "سوئيو" وأمسك بكتفيها العاريين رجل من هؤلاء، الذين يشبهون بعضهم، أخذ يضحك معها فى الركن المقابل، بجوار المكتبة، سألت فتاة لاتتعدى العشرين من العمر عن الذى مديده وقرصها وأصافت بأنها تود معرفته لأنه لو اتضح، على سبيل المصادفة، أنه زوجها فستجعله عبرة لمن لا يعتبر. كان "ليونثيتو" يتحدث فى زاوية مع فتاة أخرى ونظراته مشوشة ومتعكرة، لكنه لم يكن يتسم بل يشير إلى قفاه ومعدته وعندئذ أغلق العجوز "إلوى" على نفسه الحجرة ونام والغم يركبه.

فى الصباح التالى تبول قليلا من الدم وأفضى بهمه ساعة الإفطار إلى "ليونثيتو":

- أنت محظوظ- رد عليه "ليونثيتو"-: أنا مستعد للتنازل عن كل ما أملك نظير الإصابة بمرض معلوم المصدر. أما مرض الأعصاب فلا يوجد من يفهم فيه، لا يفهم فيه أحد.

كان يضنط على جبهته براحة يده. قال له العجوز:

- على أية حال، يابنى، أخبرك بأن الورقة الحمراء طلعت لى فى دفتر المبفرة.

- الورقة الحمراء؟

- إنه لنذير، فهذا يعنى أن الباقي خمس ورقات- قال العجوز فى لهجة استسلام. ظل "ليونثيتو" مرتبكاً للحظة. يبدو لمن رآه وكأنه يعد قمم الجبال البعيدة. قال بعد ذلك بصوت قاتم:

- مثل هذه الأشياء تحدث للرجال الذين صنعوا أنفسهم بأنفسهم. فصناعة الرجل لنفسه تنطوى على جهد نفسى خارق للعادة. وبعد ذلك تأتى مرحلة الاسترخاء، ثم عدم الاستقرار.

استرجع العجوز "إلوى" مشوار "ليونثيتو" الدراسى وامتحان الوظيفة ومدخراته القليلة لكنه قال فى ضيق وبصوت حاد:

-لقد درست كثيراً، يابنى، لم تتوقف أبداً عن الدراسة. كنت أقول لوالدتك: "هذا الفتى إن لم يختل عقلياً، سيصبح عالماً فذاً".

ابتسم. لم يكن "ليونثيتو" ينظر إليه:

- ثم يأتى هذا الشد العصبى الغادر: "إنى أعلم، هل أنا الأكثر علماً ومعرفة؟ الواحد منا لا يعرف أبداً إذا كان سيأتى من هو أكثر معرفة منه ليحتل مكانه".

أوماً العجوز:

- بالضبط، العمدة، ليلة وداعى...

لكن "ليونثيتو" واصل كلامه برتابة، وكأنه فى حوار ذاتى مع النفس:

- الشك، هنا يكمن الخطر. الشك الذى يقرض أعصاب الفرد. عندى مقدرة فى الجدل وثقة بالنفس المعنى فى الشرح والتفسير، باختصار، أعرف، لكن هل أعلم أنى الأكثر معرفة؟

ذلك المساء ظل العجوز بمفرده فى البيت . نزل إلى الصالون وحاول تشغيل جهار الاسطوانات ، لكنه لم يفلح . من حين لآخر كان ينظر إلى الباب بارتياح خائفا من ظهور "بييتو" . كان يرغب فى سماع الموسيقى وفى الاندماج معها لكنه لمح فجأة "فاوستو" ، القطة التايلاندية العملاقة فوق المائدة وهى تنظر إليه فى عناد بحدقتيها الصفراوين ، مقوسة ظهرها . تقهقر العجوز وعندئذ قفزت القطة فوق الكرسي على بعد متر واحد منه ، نافشة شعر صلبها ومصدرة مواء خافتا . تقدم العجوز بجنبه نحو الباب ، ويداه مبسوطتان ومتشجعتان فوق الجدار ، لكن "فاوستو" كانت تقفز من قطعة أثاث إلى أخرى دون أن تنزل نظرها من عليه وقاطعة عليه طريق الانسحاب . حاول العجوز الرجوع إلى المكتبة ، لكن حركاته كانت تزداد طيشا وعصبية . كان قلبه يخفق بشدة بين ضلوعه ويتكور خوف لو دعى فى حلقه . كانت مطاردة "فاوستو" له تزداد عنادا وقربا وعندئذ زعق ، صاح "بييتو" مرات كثيرة حتى ظهر الخادم وحيثذ لم يستطع الكلام ، اقتصر على الإشارة وهو يلهث إلى القطة المترقبة ، لكن "بييتو" ضحك ، حمل الحيوان وقال المسكينة فى دورة نزوية وترغب فقط فى مداعبة أحد لها .

فى هذا المساء ، عندما قدم له "ليونثيتو" كأسا من الويسكى قبل الطعام لم يرده العجوز "إلوى" وطلب آخر بعد ذلك ، ثم شرب ثلاثة كئوس متتابعة من نبيذ شويش . انفكت عقدة لسانه بعد قليل وقال أن الورقة الحمراء طلعت له فى دفتر البفرة وسألت "سوئو" عن معنى هذا فرد عليها قائلا : "يعنى أن الباقي خمس ورقات فقط" وما لبث أن ربط بين اللونين الأحمر والأبيض وبين لون الدم فى البسول وأكد على أن هذا بمثابة نذير وذكر "ليونثيتو" بالمرّة التى اشترى له فيها هو وأمه ، "لوئيتا" ، لحم خنزير مجفف حتى لا يضعف وكيف كان يجن جنونه كلما اقترب "جويتو" ، الصغير ، من اللحم . وعندئذ توجه "ليونثيتو" إلى

"سوئيسو" قائلا: "أنها مجرد ترهات، فهو لا يدرك معنى ما يقول، فلا تأخذى كلامه مأخذ الجد". لكنه شرع فى حكاية تفاصيل حياته وقتها على "سوئيسو" فقال ابنه: "من الأفضل ألا تتذكر هذا، فلا فائدة تُرجى من وراء ذكر ما يؤلم الآن"، لكن العجوز "إلوى" كان يرى "سوئيسو" تضحك على كلامه لأول مرة وتطلب منه المزيد من التفاصيل و"ليونثيتو" يقول لها "إنه فاقد الوعي، لقد شرب كأسين من الويسكى على خلاف العادة. ما ينطق إلا بترهات، إنه فاقد الوعي". لكن العجوز كان يحس بصعود نشاط غير مألوف من داخله وقال لزوجته ابنة أن صديقه عيسى قد مات مؤخرا ولم تعد له أى صلة بالهيئة، التى كان يعمل بها قبل إحالته إلى المعاش لأن "كراسكو"، زميله فى العمل، لا يمل من مواجهته متكهما بأنه التحق بالهيئة للعمل دون أية مؤهلات دراسية وليست لديه ميزة تجعله يفتخر بها. كانت "سوئيسو" تطلق ضحكات مجلجلة و"ليونثيتو" يشير عليها بضرورة تركه لينام، لكنها صرحت بأنها لم تره مسليا هكذا وطلبت منه تركه لبعض الوقت وتوقف العجوز ثم سألها عما إذا كانت تعرف عدد الأيام التى يعيشها رجل يموت فى الخامسة والسبعين فأجابت بالطبع لا، فقال ١٥٦٩٥ يوما، وسألها عن عدد الساعات وردت بلا، فقال ٣٧٦٦٨٠، وعن عدد الدقائق وأجابت بلا، فقال ٢٢٦٠٠٨٠٠، وعن الثوانى فأجابت، وهى ميتة من الضحك، بالطبع لا، فقال- دون ان يأخذ نفسه تقريبا- ١٣٥٦٠٤٨٠٠٠ ثانية.

كان العجوز "إلوى" يلهث وطلبت "سوئيسو" من "ليونثيتو" أن يقدم له كأسا أخرى، فهى لم تضحك سفى حياتها مثل الليلة، وبينما كان يعد له الكأس دخل "بييتو" فقالت له انتظر لتسرى شيئا مسليا، وعندئذ قال العجوز "إلوى" أن الحياة مثل صالة انتظار والكل ينتظر فيها، محاولين الهروب من الواقع، بصم آذانهم كل مرة ينادى فيه المنادى: : التالى " لأنهم يخافون من مجرد التفكير فى أن الدور يمكن أن يلحقهم غدا، لكن

"بييتو" بدأ يرتعد ويقول أن السخوض فى مثل هذه الأمور لا يعجبه، هذا بينما كانت :سوئيسو" تتلوى من الضحك على الأريكة وتتقلص تقلصات عنيفة. وفجأة، تصببت جبهة العجوز عرقا وتحولت إلى الزرقة، خفت نبضه وتقيأ بغزارة علي السجادة. بقى بعد ذلك كالميمت، متكورا علي الكرسي وكاشفا عن أسنانه فنهض "ليونثيتو" وأخذه من إبطيه وطلب من "سوئيسو" و"بييتو" مساعدته.

على السلم استرد العجوز وعيه وقال أن قسيس المقابر ذكَّره بقصر الحياة ومع هذا فإن الناس يملؤهم الجشع ويتصرفون وكأنهم سيخلدون فيها. لكن "سوئيسو" لم تضحك فعرف أن كلماته جاءت فى غير وقتها وعندما جردوه من سترته فى الحجرة، تذكر فجأة أنه لم يخلع بنطلون البيجامة خوفا من الإصابة بالبرد وقال "سأستحم غداً يا "بييتو". الآن يريدون خلع بنطلونه و"سوئيسو" تكرمش أنفها وعندئذ جفل العجوز وقال، لا إنه مستريح هكذا وعليهم أن يتركوه ولا يعاملوه كأنه طفل، وإزاء عناده تراجعوا عما عزموا عليه فخلع العجوز حذاءه بعد أن ضغط بكل قدم على مؤخرة القدم الأخرى.

ومتأرجحا دخل السرير. كان يسمع نبض قلبه فى صدغيه وإبطيه وتدور به الدنيا ولكى يستريح أطبق جفنيه وأطفأت "سوئيسو" ضوء الحجرة الأوسط وتركت ضوء مقدمة السرير وعندئذ طلب العجوز من "ليونثيتو" أن يقبّل جبهته، دون لمسها بالشفنتين، كما كان يفعل وهو صبي، فاستجاب "ليونثيتو" ووارب العجوز عينيه ونظر إلى "سوئيسو" نظرة متعكرة وقال لها بعناد صياني:

- والآن دورك أنت، الآن أنت، يابتنى.

فانحنى وأنفها مكرمشا لكنها طبعت قبلة على جبهته، وسرعان ما استغرق العجوز فى النوم.

- يا . . . ياله من هراء! - قال "البيكاثا" محتدا.

- هيا- أجابت "لاديس" -، مادمت تريد القرية، ففي القرية إذن، أنا لست مثل "لامارثى" التى تفضل العنوسة على الزواج بالقرية. لست من هؤلاء.

كانا يتفلمان قشر اللب بحركة آلية على ظهور المارة، وعندما أحست "لاديس" بالبرد طوقت معدتها بأطراف السترة الصوفية.

قال "البيكاثا" بعد فترة من الصمت:

- لا . . . "لامارثى" هذه سليطة اللسان.

- لست معك فى هذا، يا "بيكاثا". فلكل فرد شخصيته و"لامارثى" لها من النقائص كما لغيرها. عليك بإقامة حفل زفاف جيد لى فى القرية وفى هذه الحالة لا يمكننى حتى مقارنته بحفلات المدينة. صدقنى، فإن أكالات العم "بوتى"، مهما فعل العم "بوتى" بأكلاته، أفضل بكثير مما تقدمه الفنادق الفخمة. ولكى تُضفى الحيوية على تأكيداتها، كانت الفتاة تصحبها بحركات مبالغ فيها من يدها.

أضافت بعد وقفة قصيرة:

- لست آسفة إلا على الدجاجة، أما الباقي فأمره سهل.

توقف الفتى، مقوس الساقين، ظل قبسته يغطى عينيه، وإبهاماه يختفیان فى سواد الحزام، بجانب الإبريم.

- أية دجاجة - سأل.

أجابت "لاديس" :

كانت أمي، رحمها الله، قد وعدت بتقديم دجاجة لكل بنت منا يوم رفافها. مع أن الأمر يبدو تافها يا "بيكاثا" إلا أن الدجاجة تعتبر من لوازم البيت، فهي تعنى بيضة كل يوم، وما هو إلا قليل من الوقت. . .

- لن. . . لن نموت جوعا إذا لم تكن هناك أيضا دجاجة- قال عكر المزاج.

ابتسمت "لاديس". منذ يومين وهي تعيش في الخيال. بالكاد كانت تساعد "لامارثي" في التنظيف صباحا، وفي غسيل الأواني بعد الغداء. أما بقية النهار فقد كان ملكا لها وإذا لم تخصصه للحديث مع "لامارثي" عن المستقبل، فقد كانت تخرج للتنزه مع "البيكاثا" أو ترتب جهازها. أحيانا كانت تنزل إلى شقتها بمفردها وتبسط كنورها على السرير السفري: طاقمان داخليان، فوطتان، ثلاث ملاءات والمفرش الأزرق. كانت تتأملها منتشية وتختبر جودة القماش بأصابعها وأخيرا تقول لنفسها وهي مفعمة بالرضا: "لا يوجد شيء واحد قبيح".

بعد سفر العجوز بيومين اشترت ملابس داخلية من النايلون ووسادة.

سألت زميلتها

- "لامارثي" ألن تعلميني التطريز؟

كانت "لامارثي" تتميز غيظا من ترتيبات "لاديس". فالعريف "أرخيميرو" لم يحدد هدفه وكثيرا ما سيطرت عليها فكرة أنه يخرج معها لمجرد التسلية:

- ألسنت متعجلة شوية، يا حلوة!

- شوفي يا "مارثي"، لم يتبق سوى سنة وثلاثة أشهر- كانت تقول بوجه مشرق:- الوقت يمر بسرعة دون أن نحس به.

ذات مساء، علمتها "لامارثى" التطريز، ومنذ ذلك الحين كانت تملأ أوقات الفراغ منهمكة في عملها. بالليل، كانتا تنامان سويا على نفس السرير وتُفَضَّى إليها "لاديس" بأسرارها. ذات مرة، سألتها "لاديس" باستغراب: "ألا تصلى، يا مارثى؟". ردت عليها الأخرى بشئ من الغضب: "ولماذا؟ حتى لا يسرقوني؟"

(سيبك)، يا حلوة، لا أحد يطلب اليوم النعيم المقيم". لكن "لامارثى" كانت تقول تتميز غيظا من كل الكلام الذى قاله "البيكانا" لصاحبته عن الزواج. كانت تقول لـ "لاتاسيا": "يُعْطَى الْحَقُّ لِمَنْ لَا أذن له، هل فى هذه القبيحة شئ يسترعى انتباه رجل؟" لكنها كانت تقول لـ "لاديس": "ديسى، يا حلوة، أنت هو أنت، لكنى لم أر فى حياتى من هو أقبح منه". فتسحب "لاديس" نفسها فى جانب من السرير لتفسح لها مكانا: "الكل ليس حسن الطلعة، وعلى أية حال، فلست ملكة جمال".

أحيانا أخرى، كانت "لامارثى" تزيد من قسوتها: "لا أعرف ماذا يعجبك فيه، يا حلوة إنه لا يعرف الألف من كور الذرة"، فلا يفرغ صبر "لاديس": "البيكانا" يقرأ بسلاسة، لكى تعرفى"، كانت تقول. لكن "لامارثى"، التى كانت ترعش فى قميص النوم مثل قطعة جبن فى خضها، كانت تضيف محرقة رأسها حركات تشكيكية: "لا أدري هل يأكل تبنا أم لا، أما الشعير فهو مؤكد".

فى بعض الأيام كانتا تهبطان سويا إلى الشقة الخالية من العجور "إلوى" وعندئذ كانت "لامارثى" تفتش فى جميع الأركان، تدخل غرفة العجور، تفتح وتغلق قطعاً الأثاث وتعلق تعليقات مُرة: "هذه هى المرحومة؟"، كانت تسأل وهى تشير إلى صورة. فتبتسم "لاديس": "نعم هى" فتصدر عن لامارثى إيماءة احتكار: "وجهها مثل وجه الكلب، من حظك أنك لم تتعرفى عليها". لم تكن "لاديس" تجيب فى

مرات أخرى كانت "لامارثي" تجعلها هدفا لهجومها المباشر والشخصي: "يالها من أرضية!، تنفع لحرث المحراث". "ماذا تقصدين، يا مارثي؟"، كانت "لاديس" تسأل بعفوية. فتضحك "لامارثي": «أقصد النظافة التي تحتاج إلى تجليخ". كان الخجل يعتري "لاديس" وتقول أن سيدها ليس مشددا كما انها تترك بعض الاعمال تتراكم عليها يوما بعد آخر. وعندئذ انفجرت "لامارثي": "على (قد) فلوسه، لو قلت لواحدة أنك مرتبطة بالعجور نظير مائتي بيرتية فلن تصدقك". كانت "لاديس" تحاول تبرير موقف سيدها، لكن "لامارثي" لم تكن تمهلها: "ليشترى لك ثيابا، فليهرش هذا البخيل جيوبه". كانت "لاديس" تحاول تغيير مجرى الحديث بذكر حفلة زفافها القادمة، لكن "لامارثي" في تلك الحالة كانت تحتمي خلف صمت مطبق، وإذا فتحت فمها فمن أجل تسميم بدنها. ومن هنا فإن "لاديس"، وإن كان ذلك يتم بشكل تلقائي، كانت تحاول تمضية أكبر وقت ممكن في الشارع. فقد كانت تخرج مع "البيكاثا" كل مساء، وعندما يحل الليل كان الفتى يحاول جرجرتها نحو الظلمة لكنها كانت تقاوم. وبالرغم من هذا، كانت الفتاة تبقى كالمُعْطَلَّة وتفقد الإرادة والسيطرة على نفسها بل والشعور بالخطر كلما ورد ذكر حفل الزفاف على لسان "البيكاثا". وهما يتطارحان الغرام على مقعد، والقلب مفعم بالأمل كانت الفتاة تغزل أحلاما وردية، حلما بعد آخر:

- يجب أن يكون حفلا صاخبا، يا "بيكاثا". "البوليشيه" لا ينفع: فهذه الفرقة الموسيقية لا تساوي خردلة.

- م... من جهتي، فالرقص لا يشدني، كما تعرفين.

ويطبق الصمت

- هل ستزوج بالبدلة الكاكي؟

- ف... في هذه الحالة، أوفر ثمن بدلة جديدة، أليس كذلك؟

- إلزم الهدوء، يا "بيكانا" .

- ب... بالطبع المكان يتسع للجميع، الأطفال و... .

تقف الفتاة بوثة واحدة:

- إنتهى! ألن تتعلم أبداً حفظ يديك اللعينتين هاتين؟

عادة ما تنتهى جولاتهما المسائية هكذا. فالفتاة التى تظل، عامة، سلسلة القياد وعزلاء إذا ذكر "البيكانا" حفل الزفاف، ينتهى بها المطاف إلى الإحساس بوخزة فى القفا إذا تمادى الفتى فى عبثه، وهو نفس الشعور الذى يتتابها فى كنيسة "سان يدرو" أيام الآحاد عندما يهز مساعد القسيس الجرس الصغير. كانت الفتاة تنسب هذه الظاهرة إلى التدخل العلوى لعذراء "لاجيا" وفى المساء تقدم لها الشكر وهى جاثية فوق سريرها السفرى. وبالرغم من ذلك، يبدو أن هذا السلوك المستقيم للفتاة قد بدأ يستهوى "البيكانا" الآن. لم يكن يأخذ صمودها على المحمل السيئ وإذا هبت واقفة وقالت هيا نمشى يطيعها بوداعة، وإذا قالت إلى "البأى بآى"، إلى "البأى بآى" إذن، وإذا طلبت أغنية "الريليكاريو"، يغنى "الريليكاريو"، وفى كل الأحوال لم يكن ييخل أبداً بإنفاق بيزيتة فى شراء لبّ عباد الشمس أو القسطل المشوى. كانت "لاديس" تعيش حلماً مشيراً وفقط، من حين لآخر، كانت تتذكر سيدها وتقول لنفسها بحنان دفين: "تُرى ماذا يفعل هذه الساعة؟ لا بد وأنه يستمتع بلذائذ ملريد". لكن جميع حواسها كانت فى الغالب مع "البيكانا" .

ذات صباح صحبها الفتى فى جولة بالشارع الرئيسى ورجعت الفتاة وهى شبه متحولة:

- "مارثى"، لن تصوورى كيف كان الشارع والكافريات وكل شئ. أماء، الناس! وكأنه يوم عيد.

رفعت "لامارثى" رأسها كالحصان:

- تتحدثين وكأنك قادمة من القرية اليوم فقط.

سكتت "لاديس" حتى لا تضطر إلى الاعتراف بأنها المرة الأولى التي تخرج فيها من البيت في مثل هذه الساعة منذ ثلاث سنوات.

في يوم آخر ذهبت مع "لامارثى" لمقابلة "البيكانا" وقت خروجه من مركز التدريب. كان الجنود المستجدون يمشون في ضجر، مثيرين سحابة من التراب، ويغنون بصوت نشاز نشيداً عسكرياً، لكن صوت "البيكانا" كان يبرز بقية الأصوات فأخذت "لاديس" رجفة وضغطت على ذراع صديقتها وتمتمت: «أنظري إليه، يا "مارثى"، إنه يسارى بمفرده فرقة بأكملها». نفس الرجفة الحنون كانت تتأبها كل سبت وهي تغسل قميص الفتى وسراويله في الحوض، وفي تلك الأحوال، يمكن الحلف على أنها لو أعطيت القدرة على تسوية ساقى "البيكانا" أو تطويل أنفه لما فعلت، لأنها لو فعلت لما أصبح "البيكانا" هو "البيكانا" الذي تهواه بكل ما له وما عليه.

في يوم أحد، بعد مرور عشرة أيام على رحيل العجوز "إلوى"، اتفقت "لامارثى" مع "لاديس" على حمل حاكى سيدتها إلى الشقة الخالية للرقص على موسيقاه هناك.

«سنقوم بكنس الشقة وتنظيفها بعد ذلك. لن يدرى العجوز بشئ»، قالت لها "لامارثى". اتفق العريف "أرخيميرو" مع "البيكانا" على اللحاق بهما في تمام الرابعة لكنهما تأخرا. وبقصد شغل الوقت أخبرت "لامارثى" صديقتها بعزمها على شراء فستان طوبى اللون لفصل الربيع، لكن "لاديس" لم توافق على الفكرة بإيماءة من رأسها فقالت لها "لامارثى": «أوضحى ما تريدين قوله، يا حلوة».

تمسكت "لاديس" بوجهة نظرها:

- بعد إذنك يا "مارثى"، من وجهة نظرى الطوبى لا هو لون ولا غيره.

ارتجف لحم "لامارثى" الرنخو وكأن به شحنة كهربائية:

- وماذا تعرفين أنت عن الألوان. سيدتى تلبسه ولن تقولى أنها لا تفهم فى اللبس. ولكى تخفى استياءها نهضت وأدارت الحاكى.

أضافت "لاديس" وهى جالسة على كرسى فى الصالة ويدها ممدوتان فوق حجرها:

- إنه لون الهوانم كما تقولين. والهوانم قد مللن من كل شئ ويلبسن أشياء مملة. عندئذ صاحت فيها "لامارثى" بأنها لاتزال تحمل القرية فى دمها فردت عليها "لاديس" قائلة بأن الذوق لا يخضع لقوانين مكتوبة فأهاج هذا "لامارثى" التى وصفتها، رافعة صوتها فوق صوت الموسيقى، بأنها أشد فظاظمة من حجر بشر وفى كل الأحوال فهى لم تطلب منها المشورة.

بقيتا نصف ساعة تستمعان للموسيقى دون كلام، وأخيراً أقبلت "لاديس" على صديقتها وقالت لها، وهى تلمس بخجل ذراعها الأبيض البض، أن الساعة تجاوزت الخامسة ولم يحضر أى منهما. ازداد الانتظار توتراً بمرور الوقت وفى الخامسة والنصف أطلت الفتاتان من الشرفة. قالت "لامارثى" جراب "البيكانا" ملئ دائماً بالمفاجآت، لكن "لاديس" أشارت بأن الطبع السيئ قد أصبح فى ذمة الماضى وأنها لم تره طبعياً فى حياته مثل الآن والشئ الوحيد الذى يمكن أن يكون قد حدث هو عدم حصولهما على تصريح لمغادرة المعسكر. عندما أعلنت ساعة "سان أديفونسو" السادسة، رأت "لامارثى" أنه من الأفضل النزول إلى الشارع وسؤال أحد زملائهما. وأثناء اتخاذ القرار وصل العريف "أرخيمىرو"

مشعث الرأس، مُصَفَّر الوجه، القبعة في يده وطلب كوباً من الماء ثم جلس خائر القوى على كرسى المطبخ المستدير فأضاءت "لاديس" النور لأن المساء كان قد حلّ ولكي تخفف من عتمة الأحداث القادمة والتي أحسّ بها قلبها.

هزت "لامارثي" الأرخيميرو من كتفيه وصاحت فيه :

- تكلم! ماذا حدث؟

اندفع حيثشد من فم العريف "أرخيميرو" سيل من المبهمات، لكن كلماته أخذت تتضح شيئاً فشيئاً ويصبح لها معنى. قال لقد حدث ما حدث عند "لاكابريتشيتوس"، مع إحدى الفتيات، لو لم يعثر "البيكانا" علي الفأرة الميتة في الشارع لما وقع شيء، لكنه أمسك بالفأرة الميتة من ذيلها وعندما خرجت "لادومي"، العوراء، من المحل رمى "البيكانا" الفأرة على وجهها فبكت الفتاة وصاحت فيه يا بن الزانية، وبما أنها سبّت أمه فقد طلب منها "البيكانا" أن تعتذر وتسحب كلامها، لكن الفتاة لم تكن في وعيها فصاحت فيه ثانية يا بن الزانية، وكرر تحذيره لكي تسحب كلامها فرددت يا بن الزانية يا بن الزانية، وهو على الجانب الآخر مصرّ على سحب كلامها وهي تعيد وتزيد حتى تملك "البيكانا" الغيظ، وكان ثملاً بعض الشيء، ففتح المطواة وذبحها في نفس المكان، على عتبة المحل في أقل من طرفة عين. ارتفع صمت حدادي، وأخيراً سمع صوت "لاديس" وكأنه فحيح:

- يا للعذراء!...

بدت مثل تمثال من الملح، وإصبعها متصلب فوق شفتيها، وعيناها خارج محجريهما. أضاف "الأرخيميرو":

- كانت الفتاة تنزف مثل خنزير. أماء، يا له من منظر مرعب!

غطى عينيه بكفيه واستطال الصمت لعدة دقائق. نجيب "لاديس" الأجنس كان يهز أحشاءها من الأعماق. ثم أخذت تعوى وتبكي بحرقة، لكن "لامارثي" اقتربت منها وجذبت ذراعها بعنف:

- أفعالك هذه لن تفيذ بشئ، إخرسى.

لكن "لاديس" كانت تصرخ قائلة بأنه الوحيد الذى بقى لها فى هذا العالم وأنه أفضل من كل ما يحيط بها وعندئذ صرخت فيها "لامارثي" غاضبة ومحاولة السيطرة على لوعتها، أما هذا فلا، فقد كان "البيكانا" دائماً مصدرراً للمشاكل ولم يفعل فى حياته سوى توريط نفسه وقد حدث ما ليس منه بد. تخلصت منها "لاديس" فجأة ونظرت إليها نظرة مسترسلة وكأنها تنظر إلى امرأة غريبة. ثم ناحت من جديد فالتفت "الأرخيمىرو" وقال أن "البيكانا" استرد هدوءه فى الحيز ومن المؤكد أنهم سيحاكموه كعسكري ويسجنوه بضع سنوات. كان العالم ينهار حول "لاديس" فصرخت صرخة حادة وأخذت تقول أن السبب فيما حدث هو الطبع السيئ وأنها ستجبر القاضى بهذا وستحضر "كولويكو" من القرية ومعها القسيس ليشهدان على هذا وهما أيضاً سيؤكدان بأن العرق السيئ هو السبب لأن البيكانا فى غير هذه الحالة العارضة شخص طيب القلب، لكن "لامارثي" أمسكت بذراعها وقالت لها بغلظة:

- العرق أو الطبع، لا تملين أبداً من تكرار هذه الكلمة؛ ليس له من عمل سوى البحث عن المشاكل، وهذا ما أضاعه، ضعى هذا حلقة فى أذنك يا "ديس".

دفعتها "لاديس" ودون وعى بما تفعل جرت على السلم، وفى الشارع أحست ببرودة أواخر الشتاء، وكلما جرت كانت الصفعات القاسية لواجهات المحلات والومضات المتعددة الألوان للمصابيح الكهربائية والعيون المشدوهة للمارة والأصوات والنباح والأجراس والأزيز الذى لا يتوقف للمدينة العاطلة تجلد وجهها بقسوة، لكنها لم تكن تلاحظ ذلك، كما لم

تكن تحس بأثر الركض المعجون فى عضلاتها ولا فى رتبتها بالرغم من قصر نَفْسها كما كانت تقول "لاكايا"، زوجة أبيها، وعندما دخلت المحكمة هبط اليأس والتعب والخوف عليها دفعة واحدة ولم تستطع الكلام، وعندما تمكنت أخيراً قال لها الشرطى لحسن الحظ أن القاضى لم يمنع زيارته حتى الآن وأن القضية ستحال فى الغالب إلى محكمة عسكرية لأن الأمر يتعلق بجندى فى الخدمة وأنه يمكنها رؤيته لبعض الوقت، وعليها أن تودّعه لأن المسألة خطيرة وستتظر كثيراً للعودة لرؤيته ثانية.

الآن، تخسنتق "لاديس" وهى تهبط درجات السلم الرطب، من الإحساس بقرب سقف القبو الذى لا يرتفع سوى شبرين عن رأسها، ومن خوفها حتى تلك اللحظة من عدم تصريحهم لها برؤيته. حيث رجل الشرطة العسكرية بابتسامة موقرة وقام أحدهما باقتيادها إلى الفتى الذى كان يدخن بالمبسم الجديد وهو جالس على كرسى، جلسة إباء وتحد.

- لم يغير "البيكاثا" من جلسته عندما رآها. قالت بصوت مشروخ:

- "بيكاثا"، ماذا فعلت، تكلم يا "بيكاثا"؟

كان يدخن دون توقف. قال، بنظرة غائرة وبشيء من الغطرسة:

- ك... كما رأيت.

- "بيكاثا"، ألا ترى أنك أضعت نفسك؟

لزم الصمت. ارتبكت "لاديس". أضافت متتحة:

- ما الذى ساقك إلى مكان هؤلاء النسوة، يا "بيكاثا"، تكلم؟ ماذا

كنت تفعل هناك؟

رفع "البيكاثا" عينين لارالتا عكرتين وحادتين:

- ال... السافلة شمتت أمى، وهذا ما لا أقبله.

ألحت "لاديس" :

- ماذا كنت تفعل هناك، تكلم؟

- ك... كما رأيت.

كانت الفتاة تتململ. نظرت بطرف عينا للحارسين، خفضت صورتها وقالت بأهمية:

- أخبرتهم عن الطابع السيئ الذى يلبسك أحيانا؟ - سألت. - أخبرتهم به؟

أخذ نفسا عميقاً من السيجارة ولم يجب. حينئذ تقدمت "لاديس" وأمسكت بذراعيه فى عصبية وأخذت تهزه بعنف:

- ماذا كان عليك فعله هناك، مع هؤلاء النسوة؟ ما الذى ساقك إلى هناك، تكلم؟

سقطت زهرة السيجارة على البنطلون فسحب "البيكاثا" أحد ذراعيه ونفض الجذوة بلطومات من كفه. بقيت الفتاة ساكنة تتأمل، بذهول يائس وخنون، لكن عندما اقترب الحارس وأخذها من ذراع وقال لها: «ها، الزيارة انتهت»، سرت رعدة بجسدها وحاولت جرجرة "البيكاثا" معها، وبما أن الحارس كان يشدها من الذراع الآخر فقد اضطرت أخيراً لترك "البيكاثا"، وفى تلك اللحظة أصابتها لوة والتفتت بوجهها المتسخ وصاحت من بين الدموع.

- لو احتجت لشيء، يا "بيكاثا"، أطلبه، أسمعته، ملابس أو أى شيء آخر، "بيكاثا".

وهن صوتها، لكنها استجمعت قواها وصرخت صرخات كثية كان تردد حديثها كلما صعدت درجات السلم:

- "بيكاثا"، ألا ترى أنك قد أضعت نفسك؟ ما الذى ساقك إلى مكان هؤلاء النسوة؟... ماذا كنت تفعل، تكلم؟

كانت أعراف الجرانيت تصطف خلف النافذة بسرعة تدير الرؤوس والعجوز "إلوى" يتأملها من على مقعده بافتتان ساذج. كان المقعد يابسا وصلبا فجلس على الحافة لكي يحمي "البروستاتا" من دفعاته الحادة، لكن ساقيه بهذا الشكل كان يصيبهما الخدر فيضطر إلى الوقوف من حين لآخر لكي يمدّهما وينشط مرور الدم بهما.

كثيراً ما كانت تهاجمه، على خلاف ما يشتهي، ذكريات مديرد فكان يهشها بحركة جافة من رأسه. وفي مقابل هذا، كان يفكر في بيته، وفي قرقرة النار وفي الكرسي المستدير بجوار الفرن، وعلى شفتيه ابتسامة العجائز تلك التي تبدو وكأنها تعويجة أكثر منها ابتسامة، ويستحضر "لاديس" بحنان فائق الوصف ويتخيل ما يمكن أن يحدث له لو عاد إلى البيت ولم يجدها فيه.

أثناء اجتهاده لمحاولة تخيلها، كانت ملامح الفتاة تتلاشى فيعيد العجوز "إلوى" تشكيل صورة لها عديمة الوزن، دؤوبة وسلسة، ملائكية تقريباً. أمامه، يغشى النعاس فلاحاً ذا يدين خشتين والطفلة التي تصحبه تختلس، بين الفينة والفينة، قطعة خبز كبيرة. تحدث العجوز "إلوى" مع زوجة ابنه، سوئيسو، عن "لاديس" بعد وصوله بثلاثة أيام وعندما أخبرها بتخصيصه ساعتين كل مساء لتعليم الفتاة القراءة والكتابة ضحكت "سوئيسو" ضحكات متقطعة، بإيقاع شبه ألي، وسألت "ليو" الذي كان يسند قفاه، كما هي العادة، على طرف الكرسي، لماذا لم يخبرها أن أباه في منتهى الظرف. لكن "سوئيسو" ما لبثت أن ملته على المدى الطويل:

- "إلوى"، لا تحاول، لن تكون ظريفا مثل تلك الليلة - كانت تقول له.

فى الأيام التالية، كررت "سوئسو" على مسامعه تلك العبارة، بالرغم من أن العجز لم يكن يحاول الاستطراف بل جعلها تميل إليه وتناديه بكلمة «أبى». تخيل فى بعض الأوقات أن هذا لو حدث لأمكنه تعلم تلك العادات بل والعيش فى تلك الدار حتى آخر العمر. لكنه كان يدرك تماما أن ما يتخيله لا يمكن حدوثه لأنه مجرد عائق، محتمل فقط لطبيعته المؤقتة.

حتى هذا الوقت لم يكن العجز "إلوى" قد قرر العودة بالرغم من شدة معاناته فى فترة ما بعد الظهر من عسر الهضم لتخليه عن عادة الارتكاز على ركبتيه بعد الغذاء. لكنه صبر على كل هذا واستسلم على أمل رؤية "ليونيتو" يتسم ذات يوم أو أن تناديه "سوئسو" بكلمة «أبى». ومع ذلك فقد ازداد عزوف ابنه وتجهمه يوما بعد آخر. فى بعض الأحيان كان يمر الصباح عليهما وهما جالسان فى الحديقة دون أن يجدا مادة للحديث. تخلى العجز "إلوى" عن فكرة عرض ميدالية تشريفه عليه، لأن "ليونيتو" لم يكن يتحدث تقريبا، وإذا فعل فمن أجل إبلاغه بأحاسيسه المبهمة والكريهة. حاول تشجيعه بشتى الوسائل:

- ماضيك الدراسى باهر ولديك زوجة جميلة وبيت رائع، يا بنى - كان يقول له-. ماذا تريد أكثر من هذا؟

فتعلو وجه "ليونيتو" أمارات الاشمزاز:

- ماض دراسى باهر، ياه! وما فائدته؟ تحت يدي واثق ووصايا، بعضها يصل إلى مائة مليون بيزيتة، حسنا، وماذا بعد؟. أما بالنسبة لوجه زوجتى الجميل فإنه لا يفيد فى تخفيف ألم من آلامى، صدقنى.

وعندئذ ينحنى عليه العجز.

- ألا يكون السبب أنك تملك أكثر مما كنت تتمنى، يا بنى؟

لم يكن "ليونثيتو" يجيب، كان يبرم بإصبعين من يده شاربه فى عصية المرة تلو الأخرى ويترك الوقت هكذا يمضى أثناء تأمله القمم المثلجة واللامعة للجبل فى سلبية مطلقة. وعلى نقىض هذا، فقد كان يتكلم كثيراً مع "سوئسو" على الغداء وغالباً ما كان يستخدم الفرنسية فى حديثه وإذا ضحكت روجة ابنه فى تلك الحالات تملك العجوز "إلوى" شعور غامض بعدم الارتياح. وعادة ما كانا يتحدثان عن السيارات وتقول "سوئسو":

- بعد أن غيرت البوجيهات لا تستطيع عربة "رولز" أن تسبقنى فى صعود مرتفع يا "ليو". كيف يكون لشئ صغير مثل هذه الأهمية الكبيرة؟

كان "ليونثيتو" يشرح لها وهى تتابع كلماته بشغف طفولى. كانت تخرج بالسيارة كل صباح حتى ساعة الغداء. رجعت فى يوم من الأيام وهى شديدة الهياج:

- لقد صدمت امرأة عرجاء، يا "ليو" عبّرت الشارع دون أن تنظر. ماذا تفعل امرأة عرجاء فى الشارع؟ أليس الأفضل لها البقاء فى البيت بدلاً من الخروج وإعاقة حركة المرور؟

استمر كدورها طوال فترة المساء وكلما أراد العجوز "إلوى" أن يسرى عنها تتذكر العرجاء وتتميز غيظاً. فى النهاية، آثر العجوز الصمت. كان يلمح من النافذة العريضة الثلج الشديد الصفاء للقمم العالية، ومع الثلج جاء "جويتو"، ابنه الصغير، على خياطه، وكلما مر الوقت أينعت الذكرى وتجددت حتى فاضت مع صباح اليوم التالى، فأبلغ "ليونثيتو" بقصد أن يشاركه همه، لكن "ليونثيتو" رفض أن يمد له يد العون:

- "جريجوريو" أخذ فرصته يا أبى وخسر، لا داعى للخوض فى هذا مرة أخرى -قال.

تنهد العجوز:

- كان مثاليًا- أوضح بخجل.

- مثالى، خاا لندع الترهات جانباً، يا أبى. لقد أراد أن يحصل على الشهادة (بالفهولة) كما يفعل كثيرون غيره لأنه لم يكن قادراً على الإمساك بكتاب أو تقديم أية تضحية. هذه هى مثاليته. لقد كان أنانياً، لا يعرف سوى مصلحته وبقي هناك، حيث لا يعيره أحد اهتماماً من أى نوع. هذا ما يحدث للكثيرين.

فى هذه اللحظة بالذات اتخذ العجوز "إلوى" قراره بالعودة إلى بيته. اصطحبته زوجة ابنه إلى المحطة لكنها عند وداعه نادته "إلوى" ولم تقل له يا أبى كمسا تمنى، وعندئذ فكر فى "لاديس" وركبه الغم من احتمال عدم وجودها بالشقة فى انتظاره. الآن، عند رؤية اليدين الكبيرتين للفلاحة الصغيرة وهى تقطع الخبز فى القطار، عاد العجوز إلوى إلى التفكير فى "لاديس" وتملكه القلق من احتمال تركها للبيت فى غيابه.

لكنه وجدها وقد امتلأت عينها، الخاويتان من الشجى، باللوعة:

- ماذا جرى، يا بنتى؟

شرعت فى البكاء:

- أهوى ما أنت شايف!

كانت قدماها تحملانها بصعوبة وأخيراً ارتمت على صدر العجوز وهى تتحبب. اختل توازن العجوز فأسند ظهره إلى الحائط. كانت قواه تكفيه بالكاد لنصب طوله لكنه لم يستطع خذلانها فى ذلك الطرف. تركها تبكى

فوق صدره، وفي النهاية، قصّت عليه ما حدث. كان يواسيها مُطَرِّياً صوته: «شدى حيلك، شدى حيلك». فترد عليه مكروبة: «الطابع السيئ هو السبب. قلبه أبيض لكن العرق السيئ أضاعه». كان العجوز يتأمل مذهولاً، من فوق شعر الفتاة الفاحم، مسكنه القديم بالواحه القديمة وأثاثه القديم وذكرياته القديمة الحية ويحس بنبضه. كان يشعر بأنه أكثر ثباتاً وتاماً وانتابته السعادة تقريباً وهو يقول:

- لماذا لا نذهب، يا بنتى، إلى السينما هذا المساء، أنا وأنت؟

اعتدلت بحركة مفاجئة. ابتسمت بخشونة فيما بين الدموع:

- (ده اللى كان ناقص!) - قالت-. هل جرى لعقلك حاجة؟

- هيا، جهزى نفسك.

- أتقدر على مثل هذا العمل!

- هيا، لا داعى للمزيد من الكلام.

قالت له الفتاة وهى فى ظلّ الصالة: «ولو رأنا أحد يا سيدى؟». رد عليها العجوز بينما كان (يُعَافِر) لإخراج المنديل: «لا تهتمى، يا بنتى». وأمام صور الشاشة الكبيرة خرجت عن وقارها. كانت تضحك أحياناً بصوت عال وتضرب أحياناً أخرى ذراعى الكرسي فى تشنّج. انتزعت نفسها، شيئاً فشيئاً، من هواجسها. لقد أمضت خمسة أيام سوداء وهى تبحث بلا جدوى عن مرفأ يقيها الفرق. لم تعد "لامارثى" تنفعها الآن بشئ. فلقد سبّت "البيكانا" ولم تعد ترغب فى العودة لرؤيتها. منذ ليلة الجريمة و"لاديس" تنام بمفردها فى الشقة ولم تعد تحس بالخوف من "لاأدريانا"، جامعة الصمغ، ولا من موسى، الفتى الذى احترق وجهه فى فرن الهندباء. أرادت ذات مساء استرجاع سكينتها فبسطت المفارش

الفخمة على سريرها السفرى، لكن منظر الوسادة التى لم يكتمل تطريزها أهاج مشاعرها وظلت تبكى لأكثر من أربع ساعات متواصلة وهى تعصر القماش بين أصابعها. فى اليوم التالى سمعت "لامارثى" تتحدث مع "لاتاسيا" من مسقط النور وصاحت بأعلى صوتها لكى تسمعها قائلة أن "البيكاثا" لم يكن يعرف الألف من كوز الذرة وأنه مصدر للمشاكل، وأنه كان يورط نفسه دائما وأن الحال قد انتهى به إلى ما ليس منه بد، لكن "لاديس" فعلت المستحيل لتكبح جماح نفسها ولا تطل من الشرفة.

بعد أن ظفرت بمأربها بالانتصار على هوى النفس، وقر فى عقلها أن ما كان بينها وبين "لامارثى" قد انتهى إلى غير رجعة.

بعد عودته بيومين عرض عليها سيدها الاقتراح الغريب بالتوفير من الوجبات بغرض الإكثار من ارتياد السينما. استدارت عينا "لاديس" : "من جهتى، لا تحمل هما".

وفى نفس ذلك المساء تلفعت من جديد بالسترة الصوفية المنقوشة وعطرت صدرها وخرجت مع العجوز إلى إحدى دور وسط المدينة. كانا يمشيان فى صمت وعند الدخول إلى السينما ارتبكت "لاديس" قليلا وهى تنبه: "المنديل، يا سيدى". تنظف وتمتم "شكرا" غير مسموعة.

وعلى مقعدها، فى السينما، فقدت الاحساس بالواقع. كانت تعيش الملهاة بحواسها الخمس: أحيانا تتحبب وأحيانا تضحك بعصية وهى تضرب فخدها براحة يدها.

كان العجوز يلفت نظرها: "عليك بالاعتدال يا "ديسى". فردد دون أن تنظر نحوه: "هيا، يا سيدى، اليسوب هذا صاحب الشارب فيه قوة فرعون". حذرها: "لاتنادينى بسيدى، يابتنى، فهذا مكانه البيت". لم ترد الفتاة. عندما خرجا من السينما قالت له: "يلزم كثير من الشجاعة

لَلزَّق هذه القبلات أمام الناس". "أَيَّة قبلات، يا بنتى"، سأل. "مرة أخرى! قبلات السينما- أضافت الفتاة-. كان "البيكانا" يقول... كان "البيكانا" يقول أن كل ممثلات السينما عديمات الحياء". هز العجوز رأسه: "لاتعمى، يا ديسى". فتحت عينها بقدر ما تستطيع: "لا...، ماذا؟"

أوضح العجوز: "لاتعمى، يابنتى. ليس كلهن سواء". هزت الفتاة كتفها. توقفت أخيراً، وعيناها مسطّتان على جدار أملس، لاثقب فيه. سألت:

-سيدى، ماذا تقول تلك الكلمات المكتوبة هناك؟

تنحجح العجوز بشئ من التكلف:

-تقول، ممنوع لصق الإعلانات واللعب بالكرة".

-وتحت؟

أطبق عينيه دون أن يغلقهما بالكامل. أجاب:

- النظر لا يسعفنى، يا بنتى.

فى البيت كانا يستعيدان أحداث الأفلام. كانت "لاديس" تشير إلى البطلين بـ "هو" و"هى" وتشير إلى الخائن دائماً بكلمة "الأجرد هذا". كان العجوز يسأل مستقصياً: "أى أجرد، يا بنتى؟" فنشطاً: "(حتسوق علىّ العَبْط من تانى!)".

بعد يومين حلّ الربيع الرسمى فقال العجوز للفتاة أنه من أجل الاحتفال بهذه المناسبة سيتناول العشاء معها فى المطبخ مثل ليلة عيد الميلاد. ارتبكت "لاديس":

-هل أنت فى كامل قواك العقلية؟

ألح العجوز:

-هيا، يابنتى، لاتضيعى الوقت.

كانت تتأمل بهينين ذاهلتين، ويدها الكبيرتان معقوفتان فوق حجرها:

-لاتبدأ من جديد- قالت:

لم يكن العجوز يسمعها. فَنَشَّ في حافظة التقود ومد لها يده بورقة مالية:

-اذهبي إلى الكافيتريا، واشترى رجاجة، هيا.

لم تتحرك "لاديس".

- ألم تسمعينى؟- عاود الإلحاح، بينما كان ينظف أنفه.

مدت يدها وأخذت الورقة المالية، ثم قالت:

- أحذرك، فلم أعد أتحمل الحفلات.

تغير العجوز:

- ليس الأمر كما تظنين، يا بنتى. إفعلى ما أمرك به.

وعندما تناولا كأسين، شرعت الفتاة فى الضحك وقالت له أنها اعتقدت منذ يومين مضياً أنها لن تعود إلى الضحك ثانية، لكنها بعد عودته إلى البيت لم تعد تشعر بالوحدة. عتذ أوضح لها العجوز أنه ولد وحيداً، لأنهم دفنوا والده ساعة ولادته وأن ما حدث للملك أسوأ مما حدث له.

قالت الفتاة:

- دعك من المزاح.

أضاف العجوز فى رتابه:

- لا أمزح، يا بنتى. عندما ولد الملك دثروه فى ملابس سوداء. وكما ترين، يابنتى، رجل يملك كل شئ، لكنه فى المقابل ليس له أب. هذه هى الحياة.

رفع رأسه وأحس بخدر الكحول وجرائه يسريان في عروقه وسأل الفتاة عما إذا كانت تعرف عدد الثواني التي يعيشها الإنسان ودون انتظار لإجابة أخذ جرعة أخرى، ثم أخرى، وعندئذ جال بخاطره أهمية الدفء في الحياة، وإن كان الإنسان يحتاج لنوعين من الدفء فإنهما، في الحقيقة، نوع واحد ولهذا السبب البسيط اخترع الإنسان النار وبعد اختراعها مضى كل شيء على مايرام، لأن الناس كانوا يتحلقون حولها فتظهر المودة الصادرة من ألسنة اللهب ذاتها ثم تعود إليها بعد ذلك لأن هذا هو الدفء المزدوج، دفء غريب آت ورائح. أراد أن يشرح هذا للفتاة لكن كلماته خرجت متشابكة ودون معنى.

كانت الفتاة تنظر إليه بانتباه، دون أن تفهمه وفكرت للحظة في "الأبولينار"، ابن عم "الأوتروبيو"، زوج أختها، الذي ذهب عقله لأن الريف كان يطبق على أنفاسه ولم يجد في المدينة ما كان يحلم به، لكنها مدت في الحال يدها وأبعدت الزجاجاة عن متناول العجوز. قالت في تسلط:

-لن تذوق قطرة أخرى.

أراح العجوز عينيه المجهدتين على الفتاة:

- "ديسى"، يا بنتى، لاداعى لما تفعلينه.

خيم صمت سُمع خلاله، بتواتر قصير، صوت قطرات الصنبور وهي تتساقط في الحوض. شرع العجوز أخيراً في الكلام بصوت يتدفق مثل ينبوع رقيق لكنه ثابت وأخذ يقول أن الرجال ظنوا يتجمعهم للدفء في المواسير أنهم حلّوا المشكلة لكنهم، في الحقيقة، خلقوها فمن غير المتصور وجودنا بلا دخان وبهذا الشكل تثار عقد المودة. نظرته الملهوفة الملتاثرة كانت مصوبة بشغل وتمادٍ نحو الفتاة، لكنها لم تشعر ساعتها

بالخوف بل بشفقة لاذعة وعندما أمسك العجوز بذراعها فى تشنّج وطلب منها بصوت عالٍ ألا تتركه، ردت فى هدوء:

- مرة أخرى! هل تكلم أحد عن الذهاب؟
أضاف:

- ابنتى، لماذا لا نقتسم القليل الذى أملكه؟
انثنت جبهة الفتاة عن طيّة أفقية عميقة. سألت:

- أيمكن معرفة ما تقصده، يا سيدى؟
أضاف العجوز وكأنه لم يسمعها:

- سأكون عائقاً لك، لكن لزمّن قصير. لقد طلعت لى الورقة الحمراء فى دفتر البفرة.

هزّت كتفها مندهشة:

- إذا لم تزد الأمر وضوحاً...
واصل العجوز إلحاحه:

- سيؤول إليك غدا هذا المتاع القليل - تنهد بعمق.

تملكتها الحيرة، وفى النهاية، أخذت كأساً وتجرعت ما فيه حتى الثمالة. بعد أن انتهت، ارتجفت يداها ولمعت عيناها الكليتان بضوء فجائى. وهى واقفة، نظرت باستسلام إلى العجوز، الذى كان قد نهض أيضاً، وعيناها مغرورتان بالدموع. قالت بصوت رفيع لا يكاد يُسمع:

- (الى تشوفه)، يا سيدى.

انتهت الترجمة - د. على عبد الرؤوف على البمبى

المشروع القومى للترجمة

ت : أحمد درويش	جون كوين	اللغة العليا (طبعة ثانية)
ت : أحمد فؤاد بليغ	ك. مادهو باننيكار	الوثنية والإسلام
ت : شوقي جلال	جورج جيمس	التراث المسروق
ت : أحمد الحضري	انجا كارييتنكوفا	كيف تتم كتابة السيناريو
ت : محمد علاء الدين منصور	إسماعيل قصيح	ثريا فى غيبوبة
ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد	ميلكا إفيتش	اتجاهات البحث اللساني
ت : يوسف الأنطكى	لوسيان غولدمان	العلوم الإنسانية والفلسفة
ت : مصطفى ماهر	ماكس فريش	مشعلو الحرائق
ت : محمود محمد عاشور	أندرو س. جودى	التغيرات البيئية
ت : محمد مقصم وعبد الجليل الأزدي وعمر حلى	جيرار جينيت	خطاب الحكاية
ت : هناء عبد الفتاح	فيسواقا شيمبوريسكا	مختارات
ت : أحمد محمود	ديفيد براونستون وايرين فرانك	طريق الحرير
ت : عبد الوهاب علوب	روبرتسن سميث	ديانة الساميين
ت : حسن المودن	جان بيلمان نويل	التحليل النفسى والأدب
ت : أشرف رفيق عفيفي	إلوارد لويس سميث	الحركات الفنية
ت : لطفى عبد الوهاب / فاروق القاضى / حسين الشيخ / منيرة كروان / عبد الوهاب علوب	مارتن برنال	أثنية السوداء
ت : محمد مصطفى بدوى	فيليب لاركين	مختارات
ت : طلعت شاهين	مختارات	الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية
ت : نعيم عطية	جورج سفيريس	الأعمال الشعرية الكاملة
ت : يعنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح	ج. ج. كراوثر	قصة العلم
ت : ماجدة العنانى	صمد بهرنجى	خوخة وألف خوخة
ت : سيد أحمد على الناصرى	جون أنتيس	مذكرات رحالة عن المصريين
ت : سعيد توفيق	هانز جيورج جادامر	تجلى الجميل
ت : بكر عباس	باتريك بارندر	خلال المستقبل
ت : إبراهيم الدسوقي شتا	مولانا جلال الدين الرومى	مثنوى
ت : أحمد محمد حسين هيكل	محمد حسين هيكل	دين مصر العام
ت : نخبه	مقالات	التنوع البشرى الخلاق
ت : منى أبو سنه	جون لوك	رسالة فى التسامح
ت : بدر الديب	جيمس ب. كارس	الموت والوجود
ت : أحمد فؤاد بليغ	ك. مادهو باننيكار	الوثنية والإسلام (ط ٢)
ت : عبد الستار الطوجى / عبد الوهاب علوب	جان سوفاجيه - كلود كاين	مصادر دراسة التاريخ الإسلامى
ت : مصطفى إبراهيم فهمي	ديفيد روس	الانقراض
ت : أحمد فؤاد بليغ	أ. ج. هوبكنز	التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية
ت : د. حصة إبراهيم المنيف	روجر آلن	الرواية العربية

الأسطورة والحدائث

نظريات السرد الحديثة

واحة سيوة وموسيقاها

نقد الحدائث

الإغريق والحسد

قصائد حب

ما بعد المركزية الأوروبية

عالم ماك

الذهب المزبوج

بعد عدة أصياف

التراث المنفور

عشرون قصيدة حب

تاريخ النقد الأدبي الحديث (١)

حضارة مصر الفرعونية

الإسلام فى البلقان

ألف ليلة وليلة أو القول الأسير

مسار الرواية الإسبانية أمريكية

العلاج النفسى التدميى

الدراما والتعليم

المفهوم الإغريقى للمسرح

ما وراء العلم

الأعمال الشعرية الكاملة (١)

الأعمال الشعرية الكاملة (٢)

مسرحيتان

المحبرة

التصميم والشكل

موسوعة علم الإنسان

لذة النص

تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢)

برتراند راسل (سيرة حياة)

فى مدح الكسل ومقالات أخرى

خمس مسرحيات أنطدلسية

مختارات

نتاشا العجوز وقصص أخرى

العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين

ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية

بول . ب . نيكسون

والاس مارتن

بريجيت شيفر

ألن تورين

بيتر والكوت

آن سكستون

بيتر جران

بنجامين بارير

أوكتايفيو پاث

الدوس هكسلى

روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين

بابلو نيرودا

رينيه ويليك

فراستوا دوما

ه . ت . نوريس

جمال الدين بن الشيخ

داريو بيانونيا وخ . م بيناليستى

بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج .

روجسيفيتز وروجر بيل

أ . ف . ألنچتون

ج . مايكل والتون

جون بولكنجهوم

فديريكو غرسية لوركا

فديريكو غرسية لوركا

فديريكو غرسية لوركا

كارلوس مونيث

جوهانز ايتين

شارلوت سيمور - سميث

رولان بارت

رينيه ويليك

الآن وود

برتراند راسل

أنطونيو جالا

فرناندو بيسوا

فالتين راسبوتين

عبد الرشيد إبراهيم

أوخينيو تشانج رودريجت

ت : خليل كلفت

ت : حياة جاسم محمد

ت : جمال عبد الرحيم

ت : أنور مغيث

ت : منيرة كروان

ت : محمد عيد إبراهيم

ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود هـ

ت : أحمد محمود

ت : المهدي أخريف

ت : مارلين تادرس

ت : أحمد محمود

ت : محمود السيد على

ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد

ت : ماهر جويجاتي

ت : عيد الوهاب علوب

ت : محمد براءة وعثمانى الميولد ويوسف الأشعل

ت : محمد أبو العطا

ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش

ت : مرسى سعد الدين

ت : محسن مصيلحي

ت : على يوسف على

ت : محمود على مكى

ت : محمود السيد ، ماهر البطولى

ت : محمد أبو العطا

ت : السيد السيد سهيم

ت : صبرى محمد عبد الغنى

مراجعة وإشراف : محمد الجوهري

ت : محمد خير البقاعى .

ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد

ت : رمسيس عوض .

ت : رمسيس عوض .

ت : عبد اللطيف عبد الحليم

ت : المهدي أخريف

ت : أشرف الصباغ

ت : أحمد فؤاد متولى وهوبدا محمد فهمى

ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد

السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود
السياسى العجوز	ت . س . اليوت	ت : فؤاد مجلى
نقد استجابة القارئ	چين . ب . توميكنز	ت : حسن ناظم وعلى حاكم
صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوف	ت : حسن بيومى
فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
چاك لاكان ولغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٣	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
العولة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	ت : سعيد الغانمى وناصر حلاوى
بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الفغرى
الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوى
مسرح ميچيل	ميچيل دى أونامونو	ت : محمود السيد على
مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالى
موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	ت : عبد الرازق بركات
طول الليل	جمال مير صادقى	ت : أحمد فتحى يوسف شتا
نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العنانى
الابتلاء بالغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
الطريق الثالث	أنتونى جينز	ت : أحمد زايد ومحمد محبى الـ
وسم السيف	ميچل دى تريباس	ت : محمد إبراهيم مبروك
المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
أساليب ومضامين المسرح	كارلوس ميچل	ت : نادية جمال الدين
الإسبانيون أمريكى المعاصر	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
محدثات العولة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوى
الحب الأول والصحة	أنطونيو بويرو بايخو	ت : سرى محمد محمد عبد اللط
مختارات من المسرح الإشباني	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
ثلاث زنيقات ووردة	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
هوية فرنسا	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	ديفيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
تاريخ السينما العالمية	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحى
مسألة العولة	بيرنار فاليت	ت : رشيد بنحدو
النص الروائى (تقنيات ومناهج)	عبد الكريم الخطيبى	ت : عز الدين الكتانى الإدريسى
السياسة والتسامح	عبد الوهاب المؤتب	ت : محمد بنيس
قبر ابن عربى يليه آيا	برتول بريشت	ت : عبد الغفار مكاوى
أوبرا ماهوجنى	چيرارجينيت	ت : عبد العزيز شبيل
مدخل إلى النص الجامع	د . ماريا خيسوس روبيرامتى	ت : د . أشرف على دعدور
الأدب الأندلسى		

ت : محمد عبد الله الجعدي	نخبة	صورة الفدائي في الشعر الأمريكي المعاصر
ت : محمود على مكى	مجموعة من النقاد	ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي
ت : هاشم أحمد محمد	چون بولوك وعادل درويش	حروب المياه
ت : منى قطان	حسنة بيجوم	النساء في العالم النامي
ت : ريهام حسين إبراهيم	فرانسيس هيندسون	المرأة والحريمة
ت : إكرام يوسف	أرلين علوي ماركليود	الاحتجاج الهادئ
ت : أحمد حسان	سادى پلانت	راية التمرد
ت : نسيم مجلى	وول شوينكا	مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع
ت : سميرة رمضان	فرچينيا وولف	غرفة تخص المرء وحده
ت : نهاد أحمد سالم	سينثيا نلسون	امراة مختلفة (درية شفيق)
ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال	ليلى أحمد	المرأة والجنوسة فى الإسلام
ت : لميس النقاش	بث بارون	النهضة النسائية فى مصر
ت : بإشراف/ رؤوف عباس	أميرة الأزهرى سنيل	النساء والأسرة وقوانين الطلاق
ت : نخبة من المترجمين	ليلى أبو لغد	الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط
ت : محمد الجندي ، وإيزابيل كمال	فاطمة موسى	الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية
ت : منيرة كروان	جوزيف فوجت	نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان
ت: أنور محمد إبراهيم	نيل الكسندر وفنادولينا	الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية
ت : أحمد فؤاد بلبح	چون جراى	الفجر الكاذب
ت : سمحه الخولى	سيدريك ثورپ ديفى	التحليل الموسيقى
ت : عبد الوهاب علوب	فولفغانج إيسر	فعل القراءة
ت : بشير السباعى	صفاء فتحي	إرهاب
ت : أميرة حسن نوبرة	سوزان باسنيت	الأدب المقارن
ت : محمد أبو العطا وآخرون	ماريا دولورس أسيس جاروته	الرواية الاسبانية المعاصرة
ت : شوقى جلال	أندرية جوندز فرانك	الشرق يصعد ثانية
ت : لويس بقطر	مجموعة من المؤلفين	مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)
ت : عبد الوهاب علوب	مايك فينرستون	ثقافة العولة
ت : طلعت الشايب	طارق على	الخوف من المرايا
ت : أحمد محمود	بارى ج. كيمپ	تشريح حضارة
ت : ماهر شفيق فريد	ت. س. إليوت	المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء)
ت : سحر توفيق	كينيث كوني	فلاحو الباشا
ت : كاميليا صبحى	جوزيف مارى مواريه	مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية
ت : وجيه سمعان عبد المسيح	إيفيلينا تارونى	عالم التليفزيون بين الجمال والعنف
ت : مصطفى ماهر	زينشارد فاچنر	پارسيغال
ت : أمل الجبورى	هربرت ميسن	حيث تلتقى الأنهار
ت : نعيم عطية	مجموعة من المؤلفين	اثنتا عشرة مسرحية يونانية
ت : حسن بيومى	أ. م. فورستر	الإسكندرية : تاريخ ودليل
ت : عدلى السمرى	ديريك لايدار	قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى

صاحبة اللوكاندة	كارلوس جولدونى	ت : سلامة محمد سليمان
موت أرتيميو كروت	كارلوس فويتس	ت : أحمد حسان
الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت : على عبد الرؤوف اليمبى
خطبة الإذاعة الطويلة	تاتكريد دورست	ت : عبد الغفار مكاوى
القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكي أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
النظرية الشعرية عند إليوت وأونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
التجربة الإغريقية : حركة الاستعمار	روبرت ج. ليتمان	ت : منيرة كروان
والصراع الاجتماعى		

(نحت الطبع)

الشعر الأمريكى المعاصر	تاريخ النقد الأدبى الحديث (الجزء الرابع)
الجانب الدينى للفلسفة	حكايات ثعلب
الولاية	شامبوليون (حياة من نور)
المدارس الجمالية الكبرى	الإسلام فى السودان
مختارات من الشعر اليونانى الحديث	العربى فى الأدب الإسرائيلى
العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	آلة الطبيعة
عدالة الهنود	ضحايا التنمية
جان كوكتو على شاشة السينما	المسرح الإشبانى فى القرن السابع عشر
الأرضة	أيديولوجى
علم الفراعنة	تاريخ الكنيسة
نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية والقوانين المعالجة	فن الرواية
العنف والنبوءة	ما بعد المعلومات
خسرو وشيرين	علم الجمالية وعلم اجتماع الفن
العمى والبصيرة (مقالات فى بلاغة النقد المعاصر)	المهلة الأخيرة
وضع حد	الهولوية تصنع علماً جديداً
التأريخين فى الحياة اليومية	مدرسة فرانكفورت نشأتها ومفزاها
أنطوان تشيخوف	مختارات من النقد الأنجلو - أمريكى
من المسرح الإشبانى المعاصر	

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٢٠٠٠/١٥٥٧

تنفيذ وطباعة: Stampa
تليفون: ٢٤٤٦٨٧٣ - ٢٤٦٠٢٤٤



La Hoja Roja de destino libro

يعتبر "ميجيل دى ليبس"، من أهم الروائيين الإسبان الذين ظهوروا خلال النصف الثاني من القرن العشرين .. وقد اكتسب "دى ليبس" الاحترام والتقدير على جميع الأصعدة؛ لأنه يولى جل اهتمامه للدفاع عن حرية الإنسان وكرامته وحقوقه الطبيعية، ويحذر- في الوقت نفسه - من مغبة الاستسلام للآلة ومن عواقب الإخلال بما أودعه الخالق في الكون من توازن ونظام. ولذلك نجد أن الكاتب يهتم بمعالجة الموضوعات الخالدة في رواياته، ويدافع عن القضايا الإنسانية، ويختار الشخصيات البسيطة العفوية التي تتصرف بتلقائية، والرواية، التي بين أيدينا، تعكس رؤية الكاتب في بعض القضايا، مثل الإحساس بالآخر، وبرودة المشاعر في إنسان العصر الحديث، ومسئولية الآلة عن تراجع القيم الإيجابية.

ومن أحداث الرواية - التي تدور حول موظف بسيط أحيل إلى التقاعد بعد بلوغه سن المعاش - أن يبرز مسؤولية التقدم المادي في انفراط عقد المودة والحنان بين بنى البشر.